الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة مولود معمري –تيزي وزو–
كلية الآداب واللّغات
قسم اللغة العربية وآدابها

مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵏ ⵜⵎⵙⵓⵔⵉⵏ ⵜⵜⵓⵜⵔⵉⵢⵉⵏ ⴳ ⵜⵣⵣⴰⵢⵔ

اليوم الدّراسي السّابع حول:

اللّغة العربية بين نظرية النّحو العربي ونظريات البحث اللّساني

منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر
2014

ينظِّم **مختبر الممارسات اللغوية** الكائن مقره بجامعة مولود معمري يوما دراسيا، من اقتراح طلبة الدّراسات العليا بعنوان **(اللّغة العربية بين نظرية النّحو العربي ونظريات البحث اللّساني)** يوم الأربعاء 29 جانفي 2014، ابتداء من السّاعة التّاسعة صباحا إلى السّاعة الثّانية بعد الزّوال، بالقاعة المخصّصة للمطالعة (مدرج ج) وعليه يدعو المنظّمون كافّة الطّلبة الرّاغبين في المشاركة، تقديم مداخلاتهم قبل تاريخ 20 جانفي 2014م في إحدى المحاور التّالية:

المحور الأوّل: اللّغة العربية واللّسانيات:

- علاقة اللغة العربية باللسانيات؛
- اللسانيات آلية لتطوير الأنحاء اللغوية؛
- النحو آلية لاستقامة الألسنة اللغوية واستمرارية اللغة العربية؛

المحور الثّاني: النّحو العربي أصوله وامتداداته:

- المرحلة التّأسيسية؛
- المرحلة التّعليمة (المنظومات والشّروحات)؛
- إشكاليات النّحو العربي في الأوساط الجامعية.

المحور الثّالث: النّحو العربي بين نظرية العامل ونظريات البحث اللّساني:

-النّظرية الخليلية؛
- النّظرية التوليدية التحويلية؛
- النّظرية الوظيفية؛
- النّظرية البنوية؛

اللّجنة العلميّة لليوم الدّراسي:

- الأستاذ الدّكتور صالح بلعيد؛
- الأستاذة الجوهر مودر؛
- الأستاذة خليفاتي حياة؛
- الأستاذ مرزوق فاتح؛
- الأستاذ ياسين بوراس.

الفهرس

إشكالية اليوم الدراسي.....	2
كلمة رئيسة اللجنة العلمية.....	5
برنامج اليوم الدّراسي.....	7
المرحلة التّأسيسية للنّحو العربي. أ. فاتح مرزوق.	9
العامل الديني في نشأة النّحو العربي. أ. بلال جندل.	35
وقع آراء الخليل في التّأسيس الحقيقي لمدرسة البصرة. أ. طاوس خلوات.	55
المرحلة التّعليمية: المنظومات والشّروحات. أ. عبد القادر معبد.	75
إشكاليات النّحو العربيّ في الأوساط الجامعيّة. أ. دليلة صاحبي.	93
وسائل تيسير تعليم النّحو العربي لتلاميذ الابتدائي: الشّعر التّعليمي أنموذجا). أ. حدة روباش.	103
نظرية العامل النّحوي أحقيقة لغوية؟ أم فلسفة نحوية؟ وصلتها بالنظرية التوليدية التحويلية. أ. يوسف بن خويا.	117
تطبيق النظرية التوليدية التحويلية على اللغة العربية: عبد القادر الفاسي الفهري أنموذجا. أ. ياسين بوراس.	143

النّظرية الخليلية الحديثة. أ. قادري محمد الأمين.	173
نحو اللّغة العربية من المنظور التّداولي لأحمد المتوكل. أ. نصيرة كتّاب.	185

كلمة رئيسة اللّجنة العلمية لليوم الدّراسي

أ. الجوهر مودر
جامعة تيزي–وزو

باسم الله الرّحمن الرّحيم؛ والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين؛ سيّدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطّيبين، ثم بعد:

- السّيّد عميد كلية الآداب واللّغات؛
- السّيّد رئيس القسم؛
- السّيّد مدير مخبر الممارسات اللّغوية في الجزائر؛
- الزّميلات والزّملاء الأساتذة؛
- الطّالبات والطّلبة، وكلّ الحاضرين؛

نرحب بكم جميعا في هذا اللّقاء العلمي الذي نتمنّى أن تعمّ الفائدة على الجميع وبالخصوص على الطّلبة، وبهذه المناسبة نتقدّم نحن أعضاء مخبر الممارسات اللّغوية بالشّكر لأهل الفضل من المسؤولين، وعلى رأسهم السيّد رئيس القسم الأستاذ شمس الدّين شرقي، والسّيد مدير المخبر الأستاذ الدّكتور صالح بلعيد لقبولهم احتضان هذا اليوم الدّراسي، وتلبيتهم رغبة الطّلبة، في منح الفرصة لهم للاندماج الفعّال في المنظومة التّعليمية المعاصرة والمتمثّل في نظام (LMD) الذي يقوم على البحث والتّقصي والمساءلة والنّقد والرّد، وهو منهج كان عليه السّلف الصّالح في عقد مناظراتهم التي كانت من أهم عوامل نشر العلوم والثّقافات في المجتمع الإسلامي. وبالمناسبة نفسها أبارك لهم حسن التّدبير، والإقبال على هذه المبادرة التي نتمنّى أن تكون بداية لنشاطات أخرى، تصنع من قسم اللّغة العربية وآدابها حركة علمية دؤوبة، وإذا اقتضى الواجب أن يردّ الفضل لذويه، فإنّي إذ أتقدّم بالشّكر الصّادق لكلّ الطّلبة المشاركين في هذا اليوم الدّراسي، فإنّي أخصّ

بذلك كلاّ من الأستاذ ياسين بوراس، والأستاذ فاتح مرزوق على اجتهادهما، فهما من اقترحا موضوع **(اللّغة العربية بين النّحو العربي ونظريات البحث اللّساني)** وحددا محاوره وهي:

المحور الأوّل: النّحو العربي أصوله وامتداداته؛

المحور الثّاني: اللغة العربية واللّسانيات؛

المحور الثّالث: النّحو العربي بين نظرية العامل ونظريات البحث اللّساني.

وكما يلاحظ القارئ الكريم، فإنّ هذه المحاور التي انبنى عليه الموضوع هي دعوة إلى تناول النّحو العربي انطلاقا من مرحلة التّأسيس لاستجلاء ما كان غامضا من حيث مناهجُه، وإبراز خصائصه، وربطه بالدّراسات اللّسانية الحديثة مع التّركيز على المحاولات التي سعت إلى تكييف المناهج الحديثة لتطبيقها على اللّغة العربية.

أتمنى للجميع جلسة علميّة مفيدة وطيّبة، والسّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

برنامج الجلسات العلمية

الجلسة الافتتاحية: 9:00- 9:30
كلمة رئيسة اللّجنة العلمية لليوم الدّراسي
كلمة مدير مخبر الممارسات اللّغوية
كلمة رئيس قسم اللغّة العربية وآدابها
كلمة عميد كلّية الآداب واللّغات

الجلسة الأولى: 9:30-10:15		
رئيسة الجلسة: أ. الجوهر مودر		
الأستاذ (ة)	عنوان المحاضرة	الجامعة
أ. فاتح مرزوق	المرحلة التّأسيسية للنّحو العربي.	تيزي-وزو
أ. بلال جندل	العامل الديني في نشأة النّحو العربي.	تيزي-وزو
أ. طاوس خلوات	وقع آراء الخليل في التّأسيس الحقيقي لمدرسة البصرة.	تيزي-وزو
استراحة قصيرة		
الجلسة الثّانية: 10:45-11:30 رئيس الجلسة: أ. مرزوق فاتح		
أ. عبد القادر معبد	المرحلة التّعليمية: المنظومات والشّروحات	تيزي-وزو
أ. دليلة صاحبي	إشكاليات النّحو العربيّ في الأوساط الجامعيّة.	تيزي-وزو
أ. حدة روباش	وسائل تيسير تعليم النّحو العربي لتلاميذ الابتدائي: الشّعر التّعليمي أنموذجا).	تيزي-وزو

الجلسة الثّالثة: 11:30-12:30 رئيس الجلسة: أ. ياسين بوراس		
أ. يوسف بن خويا	نظرية العامل النّحوي أحقيقة لغوية؟ أم فلسفة نحوية؟ وصلتها بالنظرية التوليدية التحويلية	جامعة سيدي بلعباس
أ. ياسين بوراس	تطبيق النظرية التوليدية التحويلية على اللغة العربية: عبد القادر الفاسي الفهري أنموذجا.	تيزي-وزو
أ. قادري محمد الأمين	النّظرية الخليلية الحديثة	تيزي-وزو
أ. نصيرة كتّاب	نحو اللّغة العربية من المنظور التّداولي لأحمد المتوكل	تيزي-وزو
مناقشة عامّة من سا 12:30 إلى 14سا		
كلمة ختامية لمدير المخبر		

المرحلةُ التّأسِيسيَّةُ للنَّحْوِ العربيِّ

مرزوق فاتح

جامعة مولود معمري، تيزي–وزو

مقدمة: علمُ النَّحو مِن أسمى العلوم قدرًا، وأنفعها أثرًا، به يتثقَّف أود اللسان ويسْلسُ عنان البيان فهو زينه وجمال لأهله، وعون على حسن أدائه، موصل لصواب النُّطق، مقيم لزيغ اللسان موجب للبراعة، مُنْهج لسبل البيان بجودة الإبلاغ، المؤدِّي إلى محمود الإفصاح وصدق العبارة عماً تُجنّه النفوس، وتكنُّه الضمائر من كرائم المعاني وشرائفها. فقيمة المرء تحت طيِّ لسانه لا طَيْلَسانه ولقد صدق إسحاق بن خلف البهْراني في قوله:

والنحو يصلح في لسان الألكن ** والمرء تكرمه إذا لم يلحن

وإذا طلبت من العلوم أجلها ** فأجلُّها نفعا مقيم الأَلســن

كان العربيّ قبل الإسلام يتكلّم بسليقة وجِبلة فطر عليها، دونما أيّ دراية بالإعراب، فقد كانوا يغدون ويروحون في بلادهم يقتنون من شَظَف العيش، غير متطلّعين إلى الحواضر التي كانت تجاورهم من بلاد الفرس والروم، وبقيت العرب على حالها، إلى أن سَطع نور الإسلام وحام ودار شبه الجزيرة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وتتابعت الفتوحات من عهد لعهد فكان لزامًا الامتزاجُ بين العرب والعجم وطفق هذا الامتزاج يتطور رويدا رويدا، فأضحت لغة العربيّ تشوبها عُجمة الأعجميّ، ويتسرب الضّعف إلى اللسان العربيّ، وتظهر لوثة اللحن وشائبة اللُّكنة، فوهنت عربيته وغدا قول الشاعر آنذاك منسيا:

ولست بنحوي يَلُوكُ لسانه ** ولكني سَلِيقِيٌّ أقول فأعرب

ومع كثرة صيحات اللحن وشائبة اللكنة، همت طائفة لصون هذه اللغة؛ كونها لغةَ القرآن الكريم فالعربيّ لم يألف هذا الخَدش الدّخيل على لسانه، فقد قيل: اللحن في الكلام أقبح من الجدري في الوجه.

ومن هذا السببِ الرئيسِ انطلقت بذور وضع قواعدَ تسلم العربيّ من الوقوع في هَفْوات اللَّحن ومكائده بتضافر الجهود، كلٌّ بقدرته، وما أوتي من قوة، ضمن هذه الإشكالية: **ما هو المنطلق النحوي لوضع هذه القواعد؟ وما هي المراحل الأولى التي تأسَّس عليها بنيان النّحو العربيّ؟ ما المنهجُ المتبع لضبط القاعدة النحوية؟**

أولا: زمن نشأة النحو العربيّ: هناك أمر مُهِمٌّ لا بدَّ من ذكره والتلميح له، وهو هل النّحو كان معروفا من لَدُن العربي قبل وضعه؟

من الحقائق القارَّة في الذّهن أن النّحو لم يكن معروفاً قبل الإسلام؛ لأنّ العربيَّ قد كان ينطق بسليقته وجبلته التي جُبِل وفُطر عليها، دونما أي تكلّف؛ كونهم لم يختلطوا بلوثة الأعاجم، فاللُّغة العربيُّة نشأت في أحضان الجزيرة العربية سليمة نقية.

وقد اتَّفق جمهور العلماء أن العربيّ لا يخطئ قَطُّ، فلغته يصرفها حيثما شاء؛ حتَّى إنّهم في الجاهليّة لم يألفوا ذلك، وفي هذا يقول مصطفى صادق الرافعي: **((نقطع بأن اللحن لم يكن في الجاهلية البتة، وكل ما كان من بعض القبائل في حور الطباع وانحراف الألسنة فإنما هو لغات لا أكثر))**[1].

ولكننا نجد ابنَ فارس يرى أن العربيّ كانت له درايةٌ بمصطلحات النّحو منذ عصر قديم ضف أنهم كانوا يتأمّلون طريقة كلامهم، وأن الكلام عندهم ليس من باب الاسترسال والترجيم؛ بل هو خبرة بقوانين الكلام العربيّ؛ حيث يقول: **((إن هذي العِلْمَيْن قد كانا قديما، وأتت عليهما الأيام، وقلا في أيدي الناس، ثم جددهما هذان الإمامان))** [2].

والرأي الذي ذهب إليه ابنُ فارس يَعْزو إلى دليل تاريخيّ، فهو لم يدل على أيِّ عصر الجاهليّ أم صدر الإسلام؟ لأننا نجد من المُحْدثين من ذهب هذا المذهبَ واستدل بحديث للرسول – صلى الله عليه وسلم – والذي رُوي عن عمر بن الخطاب أن الرسول – صلى الله عليه وسلم قال: **((رحم الله امرأ أصلح لسانه))**[3] وقد أبطل ابن الجوزي هذا الحديث وعَدُّه حديثا واهيا ولا صحة له؛ حيث وصفه الحكمُ بنُ عبد الله، بأنه "ليس بشيء"[4]

كما استدل أيضا بقول عمرَ بنِ الخطّاب – رضي الله عنه –:**((تعلموا العربية؛ فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة))**[5]، والظاهر أنّهم احتجوا بلفظة (العربية) وهذا المصطلحُ لم يظهر إلا في أواخر صدر الإسلام، ولعل المقصود بها التّمرن والتّمرس بلغة العرب من حفظ نصوصها شعرية كانت أم نثرية؛ حتّى يتمكّن المتكلم بالعربيّة من الفصاحة والبلاغة. وهذا كلُّه بغيةَ فهم كتاب الله، وهو القرآن الكريم.

ولاغَروَ أنه كان في العصر الجاهليّ حركةٌ نشطةٌ في تعلم الكتابة والقراءة هيَّأت للدّرس اللّغوي عند العرب في العصر الإسلام الأوّل، فقد وُجِد من الجاهليين من تعلّم الكتابة والقراءة ولا سيما في الحواضر؛ كالحيرة واليمن والجندل والطائف ومكة والمدينة المنورة. فهناك من تعلم بغير العربية كلقيط بن يعمر، وابنة عديّ الشاعر، وزيد العبادي فهؤلاء كانوا مترجمين في بلاط كسرى[6] من العربية إلى الفارسية.

وامتد هذا الاهتمام إلى العصر الإسلاميّ، فوُجِد في هذا العصرِ من تعلم الكتابة والقراءة وعلَّمها؛ كالحكم بنِ سفيان بنِ العاصي و جفينة العبادي؛ بل إن منهم بعضَ المسلمين كعبد الله بن عمرو بن العاصي كان يقرأ بالسريانية، كما وجه الرسول– صلى الله عليه وسلم– زيدَ بنَ ثابت لتعلم العبرية فيتعلمها[7] فالتاريخ ذكر لنا أن كتبةَ الرسول – صلى الله عليه وسلم – كانوا ثلاثين أو أربعين كاتبا.

ولكن في الوقت نفسِه نشير أن البحث اللغوي والنّحوي لم يكن مُبْكرًا، وإنّما كان في صدر الإسلام الأول لا قبله؛ كون المسلمين كانوا مهتمين بالتفسير والفقه والقراءات. وقد ذكر أحمد أمين:

((أن أكثر اللغة في العصر الإسلامي الأول لا قبله))[8].

ثانيا: مكان وضع النّحو العربيّ: نشأ النّحو العربيّ في العراق و في البصرة خاصة؛ حيثُ كان لأهلها ميل من طبيعة نشأتهم إلى الاستفادة من هذا الفن، وقد نبه العلماء إلى أقدمية البصرة بالعناية باللغة العربية؛ يقول الأديبُ المصري أبو سلام الجمحي (231 هـ): **((وكان لأهل البصرة في العربية قدمة وبالنحو لغات العرب عناية))**[9]؛ لذا نجد ابن النديم الوراق البغدادي يقدم علة في تقديم البصرة على الكوفة فقال: **((وإنما قدمت البصرة أولا؛ لأن علم العربية عنهم أُخذ))**[10].

ولعل الظروف المحيطة بالعراق تحتم أن ينشأ هذا الفن في أكفانها، ويرعى أصحابها هذا الفن العظيم على يد جَهابذة اللغة؛ لأنه كان موطن العجم قبل الإسلام وبعد الإسلام أقبل المسلمون عليه من كل صَوب وحَدب؛ حيث كان من أخصب الأراضي الإسلامية وأغناها، فاستوطنه العرب والعجم.

والمقصود بالعراق هاهنا البصرة والكوفة وليس بعداد؛ لأن بغداد لم تخطط إلا في صدر الدولة العباسية، والتي اتخذنها موطنا لها، وفي هذا يقول البغوي: **((فأما بغداد فمدينة ملك وليس بمدينة علم وما فيها من علم فمنقول إليها ومجلوب للخلفاء لأتباعهم ورعيتهم))**[11].

وقد كان العراقيون ذوي عهد بالعلوم والتّأليف، ولهم خبرة تليدة متوارثة، وفيهم شغف للتعرف على الوسائل التي تقوم ألسنتهم.

ثالثا: أسباب نشأة النحو العربي: إن النّحو لم يوضع هكذا، لو لم تكن الحاجة ملحّة لذلك، فهناك سيل عارم وجارف حل بالعربية جعل النَّعَرة العربية تقوم بصد هذا السيل، يعصم ألسنتهم من اللحن:

1- شيوع اللحن: يعد اللّحن هو الباعث الرئيسُ لنشأة النَّحو العربيّ وتدوين اللغة وجمعها وتصنيف قواعدها. ولقد سبقت الإشارة في البحث إلى أن اللّحن كان بسيطا ونادراً أيام الرسول عليه السلام، فقد روي من لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: **((أنا من قريش ونشأت في بني سعد فأتىّ لي اللحن))**[12] وهذا دليل على أن اللّحن كان معروفا بهذا الاسم، ويروى عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه قال: **((تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض))**[13]

وعلى الرُّغم من قلة اللَّحن في البيئة العربية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، إلا أن ذلك لا يجعلنا ننسى أن ضربا من أضرب اللحن كان قد شاع عند العرب قبل الإسلام، من قبيل الرواية التي بلَغتنا عن طرفة بن العبد، حين وجه انتقاده المشهور إلى المتلمس، إذ استنوق الثاني الجمل بقوله:

وقد أتناسى الهمَّ عند ادكارِه ** بنالٍ عليه الصيعرية مكدَم

وذكر الجاحظ أنهم قالوا: ((أول لحن سُمع بالبادية: هذه عصاتي، وأول لحن سمع بالعراق: حَيِّ على الفلاح))[14].

وفي عهد عمر رضي الله عنه تحينا المصادر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر برجلين يرميان فقال أحدهما: أسبْتُ، يريد أصبت، بإبدال الصاد سيناً فقال عمر رضي الله عنه: سوء اللحن أشد من سوء الرمي[15].

وقد روي أن كاتباً لأبي موسى الأشعري كتب إلى عمرَ رضي الله عنه من أبو موسى، فكتب إليه عمر: سلام عليك، أما بعد: فاضرب كاتبك سوطاً واحداً، وأخِّر عطاءه سنة[16].

ولما جاء العصر الأُمويّ كان اللحن قد اتسع شيوعه على الألسنة، وبعد تعرب الشعوب خاصة المغلوبة، التي كانت ما تزال تحتفظ ألسنتها بكثير من عاداتها اللغوية، ممّا فسح المجال للحن وشيوعه ونفس نازلة العرب في الأمصار الإسلامية أخذت سلائقهم تضعف لبعدهم[17]

ولم يسلم من اللّحن البلغاء والخطباء والأمراء، بَلْه العامّة، وصاروا يحذرون منه كلَّ الحذر؛ لأن اللّحن من الصّفات التي تشين صاحبها وتنزل من قدره في المجتمع[18]. فقد روي عن عبد الملك بنِ مروان أنَّه قال: **اللحن هجنة على الشريف، والعجمة آفة الرأي**[19].

وقد روي أن عبد الملك بنَ مروان قال حين قيل له: أسرع إليك الشَّيب، قال: شيبني ارتقاء المنابر مخافة اللحن[20].

2- المحافظة على كتاب الله والسنة المطهرة: وها هو السبب الثاني الذي جعل النّحو يقوم على ساقيه وهو سبب ديني؛ لأن العربيّ حريصٌ على المحافظة على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

فإذا كان جمع القرآن هو الخِطّة الأولى للمحافظة على القرآن الكريم من الضّياع والإتّلاف، فإنّ النَّحو العربيَّ هو الخطوة الثانية للمحافظة على سلامة تركيبه وقوة نظمه وبيانه، بعد أنّ أخذ اللحن يشوب ألسنة العرب؛ حتى سُمع اللحن يُذاع في القرآن الكريم .

وهذا السبب رد فعل مباشر لإبعاد تسرّب اللحن من القرآن؛ وحتى يكون هذا لابد من وضع قواعد وضوابط يُحمى بها القرآن، وقد أكدت كل الروايات أن وضع النحو العربي إنما لغرض ديني يتمثل في الحفاظ على لغة القرآن؛ كونه معجزًا في ألفاظه ومعانيه، وممَّا يدل على ذلك هو منطلق أبي الأسود الدؤليّ (69 هـ) في وضع النّحو حينما لجَّ اللّحن في قراءة القرآن.

فالمسلمون ما خافوا على البيان وحدَه؛ بل اللّحن الذي مسَّ القرآن، فاللّحن في آياته خطر كبير وشر مستطير، ومما يدل على ذلك تنبيه الصحابة أشرّ اللحن، فقد رُوي عن أبي بكر – رضي الله عنه– أنه قال: ((**لأن أقرأ فأخطئ أحب إليَّ من أن أقرأ فألحن لأني إذا أخطأت تعلمت وإذا لحنت افتريت**))[21] وقال الحسن البصريُّ أحد سادات التابعين (ت 110 هـ): ((إن الرجل قد يقرأ الآية فيفتي بوجوهها

فيهلك فيها خليله)) ورُوي عنه أيضا أنه قال: ((من لحن في القرآن فقد كذب على الله))[22].

بهذا اكتست واكتسبت اللغة العربية القدسية الدينية، قال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه: ((**تعلموا العربية فإنها لسان الله الذي يخاطب به الناس يوم الجنة**))[23].

وجدير الإشارة إلى أن الباحثين قد اقتصروا نشأة النحو لهذا السبب؛ وذلك للمحافظة على القرآن الكريم وفهمه، وأنّ كل العلوم إنّما هي خدمة للقرآن لا غيرُ لأن ثمة فرقاً بين محاربة اللحن وإرادة فهم القرآن؛ فمحاربة اللّحن إنما يمكنك من ضبط القواعد وأن تَحْذُو حذْوَ العرب في كلامها، وأمَّا إرادة الفهم ((**فالمقصود به البحث عن كل ما يفيد في استنطاق النص ومعرفة ما يؤديه التركيب القرآني على وجه الخصوص باعتباره أعلى ما في العربية من بيان**))[24]

وقد نبَّه ذلك من قبلُ الزجّاجيُّ حيث يقول: ((فإن قيل ما فائدة تعليم النحو؟ فالجواب في ذلك أن يُقال له: الفائدة فيه الوصول التكلم بكلام العرب على الحقيقة صوابا غير مبدَّل ولا مغير، وتقويم كتاب الله عز وجل الذي هو أصل الدين والدنيا والمعتمد، ومعرفة أخبار النبي صلى الله عليه وسلم، وإقامة معانيها على الحقيقة؛ لأنه يفهم معانيها على صحة إلا بتوفيتها حقوقها من الإعراب))[25].

3- ضرورة تعليم النحو للناشئة الجديدة: مما غرو فيه أن الرقعة الإسلامية اتسعت بسبب اختلاط العرب بالعجم، مما جعل الموالي المنتشرين في الأقطار العربية أن يتعلموا هذه اللغة؛ لأنهم ما كانوا ينطقون العربية على أصولها؛ فهم من المولدين، ضف إلى ذلك أنه وجد من أبناء جلدة الرعب من لا يتكلم العربية كونهم ليسوا من أصول عربية، فكان عليهم لزاما أن يقفوا على مرامي هذه اللغة، فيكون فصيحا بليغا يرفع من قدره ومنزلته؛ لذا يقول قاضي الكوفة وفقيه العراق أبو شبرمة عبد الله بن شبرمة (ت 145 هـ): ((**إذا سرك أن تَعْظُم في عين مَنْ كنت**

في عينه صغيرا ويصغر من كان في عينك عظيما فتعلم العربية، فإنها تجريك على النطق وتدنيك من السلطان))[26].

وقد حاول الخلفاء والأمراء أن يرسلوا أولادهم إلى البادية حتى يتعلموا العربية على أصول ويغترفوا من فصاحتها وقوة بيانها؛ كون لسانهم لا يختلط بالعجمة واللكنة، ويربوا ملكاتهم اللسانية على النطق الصحيح الفصيح والبلاغة المسبوكة المحبوكة.

4- فساد الملكة اللغوية: دخل الناس في دين الله أفواجا، واختلطت العرب بغيرها من القبائل والحواضر فقد اتسعت الرقعة الجغرافية للدولة العربية، خاصة في عهد عمر بن الخطاب شرقا من نهري السند وجيحون، غربا إلى الشام ومصر وفي عهد بني أمية شرقا إلى الهند والصين، وشمالا إلى سيبيريا، وغربا ما وراء جبال البرانس بالأندلس، كما امتدت إلى جزائر البحر الأبيض المتوسط.

فأضحت العواصم تهب على الجزيرة من صوب وحدب للدخول في هذا الدين الجديد، فاختاط هؤلاء صهرا ونسبا وجوارا من خلال الشئون الاجتماعية. وهذا ما صرح به ابن خلدون في مقدمته: **((فصار الناشئ الجديد يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر عن مقصوده))**[27]. وعليه ما دام أن ثمة اختلاط بين العرب والأعاجم، فلا غَرو أن تفسد الملكة اللسانية عند هؤلاء، ولعل هذا أحد أسباب نشوء علم النحو، فقد رُوي أن أبا الأسود الدؤلي أتى زياد بن أبيه وقد كان واليا أنا ذاك على الكوفة البصرة فقال له: **((إني رأيت العرب قد خالطوا هذه الأعاجم وفسدت ألسنتها أفتأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون به كلامهم؟))**[28] فالعربي أخذ اللغة سماعا، والسماع أبو الملكات وبالاختلاط فسدت هذه الملكة التي كان يعتمد عليها العربي في رواية الموروث العربي شعره ونثرِه، وها هو ابن خلدون يبين لنا حين قال: **((فلما جاء الإسلام** وفارقوا الحجاز لطلب الملك، الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم تغيرت الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين من العجم

والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها، إليه باعتياد السمع))[29]

وهذه هي الأسباب التي ذكرتْها جلُّ الكتب في نشأة النَّحو العربيّ، والذي نَلحظُه أن السبب الرئيس هو السبب الديني؛ لأنه يَمَسُّ أقدس كتاب كتابِ الله والسّنة المطهرة، فكان لزاما على العربيّ أن يَهُب للمحافظة عليه بوضع قواعدَ تحميه من المساس به وبقداسته، فالأمر الذي لا خلاف فيه؛ أنَّه من أراد أنْ يتعمق ويُبحر في القرآن الكريم؛ لابد أنْ يملك ناصية اللغة بكل أنواعها و ما تعلق بالنّحو خاصة.

رابعا: واضعُ علم النحو: دارت الآراء واختلفت في أوّل من وضع النحو العربي عند القدماء وانقسمت هذه الروايات في طوائفَ متعددة:

- فطائفة تنسبه إلى أبو الأسود الدؤلي (ت 69 هـــ)؛
- وطائفة تنسبه إلى أبي الأسود الدؤلي بأمر من عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛
- وطائفة تنسبه إلى أبي الأسود الدؤلي بأمر من الإمام علي رضي الله عنه؛
- وطائفة تنسبه إلى أبي الأسود الدؤلي بتشجيع عبد الله بن عباس؛
- وطائفة تنسبه إلى الإمام علي رضي الله عنه؛
- وهناك رواية نسبت هذا العلم إلى نصر بن عاصم الليثي وحده.

لكن يعد ابن سلام الجمحي (232 هـــ) أول من نسب وضع النحو إلى أبي الأسود الدؤلي في كتابه الطبقات إذ قال: **((وكان لأهل البصرة في العربية قدمة وبالنحو لغات العرب عناية وكان أول من أسس العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها أبا الأسود الدؤلي حين اضطرب كلام العرب))**[30].

ثم تتابعت الروايات في أن واضع علم النحو هو أبو الأسود الدؤليّ، فنجد كذلك أبا الطيب اللغويّ ينسب النحو إلى أبي الأسود حين قال: **((كان أول من رسم للناس النحو أبو الأسود الدؤلي))**[31] والقول نفسُه ذهب إليه أبو حجر العسقلاني: **((أول من وضع العربية ونقط المصحف أبو الأسود الدؤلي))**[32].

وقد ذكرت آنفا أن هناك رأيا يقول إن أبا الأسود وضعه بأمر من الإمام على رضي الله عنه، فقد روى أبو الأسود أنه ((دخل على أمير المؤمنين، فوجدت في يده رقعة، فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه ويعتمون عليه، ثم ألقى إلي الرقعة مكتوب فيها: الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أُنبِئ به، والحرف ما أفاد معنى، وقال لي: انحُ هذا النحو وأضف إليه ما وقع عليك واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة: ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر، وأراد بذلك الاسم المبهم. قال: ثم وضعت بابي النعت والعطف ثم بابي التعجب والاستفهام، إلى أن وصلت إلى باب إن وأخوتها، وما خلا لكنَّ، فلما عرضتها على علي عليه السلام أمرني بضم لكن إليها، وكنت كلما وضعت بابا من أبواب النحو الذي قد عرضته عليه، إلى أن حصلت ما فيه الكفاية، قال: ما أحسن النحو الذي قد نحوت، فلذلك سُمي النحو))[33].

كما نجد رواياتٍ أخرى تنسب هذا العلمَ إلى أحد تلاميذ أبي الأسود، يقول السيرافي:

((اختلف الناس في أول من رسم النَّحو فقال قائلون: أبو الأسود الدؤلي، ويقال الليثي، وقال آخرون عبد الرحمن بن هرمز))[34]. ولكن مع تضارب الآراء لوضع النَّحو بين أبي الأسود والإمام علي رضي الله عنه، فالأمر الذي نخاله قريبا إلى الواقع، ويرتضيه النظر وحسن التدبر أن أبا الأسود واضعٌ علمَ النحو؛ كونه واضعا أبوابا رئيسة فيه.

غير أننا نجد من المحدثين والمستشرقين مثل بروكلمان يرون بأن هذه الدراسات والجهود اللغوية التي تُنسب لأبي الأسود إنما هي من قبيل الأساطير. والرأي نفسه ذهب إليه شوقي ضيف حين قال: ((كل ذلك من عبث الرواة الوضاعين المتزيدين، وهو عبث جاء من أن أبا الأسود نسب إليه حقا أنه وضع

العربية، فظن بعض الرواة أنه وضع النحو، وهو إنما وضع أول نقط يحرِّر حركات أواخر الكلمات في القرآن بأمر من زياد بن أبيه أو ابنه عبيد الله))[35].

ومثلما وُجد منكرون في وضع النحو لأبي الأسود، الأمر نفسه للمؤيد للأسود الدؤلي في وضع النحو وأذكر منهم: النجدي ناصف[36]، محمد الطنطاوي[37]، طه وادي[38]، فتحي الدجني[39] .

خامسا: مراحل تأسيس النحو العربي: نشأ النحو العربي كائنا صغيرا ككل علم، فقد شهد التاريخ أن البصريين هم الذين تعهدوا النحو بعد مرحلة الوضع المُبْكرة بالعناية والرعاية قُرابة قرن كانت فيه الكوفة منصرفة عنه إلى رواية الأشعار والأخبار والمُلَح والنوادر، ثم تكاتف الكوفيون والبصريون في السعي في مضمار هذا الفن مع التنافس في ذلك تنافسا لم يلبث أن يكون شديدا قرابة قرن آخر من الزمان، وخرج بعد ذلك علم النحو تام الأصول كامل العناصر الأساسية.

فمن هذا المنطلق التمس العلماء المراحل التي اجتازها هذا العلم طبقا لنواميس النشوء، فلكل علم أطوار كما يمر بها أي وليد في حياته: وليدا وناشئا، وشابا وكهلا، فما وقفنا على ما يَشفي الغليل، وينير السبيل، إلا أن العلماء أدلوا بدلوهم بأن البصريين هم الذين وضعوا النحو وتعهدوه بالرعاية قرابة قرن إلى أن تكاتفت الجهود مع الكوفة. ثم شاء القدر أن يستتير هذا العلم ويرجح على المذهب البغدادي ن ثم راح هذا العلم يشع نوره في البلاد الإسلامية، وفي طليعتها الأندلس الزاهرة وبعدها مصر والشام وتخومها.

ومع تتبع التاريخ وجد علماؤنا أن النحو العربي مرَّ بمراحلَ أربعة، دون تعميق في الفاصل بين هذه المراحل؛ كونُها تعلقت وتداخلت ما بين سابقيها ولا حقيها؛ ولذا نجد العلماء يفصلون بين الأطوار التي مرَّ بها النحو تعلقت بتراجم تواريخ علمائها.

فالطور الأول: هو **الوضع والتكوين** أو **التأسيس** وهو بصري أصيل، **والطور الثاني طور النشوء والنمو** وهو بصري كوفي، وطور ثالث وهو **النضج والكمال**

كان بصريا كوفيا كذلك وطور رابع اختص **بالترجيح والبسط** وهو بغدادي مصري شامي.

المرحلة الأولى: الوضع والتكوين أو **التأسيس:** وتبدأ من عصر أبي الأسود الدؤلي (ت69ه) إلى عصر الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175ه) وقد استأثرت البصرة دون الكوفة؛ لأنها كانت منشغلة بالأشعار والمُلح والأخبار، وهذه المرحلة أثمرت ما أخذته من أبي الأسود، ووقفت على استنباط أحكامه، وقامت بقسط في نشره وإذاعته بين الناس.

وقد نبَّه العلماء لما لهذه المنطقة أي البصرة من أقدمية في دراسة اللغة العربية يقول ابن سلام الجمحي(232 هـ): ((**وكان لأهل البصرة في العربية قدمةٌ وبالنحو ولغات العرب عناية**))[40]، فالظاهر من خلال قول ابن سلام أن البصرة قديمة من حيث النشأةُ، ضف أنه اللغة أُخذت عنهم قبل الكوفة؛ لذا قُدمت البصرة عن الكوفة يقول ابن النديم: ((وإنما قُمت البصرة أولا؛ لأن علم العربية عنهم أُخذَ))[41].

وحين تتبع هذه المرحلة وُجد أن ثمة طبقتين من النحاة البصريين:

الطبقة الأولى: وممن تمثل في هذه الطبقة أبو الأسود الدُؤلي وتلامذتُه، فقد ذكرت الروايات أن أصحاب هذه الطبقة لم يدركوا الدولة العباسية، فنحو هذه الطبقة قد كان قائما على أساس الرواية والمسموع من الشعر والنثر. فهذه المرحلة تسمى **بمرحلة الولادة** أو **الجذور الأولى** وعليه لا بد من ذكر رجال الطبقة الأولى التي ذُكرت في الكتب والتراجم.

فمما لا ريب فيه أن رجال الطبقة الأولى أخذوا من شيخهم أبي الأسود الدؤلي فها هو السيرافي يذكر لنا بعض رجال الطبقة الأولى منهم: يحي بن يعمر، وعنبة الفيل الأقرن وميمون الأقران، ونصر بن عاصم الليثي .

- نصر بن عاصم الليثي (ت98 هـ).
- عنبسة بن معدان الفيل (ت100 هـ).

- أبو حرب بن أبي الأسود الدؤلي (ت 109 هـ).
- عبد الرحمن بن هرمز (ت117 هـ).
- ميمون الأقرن (ت117 هـ).
- قتادة بن الدعامة السدوسي (ت118 هـ).
- يحي بن يعمر العدواني (ت129 هـ).

• **منهج الطبقة الأولى في النحو:** المنهج الذي سارت عليه هذه الطبقة، هي ملحوظات في إعراب أواخر الكلمات أي: محاربة اللحن في قراءة القرآن الكريم؛ وذلك باختراع حركات الإعراب من خلال النقط أو ما يسمى **بنقط الإعراب** على يد أستاذ هذه المرحلة، وهو أبو الأسود الدؤلي مع محاربة التصحيف بابتكار نقط الإعجام على يد نصر بن عاصم الليثي.

وأما النّشاط النّحويّ النّظريّ لم تذكر الروايات أيَّ شيء؛ فلذا نجد ابن قتيبة (ت 296 هـ) في تصنيف طبقات رجال النّحو من خلال كتابه (المعارف) لا يذكر أبا الأسود الدؤلي ولا حتى تلامذته فقد بدأ بعبد الله بن إسحاق الحضرمي (ت117 هـ)، والداعي لذاك أن هذه الطبقة أصحابها اهتموا بالقراءة.

لكن المسائل اللغوية التي نُسبت إليهم، هي ملحوظات ذهنية مبنية على السليقة لا يمكن أن تُعدَّ من البحوث النحوية.

الطبقة الثانية: كانت هذه الطبقة أكثرَ نشاطا للظواهر النحوية واللغوية، حيث عمدوا إلى جمع المادة وتصنيفها وتأصيلها، والبحث عن أسرارها وتعليلها واستنباط الأحكام، فهي مرحلة التأسيس للأحكام النحوية وبناء القواعد والأصول ومن أبرز رجالات هذه الطبقة (عبد الله بن إسحاق الحضرمي (ت117 هـ) وعيسى بن عمر الثقفي (ت149 هـ)، وأبو عمرو بن العلاء المازني التميمي (ت154 هـ) إمام الإقراء بالبصرة

• **أهم جهود رجالات هذه الطبقة:** من أهم الأسس التي بناها جهابذة هذه الطبقة من النحاة واللغويين:

1- بناء الأصول والأسس: في هذه الطبقة ظهرت فكرتا القياس والسماع، وقد كان السبَّاق لفكرة القياس عبد الله بن إسحاق الحضرمي، فقد وصفوه بأنه ((**أول بعج النحو ومدَّ القياس وشرح العلل**))[42]، كما أنه أشد تجريدا للقياس، أو أنه ((**فرع النحو والقياس**))، ومن شدة تمسك ولوعه بالقياس كان يُخطِّئ الشعراء الذين يخرجون عن القاعدة المطردة، ودليل ذلك ما دار بينه وبين الفرزدق فقد روي أن الفرزدق حضر مجلس عبد الله بن إسحاق الحضرمي فقال له: كيف تنشد هذا البيت:

عينان قال الله كونا فكانتا ** فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

فأنشد الفرزدق (فعولان)، فقال إسحاق بن عبد الله، ما كان عليك لو قلت: (فعولين) فقال الفرزدق: لو شئتُ أن أسبح لسبحت، ونهض، فلم يعرف أحد في المجلس قوله: لو شئتُ لأن أسبح لسبحت، فقال عبد الله بن إسحاق: لو قال (فعولين) لأخبر أن الله خلقهما وأمرهما ولكنه أراد أنهما تفعلان ما تفعل الخمر[43].

فالقياس عند ابن أبي إسحاق إنما هو قائم على تصحيح الخطأ وَفق قاعدة مضبوطة مطردة لذا عرفوا النحو أنه ((**المقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب**))[44]

ونجد رجال هذه الطبقة من عُني بالسماع واعتدَّ بها في تقعيد القاعدة النحوية مثل، وهذا ما نجده عند أبي عمرو بن العلاء يقول أبو سلام الجمحي: ((كان أبو عمرو بن العلاء أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريب ألفاظها))[45] .ضف أنه كان أعلم الناس بالشعر الجاهلي وأنسابه، فهو لا يحتج إلا به يقول الأصمعي: ((جلست إلى أبي عمرو عشر حجج فما رأيته يحتج ببيت إسلامي))[46] .

2- ظاهرة الخلاف النّحويّ: في هذه المرحلة ظهرت قضية الخلاف النّحوي بين النّحويين واللغويين حيث أضحى كل نحوي يخطِّئ ويصوّب كالذي حدث بين عيسى بن عمر الثقفي، وبين أبي عمرو بن العلاء في تأويل قوله تعالى: ((يا جبالُ أوبي معه والطير)) [سبأ: 11] فكان عيسى يقول: النصب على النداء كقولك: يا

زيد والحارث، لما لم يمكنه، قال أبو عمرو: لو كان على النداء لكان رفعا، ولكنها على إضمار (وسخرّنا الطير) لقوله على إثر هذا و(لسليمان الرّيح).

3- ظاهرة تخطئة العرب: كان بعضُ النُّحاة يخطئون الشعراء ويطعنون في كلامهم وما ينظمونه في أشعارهم، **يقول الزبيدي: ((وكان ابن إسحاق الحضرمي وعيسى بن عمر الثقفي يطعنان على العرب))**[47]

فقد أخذ عيسى بن عمر عن قول النابغة:

فبت قد ساورتني ضئيلة ** من الرقش في أنيابها السم ناقع

ويقول وجهه أن يكون (السم ناقعا)

4- ظهور التّدوين النّحويّ في هذه المرحلة البحوث النّحويّة ظلت تتناقل شفويا في حلقات الدرس ومجالس المناظرة؛ ممَّا جعل هذه البحوثَ تتطور وتكتمل وتنضج على الجيل الذي بعده، كالخليل وتلميذه سيبويه ويونس بن حبيب، غير أن المصادر روت لنا أن عيسى بن عمر الثقفي ألف كتابين في النحو هما: (الجامع) و(الكامل) وهما اللذان قال فيهما الخليل:

ذهب النحو جميعا كله ** غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك إكمال وهذا جامع ** وهما للناس شمـــس وقمـــر

وبالجملة فإن منهج هذه المرحلة يقوم على الأسس والمبادئ الآتية:

- الاهتمام باللغة باعتبارها أداة للعمل القرآني
- اعتمادهم على السليقة اللغوية دون إمعان العقل
- الوصول إلى بعض الأصول والأسس القاعدية
- تفسير الظواهر اللغوية دونما الغوص في التعبير والدلالة.

المرحلة الثانية: مرحلة النمو والإبداع: هذه المرحلة في عصر الخليل بن أحمد الفراهيدي وأبي جعفر الرؤاسي إلى أول عصر المازني وابن السكيت الكوفي، وقد التقى رجال الطبقة الثالثة والرابعة والخامسة من البصريين برجال الطبقة الأولى والثانية من الكوفيين ومن هنا نتج لنا:

- التقاء رجال الطبقة الثالثة من البصرة بالطبقة الأولى من الكوفيين.
- التقاء الطبقة الرابعة من البصريين بزعامة سيبويه بالطبقة الثانية من الكوفيين بزعامة الكسائي.
- التقاء الطبقة الخامسة بزعامة الأخفش الأوسط سعيد بم مسعدة بالطبقة الثالثة من الكوفيين بزعامة أبي زكريا الفراء.

وأصحاب الطبقة الثانية منا لكوفيين بزعامة الكسائي تعلموا على يد المدرسة البصرية، فقد كان الكسائي يغترف من علم الخليل بن أحمد من خلال الحلقات العلم؛ كونه أُعجب بعلمه وسعة ذكائه. مما جعله يسأله: من أين أخذت هذا العلم ؟ فقال الخليل: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة.

فخرج الكسائي إلى هذه البوادي، ثم رجع من هذه البوادي، وقد أنفد خمس عشر قِنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه. فلما رجع وجد الخليل قد مات. ومن هنا تكونت المدرسة الكوفية بزعامة الكسائي والفراء، فقد رسما صورة النحو الكوفي.

والكسائي لم يؤلف أي كتاب في النحو، وإنما هي توجيهات إعرابية متناثرة في كتب البصريين والكوفيين، ومن هذا عُدَّ الفراء المؤسس الحقيقي للمذهب الكوفي ؛ كون أثره واضح في كتابه (معاني القرآن) فقد وصفته المصادر القديمة أنه ((أبرع الكوفيين وأعلمهم))[48].

ولعل في هذه المرحلة تَمَّ تشكيل المدرسة الكوفية مقابلة للمدرسة البصرية؛ وذلك للخلاف الواقع بين المدرستين، يقول السيوطي: ((وكان الكسائي يخالف الفراء في كثير من مذاهبه وأما على مذاهب سيبويه فإنه يعتمد خلافه حتى في ألقاب الإعراب وتسمية الحروف))[49].

وهذه المرحلة كذلك تميزت برجال أخذوا بالنحو إلى دار النمو، فقد برز الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي يُعدّ مؤسس الحقيقي للقياس وموطد أركانه، فقد قال فيه ابن جني: ((إنه سيد قومه وإنه كاشف قناع القياس في علمه))[50] والذي قيل فيه:

((إنه الغاية في تصحيح القياس واستخراج مائل النحو وتعليله))[51] وقد قال فيه السيوطي: ((إنه هو الذي بسط النحو، ومد أطنابه، وسبب علله، وفتق معانيه وأوضح الحجاج فيه حتى بلغ أقصى حدوده، وانتهى إلى أبعد حدوده))[52] وهذه الصفات إنما اقتبست من شيئين اثنين:

- سليقة العربية الموروثة، حيث إنه عربيّ قح.
- مخالطة أرباب الفصاحة من أبناء البوادي في نجد والحجاز وتهامة[53]

ومن رجال هذه المرحلة الفذ(سيبويه) صاحب(الكتاب) هذا الكتاب الذي يقرؤه يقال فيه: هل ركبت البحر؟ وهو يمثل هذه المرحلة بالبحوث التصريفية والاشتقاقية فقه اللغة وبحوث القراءات والتجويد والعروض، فما من مسألة صغيرة ولا كبيرة وقد كان ثقة في كل ما يرويه عن مشايخه؛ ولذلك يقول فيه ابن جني: ((صاحب هذا العلم، الذي جمع شعاعه، وشرح أوضاعه، ورسم أشكاله، ووسم أغفاله، وخلج أشطانه، وبعج أحضانه، وزم شوارده، وأفاد فوارده))[54] ولعل هذا العلم قد بسطه له شيخه الخليل حين يقول: (سألته) مما جعله متمكنا من تفسير الظواهر اللغوية.

- **مظاهر الإبداع في هذه المرحلة:** هذه المرحلة تعدُّ مرحلة شاملة؛ كونها عالجت فنونا شتى من نحو وصرف وصوتيات؛ إذا هي مرحلة إبداعيّة في الدّرس اللّغويّ، ومن مظاهر هذا الإبداع نجد:

1- نضج القياس: إنّ الشيء اللاَّفت للانتباه أنّ القياس نضج في هذه المرحلة؛ كونها تأثرت بعلم الكلام والفقه عند الخليل بن أحمد الفراهيدي خاصة، فقد كان القياس عند ابن أبي إسحاق الحضرمي هو القواعد المستنبطة، كما أنّه عند أبي عمرو بن العلاء عبارة عن منطق قياس ظاهرة على ظاهرة.

والقياس عند هؤلاء كان متأثرا بالقواعد الفقهية، وهذا ما نجده عند الخليل لما تأثر بأبي حنيفة النعمان؛ كونه فقيه العراق، ومن خلال هذا التأثر ظهر ما يسمى بالأصل والفرع في الدرس النحوي على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه، فقد قالوا: ((الإعراب أصل في الأسماء وفرع في الأفعال))[55]

2- نضج التعليل: لقي التعليل ذروته في هذه المرحلة؛ وهذا راجع لتطور استقراء؛ لأن التعليل هو استقراء ما قد تم جمعه من المادة اللغوية وتعليلها.

والتعليل في هذه المرحلة مرتبط بنصوص اللغة وقواعدها، ولم خارج هذه النصوص المستقراة فالتعليل هنا إنما مُفادُه تسهيلُ القواعد وحفظُ اللغة. ضف أنّه تبريرٌ لقواعدها وتوسيعٌ لأحكامها.

فالخليل يرى العرب أنها لم تنطق سبهللة وإنما هي سجية وطبع، فقد سئل الخليل عن هذا التعليل؛ حيث قيل له: ((عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال: إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها وعرفت مواقع كلامها وقام في عقوله علله))[56]

3- نضج فكرة العامل: قضية العامل من القضايا التي اتسعت دائرتها وتوسعت مسالكها حتى أضحى يقال لها: ((نظرية العامل)) فقد كانت عبارة عن قرائن لفظية، لكن مع كتاب سيبويه أصبحت نظرية كاملة مُدْعمة بالأحكام والتفريعات، فتدخل في كل الأحكام النحوية.

ومما يدل على تطور نظرية العامل عند سيبويه، تلك المصطلحات التي تتردد في كتابه (العامل القوي، العامل الضعيف، العامل الأصل، العامل الفرع، العامل المختص، العامل المحذوف). ولعل هذا كله قد استمده سيبويه من شيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي

ومما نخلص إليه من هذه المرحلة أن منهج هذه المرحلة ليس كسابقتها، وقد تميزت بـــ:

- اهتموا باللغة لذاتها؛
- أخذوا يُعنون بالعقل وأحكامه وتطبيقها على القواعد والأصول النحوية العامة؛
- الإغفال عن الشواهد النادرة القليلة التي لا تنطبق على الأصول؛

- طبقوا على النصوص ما قد توصلوا إليه من خلال التعليل، متأثرين بالتعليلات الفقهية.

المرحلة الثالثة: النضوج والاكتمال: كذلك هذه المرحلة كان لها رجال يقودون مسيرة النّحو إلى الأفق، وقد بدأت هذه المرحلة بأبي عثمان بكر بن محمد المازني (ت248 هـ) وهو زعيم الطبقة السادسة البصرية، والتي يقابلها ابن السكيت (ت246 هـ) إمام الطبقة الرابعة الكوفية، وتنتهي بالمبرد (ت285 هـ) إمام الطبقة السابعة البصرية، والتي يقابلها ثعلب (291 هـ) إمام الطبقة الخامسة الكوفية.

من أشهر رجال المدرستين في هذه المرحلة:

- أبو عثمان المازني من البصريين؛
- ابن إسحاق الجرمي من البصريين؛
- عبد الله بن محمد التوزي من البصريين؛
- أبو حاتم السجستاني من البصريين؛
- ابن السكيت من الكوفيين؛
- محمد بن سعدان الضرير من الكوفيين؛
- ثعلب من الكوفيين؛

الجهود الإبداعية في هذه المرحلة:

1- استقلال علم التصريف على النحو: ذكر الإمام السيوطي أن أول من وضع علم التصريف هو شيخ النحو الكوفي أبو مسلم معاذ بن مسلم الهراء الكوفي (ت178 هـ)، غير أن بروكلمان في تاريخ الأدب العربي أن أول من وضع علم التصريف هو معاصر الهراء وابن أخيه محمد بن الحسن بن أبي سارة المعروف بأبي جعفر الرؤاسي (ت 190 هـ).

لكن نشأة النحو كانت مرتبطة ومنوطة بعلم التصريف؛ لأن الأخطاء التي وقعت إنما هي في التركيب والبنية، فاللحن وقع في الحرف والصوت، ومن ذلك ما رواه

الجاحظ (ت255 هـ) من أنّ أول لحن سُمع في البادية (هذه عصاتي) بدل (هذه عصاي).

2- محاولة صياغة المادة النحوية صياغة جديدة: يعد المبرد - من خلال كتابه (المقتضب) أول شخصية نحوية تصدت للمادة النحوية؛ حيث مثلها بالشمول والصياغة والترتيب مخالفا في ذلك سيبويه، ومجمل ما ورد فيه:

- محاولة استخلاص القاعدة والتركيز عليها؛
- صقل المصطلحات النحوية وتحديدها واختصارها، على عكس ما كان عند سيبويه؛
- إكمال ما فات من سيبويه في التعريفات؛
- زيادة الشواهد على سيبويه مما التقطه من رجال اللغة والرواية كالأصمعي وابن الأعرابي.

المرحلة الرابعة: الترجيح والاختيار والاجتهاد: هذه المرحلة كانت مزيجا ما بين المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية، و ظهرت في بغداد؛ لأن هناك من النحاة من انتقل إلى بغداد وقد كان بصريا، ونجد الكوفي بالأمر نفسه، وفي هذه الفترة نشأ تياران، تيار يأخذ بيد البصرة، وتيار يأخذ بيد الكوفة، وفي هذه الفترة يعد المبرد زعيم المدرسة البصرية، وثعلب زعيم المدرسة الكوفية.

وقد اختلف في الفترة التي ظهرت فيها هذه المرحلة، فقيل ظهرت في القرن الثالث الهجري وهناك من يرى أنها اتسمت في القرن الرابع الهجري، يقول بروكلمان: ((ومنذ القرن الثالث الهجري أخذت المدرستان المتنافستان في البصرة الكوفة تتقاربان وتندمجان إحداهما في الأخرى باطراد، وسرعان ما غدت بغداد حاضرة الخلافة اللامعة للحياة العقلية كافة))[57]

وهناك من رأى أن المذهب البغدادي ظهر في القرن السادس الهجري، فجعل من رجاله ابن جني وأبو علي الفارسي، كما عدوا ابن خالويه (ت370 هـ) من

رجالاتها، الزمخشري (ت538 هـ)، وابن الشجري (ت542 هـ). ومنه اخذ اسم المذهب البغدادي.

خصائص الدرس النحوي في هذه المرحلة: مما لا ريب فيه عند الباحثين جميعا أن المدرسة البغدادية هي مزيج بين المدرسة البصرية والكوفية، وعليه ظهر عندهم التحرر العقلي والاختيار؛ لأنها وازنت بين المدرستين، فأضحى لهم رأيا في الدرس النحوي، فراحوا يختارون ويرجحون:

1- ظاهرة الخلط والمزج والجمع بين النحوين: من النحاة الذين أشاروا إلى هذا الخلط الذي وقع فيه أولوا هذه المدرسة أبو سعيد السيرافي (ت386 هـ) وهو يتحدث عن ابن كسيان (ت299 هـ) قال: ((وكان ابن كسيان يخلط المذهبين))[58] وقال عنه الزبيدي:((وكان بصريا كوفيا يحفظ القولين ويعرف المذهبين))[59]

ونجد حتى ابن جني يميل إلى المذهب البصري شأنه شأن شيخه أبي علي الفارسي، حينما يستعمل كلمة (أصحابنا) وهو يعني البصريين.

2- التوسع في القياس: يعد ابن جني وأبو علي الفارسي أصحاب مدرسة جديدة في القياس؛ حيث جعلا له قواعد ثابتة ومعالم محددة، وعدوه منهجا رئيسا تستمد منه القواعد النحوية، وحكموه في لغات العرب فقد كانا يعملان العقل في الأقيسة النحوية، حتى سمي عندهم (القياس المعنوي والصناعي) حيث يقول: ((الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ، وإن كان غير ما جاء به خيرا منه؛ لأن ما قيس من كلام العرب فهو من كلام العرب))[60]

وشيخه أبو علي الفارسي نجد ذلك إذ يقول: ((أخطئ في خمسين مسألة مما به الرواية، ولا أخطئ في مسألة واحدة قياسية))[61]، فالظاهر من قول أبي علي الفارسي أنه غض الطرف عن الرواية وأثبت القياس كي يثبت منهجا آخر عندهم.

ولعل السبب الذي جعل هذا المذهب ينحو نحو القياس، هو عدم توافر المشافهة عندهم.

1- التوصل إلى أفكار جديدة في الدرس النحوي: الشيء الذي برع فيه هذا الجيل هو اختراع علم أصول النحو واستكمال الصوتيات، وظهور مؤلفات جديدة كالخصائص لابن جني وسر صناعة الإعراب الاقتراح في أصول النحو للسيوطي والمنصف للمازني، فقد برع ابن جني بقدرته الحادة وذكائه الواسع أن يجتهد اجتهاد الواثقين الصائبين؛ كإيجاد الصلة بالألفاظ ذات الجذر الواحد، وذلك عن طرق التقاليب الستة وسماه حينئذ بالاشتقاق الأكبر؛ حيث يقول: ((هو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثة فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا تجتمع التراكيب الستة وما تصرف من كل واحد منها عليه ..))[62] .

الخاتمة

تضمن هذا المقال نشأة النّحو العربيّ، وكيف استغلظ واستوى على سوقه في رحاب القرآن الكريم، فقد رأى العربيّ أنه إذا لم يولِ اهتماما بهذه اللغة ويصونها؛ فإن سرطان اللحن واللكنة سيقض عليها؛ ذلك إن اللحن تسرب في بطون العرب لما اختلطوا بالأعاجم جراء الفتوحات الإسلامية. فخشوا على القرآن من الضياع فهمت كل طائفة لحفظ هذا الدستور الرباني وهو أعلى مستوى من البيان والبلاغة فكان واضعه على الأرجح أبا الأسود الدؤلي (ت69 هـ).

ضف إلى أن الّدرس النّحوي قد مر بأربع مراحلَ؛ وكل مرحلة لها رجالاتها التي حملت لواء هذا الدرسَ، فاتسعت في مدارجه وأبحرت في قواعده؛ حتى إذا أتى من بعدها أنضج هذا العمل وطوره:

- مرحلة الوضع أو التأسيس أو الولادة: ابتداء من أبي الأسود الدؤلي (ت 69 هـ) إلى عصر الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175 هـ)

- مرحلة النمو والإبداع: من الخليل بن أحمد الفراهيدي إلى المازني ابن السكيت.

- مرحلة النضوج والاكتمال: وتبدأ من المازني وتنتهي عند المبرد (ت285 هـ)

– مرحلة الترجيح والاختيار: والتي يقال إنها ظهرت في القرن الرابع الهجري وقيل في القرن السادس الهجري.

الهوامش:

1 – مصطفى صادق الرافعي، تاريخ الأدب العربي، دار الكتب العلمية، ط1. بيروت: 2000 دار الكتب العليمة، ج1 ص 239.

2 – أبو الحسين أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، تح: أحمد صقر، القاهرة: دت، طبعة عيسى الحلبي، ص13.

3 – ابن الجوزي، في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، تح: إرشاد الحق الأثري، ط2 باكستان: دت، إدارة العلوم الأثرية، ج2، ص 215.

4 – المرجع نفسه، ج2، ص 215

5 – أبو سعيد الحسن السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم الخفاجي، ط1. القاهرة: 1955، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده في مصر، ص 13.

6 – جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ط4. دب: 2002، دار الساقي، ج8، ص248–290.

7 – أبو جعفر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، دط. القاهرة: 1929، ج1، ص561.

8 – أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج1، ص29.

9 – أبو سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1، ص 12.

10 – ابن النديم، الفهرست، تح: إبراهيم رمضان، ط2. بيروت: 1997، دار المعرفة، ص102.

11 – أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي، مراتب النحويين، تح: محمد أبو الفضل دط. القاهرة: دت، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، ص 160.

12 – عبد الرحمن جلال الدين السّيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ط3. تح: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، القاهرة: دت، مكتبة دار التراث، ج2، ص397.

13 – عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، بيروت: 1423، مكتبة الهلال، ج2، ص 219.

14 – المرجع نفسه، ص 219.

15 – سعيد الأفغاني، في أصول النحو، 1994، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ص 08.

16 – أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي، مراتب النحويين، ص6.

17 – شوقي ضيف :المدارس النحويّة، ط7. القاهرة: د/ت، دار المعارف، ص12 .

18 – عبد الله الخثران، مراحل تطوّر الدّرس النحوي، الاسكندرية: 1973، دار المعرفة الجامعية ص 21 .

19 – الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص 216 .

20 – ابن قتيبة، عيون الأخبار، د/ط. بيروت: 1417، دار الكتب العلمية، ج2، 256.

21 – جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج2، ص 397.

22 – الستريني، تنبيه الألباب على فضائل الإعراب، تح: معيض بن مساعد العوفي، د/ط: 1989، دار المدني، ص 90.

23 – المرجع نفسه، ص76–77.

24 – عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ص 79.

25 – أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، ت: مازن المبارك، دار النفائس، ص 90.

26 – ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص30.

27 – ابن خلدون، المقدمة، نقلا عن المكتبة الإلكترونية (الشاملة)، ص426.

28 – أبو بكر محمد بن الحسين الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2. القاهرة: دت، دار المعارف، ص22.

29 – ابن خلدون، المقدمة، ص 515.

30 – أبو سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محد شاكر، جدة: دت، دار المدني ج1، ص 12.

31 – أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي، مراتب النحويين، تح: محمد أبو الفضل دط. القاهرة: دت، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، ص 24.

32 – أبو حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، بيروت: 1415، دار الكتب العليمة، ج2، ص 242.

33 – السيرافي، أخبار النحويين، ص 13.

34 – بروكلمان، تاريخ الأدب العربي : ت، عبد الحليم النجار، ط2، 1986، ج2، دار المعارف مصر، ص 123.

35 – شوقي ضيف، المدارس النحوي، ص 16.

36 – ينظر: علي النجدي ناصف سيبويه إمام النحاة، مطبعة لجنة البيان العرب مصر، 1591، ص11.

37 – ينظر: محمد الطنطاوي، نشأة النحو، ص10.

38 – ينظر: طه وادي، نظرات في اللغة والنحو، المكتبة الأهلية بيروت،1962 ، ص7.

39 – ينظر: فتحي الدجني، أبو الأسود الدؤلي، ص151 .

40 – المرجع السابق، ابن سلام الجمحي، ج1، ص 32

41 – ابن النديم، المرجع السابق، ص103.

42 – أبو بكر محمد بن الحسين الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2. القاهرة: دت، دار المعارف، ص 31

43 – الزجاجي، مجالس العلماء، المجلس 38، ص 58.

44 – ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار دار الكتب المصريةج1، ص 16.

45 – أبو سلام الجمحي، طبقات الشعر والشعراء، ج1، ص 14.

46 – القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1. بيروت: 1986 دار الفكر العربي، ج4، ص 133.

47 – أبو بكر محمد بن الحسين الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص32.

48 – القفطي، إنباه الرواة، ج04، ص 07.

49 – أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي، مراتب النحويين، ص 8.

50 – ابن جني، الخصائص، ج1، ص 361.

51 – شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم الأدباء، ط1. تح: إحسان عباس، بيروت: 1993، درا الغرب الإسلامي، ج11، ص 77.

52 – عبد الرحمن جلال الدين السّيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج1، ص41.

53 – إنباه الرواة، ج1، ص 258.

54 – معجم الأدباء، ج16، ص 117.

55 – أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تح: مازن المبارك، ط3. بيروت: 1979 دار النفائس، ص 77.

56 – المرجع نفسه، ص 66.

57 – كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج2، ص 221.

58 – السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص 113.

59 – الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص 113.

60 – ابن جني، الخصائص، ج1، ص 412.

61 – المصدر نفسه، ج2، ص 18.

62 – المصدر نفسه، ج2، ص 134.

العامل الدّيني ودوره في نشأة النّحو العربيّ

أ. بلال جندل

جامعة مولود معمري، تيزي- وزو

مقدّمة: بلغَ العرب من لغتهم منازل الجوزاء، وطاولوا ببيانهم في فنون القول السّماء، فكانوا بحقٍّ أساطين البيان، فظهرت حكمة المنّان، فأنزل بلغتهم القرآن "وهذه حكمة بالغة في سياسة أولئك الجُفاة وتألفهم وضمِّ نشرهم، فإنّ هذا القرآن لو لم يكن بلسان قريش ما اجتمع له العرب ألبتة ولو كانت بلاغته ممّا يحيي ويميت ثمّ كانوا لا يَعدون في اعتبارهم إيّاه أنّه ضرب من تلك الضروب الّتي كانت لهم من خوارق العادات، كالسّحر والكهانة وما إليها وهو الذي افتراه قريش ليصرفوا به وجوه العرب ويُميلوا رؤوسهم عن الإصغاء إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم فقالوا ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون... وهم كانوا أعلم بعادات القوم وما يبلغ بهم، حين قعدوا يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً. وهاهنا أصل آخر، وهو أنّ القرآن لو نزل بغير ما ألفه النّبي صلّى الله عليه وسلّم من اللّغة القرشيّة وما اتّصل بها، كان ذلك مَغْمَزاً فيه، إذا لا تستقيم لهم المقابلة حينئذٍ بين القرآن وأساليبه وبين ما يؤثرون من كلام النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيهوّن ذلك على قريش، ثمّ على العرب...".

فمن هذا الأصل صارت العلوم فيما بعد مدراها على القرآن وكلام الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ابتداءً وانتهاءً، وما قام النّحو ولا البلاغة ولا التفسير ولا الحديث ولا الأصول إلى غير ذلك من العلوم المتعلقة بالقرآن، إلاّ خدمة لهذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كيف لا؟ وهو الكتاب الذي فصّلت آياته من لدن حكيم خبير. فقد تردّد صدى مقولة أشهر من نار على علم وهي قول سلفنا الصّالح: "**شرف العلم بشرف المعلوم**"، وقد تنكّر لهذه

القضيّة من يمتّون إلى العربيّة بأوصال، وعدّوا مقولة من يقول إنّ حفظ اللّغة العربيّة منوطٌ بحفظ القرآن وقد توعّد الله تبارك وتعالى بحفظه في الآية الكريمة ضرباً من الاتكاليّة، وتناسوا أنّ حارس اللّغة العربيّة ليس يحرس اللّغة العربيّة فحسب بل يحرس القرآن الكريم هذه المعجزة الخالدة، لأنّه "**لم يأتِ دين من الأديان بمعجزة توضع بين أيدي النّاس يبحث فيها أهل كلّ عصرٍ بوسائل عصرهم**، غير الإسلام بما أُنزِل فيه من القرآن... فلا يلبث البليغ الّذي يفهم القرآن ولو لم يكن من أهله المؤمنين به أن يستيقن في نفسه أنّه **حارس اللّغة**، ثمّ **يغلو في هذا اليقين فإذا هو قد أوحت إليه نفسه أنّه ليس حارساً على اللّغة العربيّة فحسب، ولكنّه كذلك من حرّاس المعجزة**" كما يقول **الرّافعي** في كتابه (**إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة**)، وقالوا ندرس اللّغة في ذاتها ومن أجل ذاتها مقتفين أثر القاعدة السّوسيرية النّاصة على ذلك، بل سلّمهم الأمر إلى أبعد من ذلك، وهو أن يدعوا – زاعمين مفترين– إلى دراسة القرآن الكريم كأيٍّ نصٍّ من النّصوص مفرغاً من الهالة القدسيّة، هذه الدعوة القاضية باعتماد المنهج القائل بموت المؤلف كما دعا إلى ذلك رولان بارت، فهل الله تبارك وتعالى يموت؟!! وهو الحيّ القيّوم الذّي لا تأخذه سنةٌ ولا نوم، وهذا بشهادة النّص القرآني الّذي يدعون أنّهم من الملتزمين بتعاليمه!؟

ففي هذه القراطيس المعدودات سأحاول– والله من وراء القصد–، وفي ومضة أسرع من سنا البرق أن أبيّن العامل الديني ودوره في نشأة علم النّحو، وذلك في محاولة للإجابة عن جملة من الأسئلة وهي كالآتي: ما علاقة اللّغة العربيّة بالقرآن؟ هل نهض القرآن باللّغة العربيّة؟ وهل اهتمّ سلفنا الصّالح بسلامة ألسنتهم؟ وهل للحن وفشوّه دور في نشأة علم النّحو؟ وتصبّ كلّ هذه الأسئلة الفرعيّة في سؤال هو الأساس يسعى مقالنا هذا للإجابة عنه وهو: هل العامل الدّيني هو الأساس في نشأة علم النّحو؟ أم مردّه عوامل أخرى؟

1. **<u>اختلاف الألسنة آية من آيات الله</u>:** إنَّ من الآيات الواضحات، والحجج البيّنات، أية في القرآن الكريم تتلى، جاء فيها أنّ اختلاف الألسن من آيات الله

للعالمين تُروى[1]، حتّى يتميّز بها قوم عن قوم، وشعب عن شعب، فاللّغة هي "**صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، وجوداً متميّزاً قائماً بخصائصه، فهي قومية الفكر، تتحد بها الأمّة في صور التّفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة، والدّقة في تركيب اللّغة دليل على دقّة الملكات في أهلها وعمقها هو عمق الرّوح ودليل الحسِّ على ميل الأمة إلى التفكير والبحث عن الأسباب والعلل، وكثرةُ مُشتقاتها بُرهان على نزعة الحريّة وطِمَاحها**[2]". فاللّغة تجعل من الشّعب مبايناً لغيره، وإن كان الأصل واحد، والمخرج الحرفي واحد، لذا قال **العلامة السّعدي** –رحمه الله–: "[واختلاف ألسنتكم وألوانكم] على كثرتكم وتباينكم مع أنّ الأصل واحد، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين في كلّ وجه، ولا لونين متشابهين في كلّ وجه، إلاّ وتجد من الفرق بين ذلك، ما به يحصل التمييز[3]" وقد سبق **شيخ الإسلام أبو العبّاس بن تيمية** –رحمه الله– [ت: 728هـ] في جعل اللّغة شعاراً يتميّز به شعب عن شعب لمّا اعتبر "**اللّسان العربي شعار الإسلام واللّغات من أعظم شعائر الأمم الّتي بها يتميّزون**[4]"، **فلّما كان اللّسان العربي شعار الإسلام وأهله جعلهم "يَفرعون الأمم بما لديهم من آيات الوحي البيّنات ومشرقات جوامع الكلم اللائحات، تنفي عن الفطرة ما شابها من كدر، وتُذْهب عن صفحاتها ما ران عليها من غبش، بما تحمل من دلائل التوحيد، وإثبات الرسالة، وسمو الغاية، وأمارات المروءة**[5]**، وتقويم ما اعوجّ من مسلك الإنسان**[6]"، وكذا اللّسان الذي طرأت عليه اللّكنة واستحكمت فيه العجمة، ففسد وأفسد العقول، فحادت عن الجادة، فشاب التعبير غربة وهُجنة تنكرها الفطر العربية السليمة، جراء الاحتكاك المباشر بالأعاجم، فاختلطت الألسنة، وبَعُدت العربية عن منحاها، فتفطّن لذلك من تفطّن وسعى جاهدا لإصلاح العيوب، وتوجيه القلوب، ولزّها نحو ما كانت عليه سابقاً من صفاء ونقاء، إذ أنّ الأصل فيما كان البقاء على ما كان. وليس يستقيم للعربية علومها المختلفة إلاّ إذا استقام ميزانها، ومقوّم اعوجاجها وسائس علومها

ومروضّها وهو النحو، إذْ "**لا يصح الشّعر ولا الغريب ولا القرآن إلاّ بالنحو، النحو ميزان هذا كلّه، وقال أبو العبّاس ثعلب[7]: تعلّموا النّحو فإنّ أعلى المراتب[8]**".

2. **<u>العربيّة لغة القرآن العظيم</u>:** لقد خُصَّ العرب بفضل يميسون به أمام غيرهم من الأمم الأعجميّة مسلمها وكافرها، إذ أنزل الله آخر الكتب، وهو ناسخ لما دونه من الشرائع، هو القرآن العظيم، كلام ربّ العالمين، متعبّد بتلاوته، معجز بلفظه ومعانيه، فائق بنظمه كل الكلام على الإطلاق، حجّة للثقلين إنسهم، وجنّهم خُوطب به أفضل الأنبياء والمرسلين، بلسان عربي مبين، ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: 107]

فقد قيل: "**اللغة وعاء للفكر**"، فإن أحببنا أن نسبر أغوار فكر إنساني معين، أو حضارة من الحضارات العريقة، فلا سبيل موصل إلى ذلك إلاّ الألفاظ والمعاني اللّغوية التي تشكّل بدورها اللّغة التي تصبّ فيها كلّ أساسيات وجزئيات وفروع وأصول ودقائق... الفكر المراد استجلاء واستبطان محتوياته، فسعة اللّغة تعني سعة الفكر، وثراؤها ثراؤه والعكس بالعكس صحيح، وتفضلّ العربية في ذلك عمن دونها بما خُصّت به، وذلك كونها لغة القرآن فشرُف تعلُّمها لتعلقها بالقرآن الكريم وكما قال العلماء: "**شرف العلم بشرف المعلوم**"، إذا أنّ "**للعربية شجاعة صادقة في تعبيرهاّ، وفي اشتقاقها، وفي تكوين أحروفها ليس للغة أخرى، وإذا كانت اللغة هي خزانة الفكر الإنساني، فإنّ خزائن العربية قد ادّخرت من نفيس البيان الصّحيح عن الفكر الإنساني، وعن النفوس الإنسانيّة، ما يُعجز سائر اللّغات لأنّها صُفيّت منذ الجاهلية الأولى المُغرقة في القدم، من نفوس مطهّرة من الخسائس المزريّة، ومن العلل الغالبة، حتّى جاء إسماعيل نبيّ الله... وأسلمها إلى أبنائه من العرب... حتّى أظلّ زمان نبيٍّ لا ينطق عن الهوى –صلّى الله عليه وسلّم–، فأنزل الله بها كتابه بلسان عربيّ مبين، بلا رمز مبني على الخرافات والأوهام، ولا ادّعاء ما لم يكن، ولا نسبة كذب إلى الله...** [9]"، "فاللغة العربيّة هي: السابقة بالوصلة والآخرة بالنبوّة، والمقصود بالوصلة: المحافظة على خصائص

اللّغة العربيّة السّاميّة الأصيلة التي تفرعت عنها اللّغات السّاميّة المختلفة، وهي الآخرة بالنبوّة، بما نزل بها من الوحي المعصوم العصي على التحريف والتصحيف، المعصوم من التغيير والتبديل المحفوظ[10] من الزّيادة والنقصان[11]" فحازت الفضل والتمييز ابتداءً وانتهاءً، ولا ينكر ذلك إلاّ مكابر ومجادل، اتّبع هواه، وحاد عن الموضوعية والعقلانيّة العلميّة.

والعرب وقد كانوا ملوك فصاحة، وأساطين بيان، إلاّ أنّ القرآن بنظمه ولفظه قد تحدّى فصاحتهم وأعياهم دون الوصول إلى الإتيان بآية واحدة، بلهَ عشر أو كتاب بأكمله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، والآي في ذلك كثيرة، إذ قال الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله: ﴿**أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعو من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾ **[**يونس: 38**]** ﴿**أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾ **[**هود: 13**]** ﴿**قل لأن اجتمعت الانس والجنّ على أن ياتو بمثل هذا القران لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**﴾ [الإسراء: 88**]** ﴿**وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾ [البقرة: 23]،[12]، ومع هذا لا يعني أن القرآن نزل بغير لغة العرب، بل هذا من تمام الإعجاز والتعجيز، فهو كلام ربّ العالمين، ونزل بلغة العرب، **فلم يبعث نبيٌّ إلا بلغة قومه،** مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم**﴾ [إبراهيم: 04]، وقد أوحى الله في آي كثيرة أن القرآن عربيٌّ نزل بلغة العرب التي بها تكلّموا، ولمعانيها تشرّبوا، منذ نعومتها أظفارهم، وعلى لبنها فطموا، ومن قوتها اشتدوا، فقد قال الله تعالى: ﴿وإنّه لتنزيل ربّ العالمين نزل به الرّوح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربيّ مبين﴾ [الشّعراء: 192-195]، قال **العلامة السّعدي**-رحمه الله-: " **[بلسان عربي مبين]، وهو أفضل الألسنة بلغة من بعث إليهم، وباشر دعوتهم أصلاً، اللّسان البيّن الواضح....** [13]"، ويتقرّر هذا ويزيد وضوحاً، ونصاعة، وبريقاً، بقول الله

تعالى: ﴿إنّا أنزلناه قرآنا عربياً لعلّكم تعقلون﴾ [يوسف:02]، قال **العلامة السّعدي** –رحمه الله–: "**ومن بيانه وأنّه أنزله باللّسان العربي أشرف الألسنة وأبينها**[14]" وقال في موضع آخر: ﴿كتاب فصّلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون﴾ [فصّلت: 03]، قال **السّعدي** –رحمه الله–: " **[وقرآنا عربيّا]، أي: باللّغة الفصحى أكمل اللّغات، فصّلت آياته وجعله عربياً**[15]"، وقوله تعالى: ﴿وهذا لسان عربيٌّ مبين﴾ [النحل: 103]، وقوله: ﴿وكذلك أنزلناه قرأنا عربيّا﴾ [طه:113]، وقوله: ﴿قرآنا عربيا غير ذي عوج﴾ [الزمر: 28]، وقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا﴾ [الشورى: 07]. فبيّن ربّنا سبحانه أن القرآن العظيم، نزل بلغة العرب وبلسانهم ودعا إلى تدّبره، والنظر في معانيه، واستجلاء مراميه، فاجتمع مع كونه منزّلاً بلغة العرب، ومن الدّعوة إلى تدبّره أنّ الدّعوة إلى معرفة لغة القرآن وتعلّم اللّسان العربي ما تزال قائمة.

لقد بلغت العربيّة حين نزل القرآن حدّ الكمال اللّغوي، ولا ريب أن اتقان اللّغة وتوخّي وسائل أدائها وتنوّعها، إنّما هو انعكاس كما في نظرة الأجيال التي عكفت على هذه اللّغة، وصقلتها فصقلهم، وهذّبتها فهذّبهم، وأحكمتها فأحكمهم، وأودعوها دقائق عقولهم، فكانت في اكتمال بيانها صورة لاكتمال سلائقهم[16]. هذه السلائق التي هُيئت لاستقبال القرآن الكريم.

3. <u>نهوض الإسلام بالعربية:</u>

لا غَرْوَ أن للإسلام فضل في إرساء دعائم العربية، وتخليدها عبر التاريخ البشري، وجعلها لغة نفهم إزاءها أركانه ومبانيه العظام، فهو نقلة نوعية شهدها العرب في شتى مناحي الحياة، فلقد "**كانت العرب في جاهليتهم على إرث من إرث آبائهم ولُغاتهم آدابهم ونسائلهم وقرابينهم، فلما جاء الله جلا ثنائه بالإسلام حالت أحوال، ونُسخت ديانات، وأُبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع آخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت،...**"[17] فلم تعد اللغة لغة شعر ووصف وغزل... بل لغة شرائع وأحكام، فهي ثلاثة أرباع الإسلام.

"لقد كان للإسلام أثر عظيم في النهوض بالعربية، ومن مظاهر نهوضه بها:

- **<u>أولاً:</u> السمو بالأغراض، وتهذّيب الألفاظ:** فبعدما كان أهلها عاكفين على تصوير حياتهم السّاذجة، ووصف ما يدور حولهم من حروب ومنازعات، وما يزالون من صيد وقنص، وما يعانون من مديح وهجاء، وغزل وتشبيب. صاروا بالإسلام إلى حال مختلفة، فتحددت أهدافهم، وسمت ألفاظهم، واستقامت طبائعهم وانصرفوا عن الأغراض الجاهليّة، والأحوال المستهجنة، وتركوا الألفاظ والتغييرات التي تدلّ على الجاهليّة وحياتها، وأقبلوا على المعاني الشريفة والأصول المُنيفة.
- **<u>ثانياً:</u> نقل كثير من الألفاظ عن معانيها الأصليّة (اللّغويّة إلى المعنى الشّرعي):** فأصبح أكثر من الألفاظ معانٍ شرعيّة خاصة، الصّلاة، والصّوم والحجّ، والزّكاة، وكألفاظ: المؤمن، المسلم، والكافر، والفاسق، والمنافق.
- **<u>ثالثاً:</u> ظهور كثير من الألفاظ الإداريّة والسّياسيّة:** فمع استقرار المسلمين ومعرفة الحياة المنظّمة، عرفوا ألفاظاً تدل على الأوضاع الإداريّة، والأحوال السّياسيّة، كالخلافة، والولاية، والوزارة... وغيرها.
- **<u>رابعاً:</u> ظهور الكثير من المصطلحات العلميّة:** فقد استخدمت ألفاظ كثيرة في معانٍ اصطلاحيّة، ففي النحو مثلا: الفاعل والمفعول والعامل والإلغاء والتعليق... وغيرها؛ وفي الحديث الشّريف: السّند والمتن، والعلّة... وغيرها؛ وفي البلاغة: البديع، والبيان، والمعاني...وغيرها؛ وفي العروض: البحر والتفعيلة... وغيرها.
- **<u>خامساً:</u> استيعاب العربيّة لكثر من المصطلحات الوافدة:** فقد عمّت العربيّة ديار الإسلام كلّها، وهي لغة حيّة تساير الحياة، وتستوعب العلوم، وتلقي على الحياة العلميّة أكنافها[18]"

فلمّا كان شأن العربيّة في الإسلام على ما هو، عَنِيَ بها سلفنا الصّالح، وحثّوا على تعليمها وتعلّمها، ففهم الدّين وتطبيق شرائعه وأحكامه مرهون بفهمها، وفي

تضييعها تضييع لمصالح الدّين، وما كانت مصالح دينه ضائعة فمصالح دنياه أضيع وأضيع كما عبّر عن ذلك ابن قيم الجوزيّة –رحمه الله– في كتابه الماتع "الدّاء والدّواء".

4. <u>أقوال السّلف في الحث على الاهتمام باللّغة العربيّة وتعلّمها:</u>

لقد أُوثرت العديد من الأقوال عن سلفنا الصّالح، في الحثّ على تعلّم **النحو والإعراب**، اللّذان هما العربية ذاتها، **فبتعلم العرب للإعراب سيفتح لهم باب فهم الكتاب والسّنة اللّذان هما مشكاة التشريع**، وفيهما وعليهما مدار حياة المسلمين ولا سبيل إلى فهمهما إلاّ لمن أولى اهتماماً للعلوم الموصلة إلى تشرّب معانيهما وفهم مقاصدهما فهماً صحيحاً، لا تشوبه شائبة بغية التّطبيق الجيّد لأحكامهما المتكاملة، وسنذكر فيما يلي جملة من أقوال السّلف في الحثّ على تعلّم العربيّة وثمرة ذلك؛ ومن جملة تلك الأقوال:

❖ عن **أبي مسلم الخولاني** أن **عمر بن الخطّاب** –رضي الله عنه– قال: **تعلّموا العربيّة فإنّها تزيد في المروءة**.

❖ عن **عطاء بن أبي رباح** قال: بلغني أن **عمر بن الخطّاب** –رضي الله عنه– سمع رجلاً يتكلّم في الطّواف بالفارسيّة، فأخذ بعضده وقال: ابتغِ إلى العربية سبيلاً.

❖ عن **الشّعبي** (عامر بن شراحيل) قال: قال **أبو بكر الصّديق** – رضي الله عنه–: لأن أقرأ وأُسقط أحبَّ إليَّ من أن أقرأ وألحن.

❖ عن **عمرو بن دينار**: أنّ ابن عمر وابن عبّاس كان يضربان أولادهما على اللّحن.

❖ عن **يحي بن يعمر**، عن **أبي بن كعب**–رضي الله عنه– قال: تعلّموا العربيّة في القرآن كما تعلّمون حفظه.

❖ عن **جابر بن محمد بن عبد الرحمن بن زيد**: أنّ أبا بكر وعمر – رضي الله عنهما– قالا: لحفظ بعض إعراب القرآن أعجبُ إلينا من حفظ بعض حروفه.

❖ دخل على **عبد العزيز بن مروان** رجل يشكو صهراً له فقال: إنّ ختني فعل بي كذا وكذا. فقال له عبد العزيز: من خَتَنَك (بفتح النون)؟ فقال: ختنني الختّان الذي يختن النّاس!! فقال عبد العزيز لكاتبه: ويحك بم أجابني؟! فقال له: أيّها الأمير: إنّك لَحَنْتَ، وهو لا يعرف اللّحن، كان ينبغي أن تقول له: ومن ختنُك؟ (بضمّ النون)، فقال عبد العزيز: أراني أتكلّم بكلام لا تعرفه العرب! لا شاهدتُ النّاس حتّى أعرف اللّحن. قال: فأقام في البيت جمعة لا يظهر، ومعه من يعلّمه العربيّة، قال: فصلّى بالنّاس في الجمعة، وهو من أفصح النّاس. قال: فكان يعطي على العربيّة ويحرم على اللّحن، فقدم عليه زوّار من أهل المدينة وأهل مكّة من قريش، فجعل يقول للّرجل منهم: ممن أنت؟ فيقول: من بني فلان، فيقول للكاتب: أعطه مائتي دينار، حتّى جاءه رجل من بني عبد الدّار من مضر، فقال: ممن أنت؟ فقال: من بنو عبد الدّار، فقال: تجدها في جائزتك، وقال للكاتب: أعطه مائة دينار.

❖ قيل **لعبد الملك بن مروان:** أسرع إليك الشّيب!! قال: **شيّبتني كثرة ارتقاء المنبر ومخافة اللّحن.**

❖ قال **الخليل بن أحمد:** لحنَ **أيّوب السّختياني** في حرفٍ، فقال: أستغفر الله[19]. "وقد كان النّاس قديما يجتنبون اللّحن فيما يكتبونه أو يقراونه اجتنابهم بعض الذّنوب[20]" فأحسّ أيوب أنّه ارتكب ذنباً فاستغفر، فلو ارتكب ذنباً حقيقة ما كان صنيعه إذ ذاك؟!

❖ عن **عمر بن نافع عن أبيه** قال: كان رجل يصلّي إلى جنب **ابن عمر** فلحن، فأرسل إليه: إمّا أن تنحّى عنّا وإمّا أن نتنحّى عنك.

❖ وقال **مالك بن أنس: الإعراب حليّ اللّسان، فلا تمنعوا ألسنتكم حليّها.**

❖ وقال **ابن شبرمة:** إنّ الرجل ليلحن وعليه الخزُّ الأدكن، فكأنَّ عليه أخلاقاً[21]، ويَعرب وعليه أخلاق، فكأنّ عليه الخزُّ الأدكن[22].

"**ولم تزل الأئمة من الصّحابة الراشدين ومن تلاهم من التّابعين، يحضّون على تعلّم العربيّة، وحفظها، والرّعاية لمعانيها، إذ هي الدّين بالمكان المعلوم، فبها**

أنزل الله كتابه المهيمن على سائر كتبه، وبها تابع رسوله -عليه السّلام- وظائف طاعته وشرائع أمره ونهيه[23]"

5. <u>سبب فساد الألسنة، وترهّل السليقة العربيّة، ونشأة النحو:</u>

إنّ الناظر في الحقب اللّغوية الغابرة، لأيقن أن العرب في جاهليتهم تكلّموا اللّغة سليقة، ولم يحتاجوا في ذلك إلى معرفة قواعد نحويّة، وضوابط يلزموها اتقاءً للحن، وتجنّبا للخطأ اللّغوي، فما قام في أذهانهم عند قولهم: دخل زيدٌ، أن دخل (فعل) وزيد (فاعل)، والذي عمل الرّفع في الفاعل هو الفاعل، ولا بدّ من فعل وفاعل لتشكيل العلاقة الإسناديّة الصّحيحة؛ فهل لفشوِّ اللّحن واعتلاء اللّكنة، وترهل السّليقة العربيّة دور في نشأة النحو العربيّ؟

إنّ العرب "**لم تزل تنطق على سجيّتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها حتّى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل النّاس فيه أفواجاً، واقبلوا إليه أرسالاً**[24]**، واجتمعت فيه الألسنة المتفرّقة، واللّغات المختلفة، ففشا الفساد في اللّغة والعربيّة واستبان منه في الإعراب الذي هو حليتها، والموضّح لمعانيها فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام النّاطقين من دخلاء الأمم بغير المُتعارف من كلام العرب، فعظُم الإشفاق من فشو ذلك وعلّيته، حتّى ادّعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم، إلى أن سببوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه وتثقيفها لمن زاغت عنه**[25]"، وهذا ومن أمثلة فشو اللّحن في ألسنتهم، واعتلاء اللّكنة للغتهم، ما رواه **عاصم بن أبي النّجود**، قال: أوّل من وضع العربيّة **أبو الأسود الدُّؤلي**، جاء إلى زيادٍ بالبصرة، فقال: إنّي أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيّرت ألسنتهم، أفتأذن لي أن أضع للعرب كلاماً يقيمون به كلامهم؟ قال: لا فجاء رجل إلى زياد، قال: أصلح الله الأمير! توفّى أبانا وترك بنون، فقال زياد: توفي أبانا وترك بنون! ادع لي أبي الأسود: فقال: ضع للنّاس الذي كنت نهيتك أن تضع لهم[26]. ثمّ مرّ برجل يقرأ حتّى بلغ إلى قول الله تعالى: ﴿إنّ الله بريء من

المشركين ورسوله﴾[التوبة: 03] (بكسر اللاّم)، فقال: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليِّ العظيم، هذا والله الكفر.[27]

وقيل لأبي الأسود: من أين لك هذا العلم؟ يعنون النحو، فقال: لقنت حدوده من علي بن أبي طالب–عليه السّلام–، وكان أبو الأسود من القرّاء قرأ على أمير المؤمنين علي –عليه السّلام–

وقد اختلفت روايات النّاس في سبب وضع النحو، فمن ذلك ما تقدّم ذكره **وقيل:** إنّ ابنة لأبي الأسود الدُّؤلي قالت له: يا أبت ما أشدُّ الحرَّ في يوم شديد الحرِّ، فقال لها إذا كانت الصقعاء من فوقك، والرّمضاء من تحتك، فقالت: إنّما أردتُ أنّ الحرّ شديد، فقال لها: فقولي إذن ما أشدَّ الحرَّ! والصّقعاء: الشّمس، **وقيل:** إنّه دخل منزله، فقالت له بعض بناته: ما أحسنُ السماء قال: أي بنيّة: نجومها فقالت: إنّي لم أرد أي شيء منها أحسن وإنّما تعجّبت من حسنها، فقال: إذا قولي: ما أحسنَ السّماءَ! فحينئذٍ وضع كتاباً.

قال **أبو حرب بن أبي الأسود:** أوّل باب رسم أبي من النحو باب التّعجب وقيل: أوّل باب رسم باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الرّفع والنّصب والجرّ والجزم[28].

وحدّث آخرون في سبب وضع النحو أنّ أبا الأسود دخل عل عليّ عليه السّلام فوجد في يده رقعة، قال أبو الأسود: فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: إنّما تأملت كلام النّاس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء، يعني الأعاجم، فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه، ويعتمدون عليه، ثمّ ألقى إليَّ الرقعة، وفيها مكتوب الكلام كلّه: اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن مسمّى والفعل ما أُنبئ به والحرف ما جاء لمعنى، وقال لي: **انح هذا النحو**، فأضف إليه ما وقع إليك واعلم يا أبا الأسود أنّ الأسماء ثلاثة: ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر، أراد بذلك الاسم المبهم، قال أبو الأسود: فكان ما وقع لي إنّ وأخواتها، خلا لكن، فلمّا عرضتها علي عليّ رضي الله عنه قال لي: وأين لكن، فقلت: ما حسبتها منها

فقال: هي منها، فألْحقتها، ثمّ قال: **ما أحسن هذا النحو الذي نحوتَهُ، فلذلك سمِّيَّ نحواً**[29]"

ويُقال: وضع **عيسى بن عمر** في النحو كتابين: سمّى أحدهما "**الجامع**" والآخر "**المكمل**"، فقال **الخليل بن أحمد:**

بطل النّحو جميعًا كلــُّهُ غير ما أحدث عيسى بن عمرْ

ذلك "إكمال" وهذا "جامع فهمــا للنّاس شمسُ وقمــر[30]

فاختلاف الرّوايات من باب اختلاف التّنوع، لا التّضاد، ولا يعدّ هذا نقيصةً له بل هو ذلك البحر الزاخر الذي صينت به أعراض العربية التي طالما حاول الأعاجم استباحتها، وإبادة خضرائها، لكن هيهات هيهات، للعربية أن تتغير أو تتبدّل فلا زالت في شموخ مستمر، فلا قوانينها تغيّرت ولا أساليبها اضمحلت واندثرت، ويمكن القول خلاصة لما سبق من كلام حول اختلاف الروايات إنّ "**أوّل من أصل ذلك وأعمل فكره فيه، أبو الأسود الدُّؤلي، ونصر بن عاصم، وعبد الرحمن بن هرمز، فوضعوا للنحو أبواباُ، وأصّلوا له أصولاً فذكروا عوامل الرّفع والنّصب والخفض والجزم، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتّعجب والمضاف وكان لأبي الأسود في ذلك فضل السّبق وشرف التّقدّم، ثمّ وصل ما أصّلوه في ذلك التّالون لهم، والآخذون عنهم، فكان لكلّ واحد منهم من الفضل بحسب ما بسط من القول، وحدّ من القياس، وحقّق من المعاني وأوضح من الدلائل، وبيّن من العلل**[31]"

ويذكر العلامة المؤرخ **ابن خلدون** ما نقلناه سابقاً عن جهابذة هذا العلم، وعن بُنَاته الذي عانوا الأمرَّين لوضع لَبِنَاته، وتصفيف أحجاره، إلى أن صار صرحاً شامخاً منيفاً أرعن، وعلم متين محكم رصين، لا يشق له غبار، في شكل تأريخي تأصيلي، ما يُظهر أنّ لهذا الرّجل اليد الطولى في التأريخ لهذا العلم بشكل منهجي غاية في الدّقة والإتقان، لذا نجد يقول في هذا الصّدد: "فلّما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدّول وخالطوا العجم، **والسّمع أبو**

الملكات اللّسانيّة، ففسدت بما ألقي إليها ممّا يغايرها، لجنوحها إليه باعتياد السّمع وخشي أهل العلوم منهم أن **تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم** فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك **الملكة** مطّردة، شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه منها بالأشباه...ثمّ رأوا تغير الدّلالة بتغير حركات هذه الكلمات، **فاصطلحوا على تسميته إعراباً**، وتسمية الموجب لذلك التغير **عاملاً** وأمثال ذلك، وصارت كلّها اصطلاحات خاصة بهم، فقيّدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة **واصطلحوا تسميتها بعلم النّحو**"، وهذا وقد وضّح العلامة سبب وضع النحو في سياق تاريخي محكم، في محاولة صائبة منها لقطع اختلاف الروايات، وكثرة القيل والقال من باب الكتابة العلمية المحققّة الناجمة عن سعة اطلاع.

ثمّ ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن وضع هذا العلم في مراحل متفاوتة من التأسيس، إلى التأليف ثم المطولات والشروح عليها، إلى زمن الخوض في العلل والقياس في مرحلة جدّ متقدمة من هذا العلم العتيد، الذي كلّما خضت في عبابه، لا تنفك عن تريد عبارة: هل من مزيد؟؛ وقد كان "**أوّل من كتب فيها أبو الأسود الدّؤلي** من بني كنانة، ويُقال بإشارة علي –رضي الله عنه–[32]، لأنّه رأى تغير **الملكة**، فأشار عليه بحفظها، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المُستقرأة؛ ثمّ كتب النّاس من بعده إلى أن انتهت إلى **الخليل بن أحمد الفراهيدي** أيّام الرّشيد أحوج ما كان النّاس إليها، لذهاب تلك **المكلة** من العرب فهذّب الصّناعة، وكمّل أبوابها، واخذ عن سيبويه، فكمّل تفريعها واستكثر أدلتها وشواهدها، ووضع فيها كتابه المشهور الذي كان إماماً لكلّ ما كتب فيها من بعده، ثمّ وضع أبو علي الفارسي، وأبو القاسم الزجاجي كتباً مختصرة للمتعلمين، يحذون فيها حذو الإمام في كتابه[33]".

ثمّ طال الكلام في هذه الصّناعة وحدث الخلاف بين أهلها، في الكوفة والبصرة،... وكثُرة الأدلة والحجاج وتباينت الطرق في التعليم وكثر الاختلاف في

إعراب كثير في آي القرآن، باختلافهم في تلك القواعد، وطال ذلك على المتعلمين وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار، فاختصروا كثيراً من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نُقل، كما فعله ابن مالك في كتاب التّسهيل وأمثاله، أو اقتصارهم على المبادئ للمتعلمين، كما فعله **الزمخشري** في المفصّل و**ابن الحاجب** في المقدمة، وربّما نظموا ذلك نظماً مثل **ابن مالك** في الأرجوزتين الكبرى والصّغرى، وابن معطي[34] في الأرجوزة الألفيّة[35]".

وتشير بعض الرّوايات –المذكورة آنفاً– أن سبب وضع النحو سبب ديني قويّ، ومهما يكن من أمر فقد اتّجه العلماء في وقت مبكرٍ جدًّا إلى التّأليف في علم النحو، في رسائل صغيرة وأوراق محدودة، على ما هو في بدايات الأشياء، إلى أن جاء عبقري اللّغة العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي[36]، فمهّد الطريق لسيبويه إمام النحو الأوّل[37].

ولّما أصابت العربيّة حظّاً من التّطور أضحى الإعراب أقوى عنصرها، وأبرز خصائصها، بل سرّ جمالها، وأمست قوانينه وضابطه هي العاصمة من الزّلل المعوّضة عن السّليقة، لأنّ النّاس أدركوا حين بدأ اختلاطهم بالأعاجم أنّهم لولا خلاطهم لما لحنوا في نطق، ولا شذّوا في تعبير[38]، ويؤكد العلامة ابن خلدون أهمية النحو (ظاهرة الإعراب) عن سائر علوم اللّغة، وفضل السبق الذي حازه في مضمار العلوم اللّسانيّة إذ يقول: "فصل في علوم اللّسان العربي وأركانه أربعة: وهي اللّغة والنحو والبيان والأدب، **والذي يتحصل أن الأهم المقدّم منها هو النحو** إذا يتبيّن به أصول المقاصد بالدّلالة فيُعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة.... إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة...والله سبحانه وتعالى أعلم[39]".

فكانت "...اللّغة للعرب بالطّبع أي بالملكة الأولى الّتي أُخِذَت عنهم، ولم يأخذوا عن غيرهم، ثمّ فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم... وهذا معنى فساد اللّسان العربيّ. ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللّغات العربيّة وأصرحها لبعدهم عن

بلاد العجم من جميع جهاتها... وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصّحة والفساد عند أهل الصّناعة العربيّة والله أعلم[40]".

وخاتمة القول، وارتكازاً على ما أسلفنا نقله عن من سبقونا، وفي ذلك كفاية ودراية، لمن أراد للسانه أن يستقيم، وبيان غير مقتضب، لمن أراد أن يقوّم لسانه ويسير به إلى برِّ الفصاحة، وعوداً على ذي بدئ إلى مراتع الفصاحة، وكواكب السليقة العربيّة الدّريّة، والغوص في أعماق بحرها الزخّار، وبنطقها يحصل للمرء الفخار، وبالبعد عنها يناله العار والشّنار، ويلحقه إذ يلوك بلسانه رطانة الأعاجم الذّل والصّغار. ومسك الختام أن نقول أن النحو ليس من نافلة الطلب، بل هو واجب عيني على من راد أن يفهم مصادر التشريع على مرادها الذي أراده الله تبارك وتعالى، وعلى مراد رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، **ومالا يتّم الواجب إلاّ به فهو واجب**، بل تعلّمه ركن أساس، وحصن حصين، يعصم به المرء لسانه من الزّلل، وفحش اللّحن، فليس العيب أن يلحن المرء في قوله، وإنّما لحن القول سيلزّه إلى لحن الفعل، وينجّر إلى ما لا يُحمد عقباه. فليست لغتنا كأية لغة أخرى ألا يفهم العربيُّ ذلك؟ أم أنّه أبى إلى أن ينتسب إلى غيره، لعقد نفسيّة يعاني منها محاولاً أن يزيّف الحقيقة ويشوهها، وهي عروس حسناء غال مهرها، ومن أراد الحسناء فلا يستكثر مهرها، وليسع جاهداً لتحصيلها، ولا يحاول أن يسوق نفسه إلى فكرة خائبة تسبقها أوهام، وتعقبها آثام، فلا إلى الوراء رجع، ولا إلى الأمام تقدّم. فليست لغتنا لغة تواصل فقط، أو الغاية القصوى هي تحقيق هذا التواصل، بل الشأن كلّ الشأن في فهم أحكام الدّين الإسلامي المبني على فهم القرآن والسّنة بفهم سلف هذه الأمة من الكرام والأخيار، ومن سبقونا فهماً وعلماً وعملاً، فلسنا اليوم نضيف إلى ما قالوه شيئا، ولا يتأتى لنا ذلك لأنّهم قالوا كلّ ما يجب أن يُقال، وليس يقتصر دورنا اليوم إلاّ على الفهم والتطبيق لما قالوه، فعلينا أن نقف حيث وقف القوم، كما قال عمر بن عبد العزيز–رحمه الله– في خطبته المشهورة: "**قف حيث**

وقف القوم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفّوا"، وهذا يذكّرنا بقول الشاعر الحكيم:

وخير الأمور السّالفات على الهدى وشرّ الأمور المحدثات البدائع

وللإمام أبي منصور الثّعالبي درر ونفائس، وكلمة عطرة يتضوّع منها مسك دارين، وتفوح تعابيرها شذا وياسمين، في معرض الحديث عن العربيّة وعلاقتها بحبّ الله وحبّ الرّسول وحبّ العرب، قائلا: "من **أحبّ الله، أحبّ رسوله المصطفى، ومن أحبّ النّبي العربي، أحبّ العرب، ومن أحبّ العرب، أحبّ اللغة العربيّة التي بها نزل أفضل الكتب، على أفضل العجم والعرب، ومن أحبّ العربيّة عنيَ بها وثابر عليها**، وصرف همّته إليه، ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أنّ محمّداً –صلّى الله عليه وسلّم– خير الرّسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، **والعربيّة خير اللّغات والألسنة** والإقبال على تفهّمها من الدّيانة، إذ هي أداة العلم، ومفتاح التّفقه في الدّين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثمّ هي لإحراز الفضائل، والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب، كالينبوع للماء، والزّند للنّار، ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها والوقوف على مجاريها ومصارفها، والتّبحر في جلائلها ودقائقها، إلاّ قوّة اليقين في معرفة إعجاز القرآن، وزيادة بصيرة وإثبات النبوّة التي هي عمة الإيمان، لكفى بهما فضلاً يَحْسُنُ أثره، ويفيد في الدّارين ثمره، فكيف، وأيسر ما خصّها الله عزّ وجلّ، من ضروب الممادح ما يُكلُّ أقلام الكَتَبَة، ويُتعب أنامل الحسَبَة، ولمّا شرفها الله عزّ اسمه وعظّمها، ورفع خطَرَها وكرَّمها، وأوحى بها إلى خير خلقه، وجعلها لسان أمينه على وحيه، وأسلوب خلفائه في أرضه، وأراد بقاءها، ودوامها حتّى تكون في هذه العاجلة لخير عباده، وفي تلك الآجلة لساكني جنانه، ودار ثوابه قيّض لها حفظة، وخزنة من خواص النّاس وأعيان الفضل، وأنجم الأرض، فنسوا في خدمتها الشّهوات، وجابوا الفلوات، ونادموا لاقتنائها الدّفاتر، وسامروا القماطر والمحابر، وكدُّوا في حصر لُغاتها طباعهم، وأسهروا في تقييد شواردها أجفانهم

وأجالوا في نظم قلائدها أفكارهم، وأنفقوا على تخليد كُتُبها أعمارهم. فعظمت الفائدة، وتمت المصلحة، وتوافرت العائدة[41]"؛ فليس لنا كلام بعض كلام هذا الإمام الجهبذ، وهذا الصرّح اللّغوي الشامخ، والجبل العلمي المنيف، كلام قليل، دواء للعليل، وللحق دليل، ليس له مثيل، فقد "**قطعت جهيزة قول كلّ خطيب**".

فعزّة اللّغة عزّة شعبها، وفي ذلّتها ذلٌّ لهم وهوان وصغار، ووصمة عار وشنار، لا يمحوها التاريخ، ولا ينسي ضناها كر الدّهور، ومرّ الأيام والشهور و"**ما ذلّت لغةُ شعبٍ إلاّ ذلَّ، ولا انحطت إلاّ كان أمره في ذهابٍ وإدبار[42]**".

ويظهر لمن أراد الحقَّ، والصَدْعَ به، وأنِف العناد والمكابرة، وتقصّي العورات وتتبع العثرات، واقتفاء المثالب، وترتيب المقالب، أنّ علم النّحو لم يظهر إلاّ كحصن حصين، ووَزَرٍ منيع لحفظ اللّغة العربيّة من الخروج عن منحاها الصّحيح واتجاهها السّليم، والمرام من حفظ اللّغة حفظ الدّين الّذي مداره القرآن الكريم والسّنة النّبويّة المطّهّرة، لأنّ العدول النّحوي قد يؤدي إلى تشويه الأحكام "... وإنّما العيب على من غلط في من جهة اللّغة فيما يغيّر به حكم الشريعة والله المستعان. فلذلك قلنا: إنّ علم اللّغة العربيّة كالواجب على أهل العلم، لئلاّ يحيدوا في تأليفهم أو فتياهم عم سَنَن الاستواء...[43]"، بل قد يؤدي تغييب النحو والإعراب إلى أكثر من ذلك وهو الكفر والإشراك بالله تبارك وتعالى كقولك مثلا لو قلت في قوله تعالى: ﴿إنّما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾ [فاطر]، فقرأت العلماء بالنّصب والله بالرّفع فجعلت الخشية في حقّ الله على العلماء وهذا منكر فظيع، وقول شنيع، ويستحق صاحبه التقريع والتشنيع "...فإنّ الإعراب هو الفارق بين المعاني، ألا ترى أن القائل إذا قال: "ما أحسن زيد" لم يُفرَّق بين التّعجب والاستفهام والذّم إلاّ بالإعراب...[44]" فالإعراب كما يقول ابن جنّي هو: "الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنّك إذا سمعت أكرم سعيد أباه وشكر سعيد أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرْجاً واحداً لاستبهم أحدهما من صاحبه[45]"، ولنا في قصّة ذلك المعتزلي الّذي أراد أن ينفي صفة الكلام عن الله

تبارك وتعالى وهو القائلون بخلق القرآن، فقال للسنّي لما لا ننصب الله في قوله تعالى: ﴿وكلّم اللهُ موسى تكليماً﴾ [النساء: 163]، فيجعل الله مكلّمٌ لا مكلِّم نافياً بذلك صفة الكلام عنه، وقد أثبته لنفسه جلّ ثناؤه، فأفحمه السّنيُّ بأية من القرآن الكريم فأسكته وألقمه حجراً حين قال له: وما تصنع بقوله تعالى: ﴿فلمّا جاء موسى لميقاتنا وكلَّمهُ ربُّه﴾ [الأعراف: 143] فبُهِتَ المعتزليُّ[46]، **فما قام النّحو إلى أساس العامل الدّيني،** فلا عبرة إذن بمعرفة القوالب النّظريّة لعلم النّحو إنْ لم تمكن متعلّمها من الحفاظ على سلالة الجملة القرآنيّة، وصونها من اللّحن في الكلام المؤدي بدلالة الالتزام إلى اللّحن في الأحكام وإخراجها عن الصّيغة والكيفية الّتي حدّدها لها الشرع الحنيف.

الهوامش:

---

1 – وهذا في قول الله تعالى: ﴿ومن أياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم إنّ في ذلك لأيات للعالمين﴾ [الروم: 22]

2 – مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، ط1. بيروت: 2005م، دار ابن حزم، ص771.

3 – عبد الرحمن السّعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ط1. القاهرة: 2004م دار الغد الجديد، ص 656.

4 – أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، اقتضاء الصّراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم، ط1. دمشق: 2013م، دار الرسالة العالميّة، ج3، ص 1024.

5 – كما سيأتي لاحقا –بإذن الله– من قول عمر بن الخطّاب –رضي الله عنه– : "تعلّموا العربية فإنّها تزيد في المروءة".

6 – محمد بن سعيد رسلان، فضل اللّغة العربية ووجوب تعلّمها على المسلمين، ط4. القاهرة: دت، دار أضواء السّلف+ دار المحسن، ص 11.

7 – انظر ترجمته في: أبو بكر الزُّبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ت: محمد أبو الفضل، ط2. القاهرة: 1984م، دار المعارف، ص141/ القفطي، إنباه الرواة على أنباه النّحاة، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4. القاهرة: 2012م، دار الكتب والوثائق القوميّة، ص 138.

8 – أحمد بن يحي ثعلب، مجالس ثعلب، ت: عبد السّلام هارون، ط2. القاهرة: 1984م، دار المعارف، ص310.

9 – محمود محمد شاكر، أباطيل وأسمار، ط3. القاهرة: 2005م، مكتبة الخانجي، ج2، ص436.

10 – وذلك مصداقا لقول الله تعالى: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون﴾ [الحجر: 09]، قال العلامة السّعدي –رحمه الله– مفسّراً هذه الآية: "[وإنّا له لحافظون] أي: في حال إنزاله، وبعد إنزاله... وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقصان ومعانية من التبديل" (انظر:السعدي تيسير الكريم الرحمن، ص 426).

11 – رسلان، فضل اللغة العربية، ص 11.

12 – فقد تحداهم القرآن بآيات مكيّة وبآيات مدنيّة، فيونس وهود والإسراء سور مكيّة كما هو معلومٌ، أم البقرة فهي مدنيّة.

13 – السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص 609.

14 – المرجع نفسه، ص 385.

15 – المرجع السابق نفسه، ص 768.

16 – رسلان، فضل اللّغة العربيّة، ص 19–22 (بتصرف).

17 – أحمد بن فارس الرّازي، الصّاحبي في فقه اللّغة وسَنن كلام العرب، ت: عمر فاروق الطّباع، ط1. بيروت: 1414هـ/ 1993م، مكتبة المعارف، ص 77.

18 – محمد إبراهيم الحمد، فقه اللّغة (مفهومه– موضوعه– قضاياه)، ط1. الرياض: 1426هـ/ 2005م، دار ابن خزيمة، 127– 128 (بتصرف)، وينظرُ أيضاً: رسلان، فضل اللّغة العربيّة ص 65–66.

19 – محمد أحمد الدّالي، الحصائل في علوم العربيّة وتراثها، ط1. سوريا: 2011م، دار النوادر ج3، ص 41–55 (بتصرف).

20 – ابن فارس، الصّاحبي، ص 66.

21 – الدُكنة: لون يضرب إلى السّواد (كذا في الصّحاح مادة: دكن)، ويقال خلَقَ الثّوب خلوقة، إذا بلى، وثوب أخلاق، إذا كانت الخلوقة فيه كلّهُ (كذا في الصّحاح مادة: خَلَقَ).

22 – الزّبيدي، طبقات النحويين واللّغويين، ص 13.

23 – المصدر السابق، ص 12.

24 – أرسالاً: والرَسل: بالتّحريك: القطيع من الإبل أو الغنم... والجمع الأرسال... ويُقال: جاءت الخيل أرسالاً (كذا في الصحاح مادة: رسل).

25 – الزّبيدي، طبقات النحويين واللّغويين، ص 11.

26 – المصدر نفسه، ص 22؛ وانظر: إنباه الرواة، ص 15.

27 – ياقوت الحموي، معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ت: إحسان عبّاس، ط1. تونس: 1993م، ج4، ص1466.

28 – القفطي، إنباه الرّواة، ص 15–18 (بتصرف) ؛ وانظر: الحموي، معجم الأدباء، ج4 1465–1467.

29 – الحموي، معجم الأدباء، ج4، ص 1466–1467.

30 – الزُّبيدي، طبقات النحويين واللّغويين، ص23.

31 – المصدر نفسه، ص 11–12.

32 – راجع صفحة 11.

33 – عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دط. تونس: 1998م، الدار التونسيّة للنشر+ مكتبة دار المدينة المنورة، ج2، ص 712–713.

34 – الأرجوزتين الصّغرى والكبرى أي: الألفية والشافية الكافية، وألفية ابن معطي سابقة لألفية ابن مالك كما هو معروف، وقد أشار ابن مالك إلى ذلك في قوله: **وتقتضي رضى بغير سُخطِ فائقة ألفيّة ابن معطِ**

35 – ابن خلدون، المقدمة، ص713.

36 – انظر ترجمته في: طبقات اللّغويين والنحويين، ص47 (15) / إنباه الرّواة، ص 341 (253).

37 – محمد محمود الطّناحي، في اللّغة والأدب (دراسات وبحوث)، دط. تونس: دت، دار الغرب الإسلامي، ج2، ص 492.

38 صبحي صالح، دراسات في فقه اللّغة، ط3. بيروت: 1960م، دار العلم للملايين، ص 118–119.

39 – ابن خلدون، المقدمة، ص711–712 (بتصرف).

40 – المرجع نفسه، ص722– 723.

41 – أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، فقه اللّغة وأسرار العربيّة، ت: حمدو طمّاس ط3. بيروت: 2010م، دار المعرفة، ص15–16.

42 – الرافعي، وحي القلم، ص771.

43 – ابن فارس، الصّاحبي، ص65.

44 – المصدر نفسه، ص65–66.

45 – أبو الفتح عثمان بن جنّي، الخصائص في فقه اللغة، ت: محمد علي النّجار، ط3، ج1. القاهرة: 1406هـ/ 1986م، الهيئة المصريّة للكتب، ص 36.

46 – ينظر: علي بن أبي العزّ الحنفي، شرح العقيدة الطّحاويّة، ت: مجموعة من العلماء، ط1. دمشق: 1427هـ/ 2006م، المكتب الإسلامي، ص 93.

وقع آراء الخليل في التأسيس الحقيقي لمدرسة البصرة

طاوس خلوات

جامعة مولود معمري، تيزي–وزو

مقدّمة: لقد تأسّس النّحو على غرار الفقه الذي تطور في الكوفة، واهتم بأمور التشريع، إذ سبق النحو بقرنين وجاء النحويون إلى البصرة وأرادوا تأسيس البحث اللغوي، فتعدّدت المذاهب لشساعة الرّقعة الإسلامية، ولتعدّد الاجتهاد. إنّ النّحو العربي عرف تأسيس ستة مدارس نحوية مشهورة : مدرستان مؤسّستان، ومدرسة أخرى أُطلق عليها المدرسة الانتخابية أو الانتقائية. وباقي المدارس عبارة عن مدارس مكمّلة أعطت إضافات لا غير؛ ولكن الفضل في هذا يعود إلى مدرسة مشهورة "مدرسة البصرة" نسبة لمدينة البصرة في العراق التي عرفت فكرة الاعتزال، وفكرة الأشاعرة، وفيها عُرف النّظام والخليل بن أحمد الفراهيدي. ويُعرف عن البصرة إنها شهدت مرور الجاحظ، وسهل بن هارون، وعبد الحميد الكاتب وشهدت أيضا حركة ثقافية مع توافد الطلاب لأخذ العلم، ففي الوقت الذي كانت فيه الكوفة تشتغل بالفقه اهتمت البصرة بالعلوم والآداب. إن البحث في الأصول اللغوية عند الخليل واستقراء آرائه ليس بالأمر اليسير لتشعّب نظرياته وطول باعِهِ في نظريات كثيرة.

إنّنا نعني **بالتأسيس** هنا، وضع الأسس والركائز التي سيُشاد عليها بناء النحو في عصر سيبويه فالنحاة توصّلوا إلى مجموعة من الأصول النحوية، سيعتمدها تلامذتهم، ويتوسّعون بها، أهمها استقلال النحو عن العلوم اللغوية الأخرى، ووضع أسس للاحتجاج والسماع. استجاب الدّرس النحوي لطبيعة الحياة العقلية في هذه المرحلة؛ ولِما أصابها من تطوّر. وقد تشعّبت العلوم و ظهر التخصّص، فقد كان العالِم في عهد التابعين والصحابة؛ يُعنى بالتّفسير، والحديث والفتاوى والشعر، وأيام

العرب كابن عباس وابن مسعود؛ ولكن الأمر اختلف كثيرا في هذا العصر، إذ نجد من يُعنى بالتفسير خاصة أو بالحديث دون غيره، أو يختص بالعربية وعلومها وإذا كانت له معرفة بغير اختصاصها فهي ملمّة مشاركة لا مختص موغل. وما إن ظهر الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب؛ حتى دخل النحو العربي مرحلة جديدة تختلف عن سابقتها. والذي يهمّنا معرفته الآن هو أنّ النّحو نشأ في البصرة وتطور فيها بقدر يسير؛ إذا قيست بمشاركة الكوفة. وتتميّز هذه المرحلة بما يلي:

1- ظهور **نظرية العامل** النحوي فيها، واكتسابها صفة النظرية المحّددة، بعد أن كان النحاة يقرنون حركات الإعراب إلى قرائن لفظية، وظواهر تركيبية.

2- نُضج **القياس النّحوي**، الذي اقتبس من علم الفقه معظم خصائصه وأساليبه ولا سيما عند الخليل.

3- ومثل ذلك في **العلة** النحوية؛ إذ اكتملت على أيدي النحاة (الخليل بخاصة) وهذا دليل على وصول الاستقرار النحوي إلى ذروته؛ لأنّها تفسير للظواهر اللغوية المجموعة وتحليل لها.

4- كما استوتْ للقوم حينئذ نظرةٌ واعية لعملية **الاحتجاج** بالتراث الجاهلي القديم والإسلامي المعاصر واكتملت لهم **شروط السماع** وعرفوا مستويات متنوّعة للفصاحة. فصار هذا كلّه منهاج النحاة الذين جاءُوا بعده. ومُجمل ما يمكن أن يُقال في هذه المرحلة أنّ النحو العربي استوى على سوقِه، واكتملت شاكلتُه وامتدّت جذوره في الفكر مستمدّا من ظواهر اللغة، وغنى الثقافات التي كانت تصبّ نتاجها في الأمصار. ومن أعلام هذه المرحلة نذكر: يونس بن حبيب والخليل بن أحمد ويمثل الأول السّماع والاستقراء ويمثل الثاني اتّجاه الحضرمي وعيسى بن عمر في **الاحتفال بالقياس** والتأويل؛ بل إنه سيّد نحاة العربية في دراسة التركيب اللغوي وتحليله وتفسيره. ولعلّ السؤال الذي ينبغي الإجابة عنه الآن هو: **ما أثر آراء الخليل بن أحمد الفراهيدي في إقامة الصرح الفعلي للمدرسة البصرية؟** هذا ما

سنحاول الإجابة عنه؛ بعد تقديم لمحة مختصرة عن حياة الخليل بن أحمد الفراهيدي وبعد التعرض لمؤلفاته.

إنه ليس نكرة؛ لكن تعدّد الرّوايات حول اسمه ونسبه ومولده تدعونا إلى الوقوف قليلا لعرض أهم ما ورد منها في بعض الكتب القديمة.

الخليل بن أحمد بن عبد الرحمن أبو عبد الرحمن الفراهيدي الأزدي من الفراهيد بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث، وقيل هو منسوب إلى فرهود بن شبابة بن فهم بن مالك. وقد نُسب إلى الفراهيد على غير هذا الوجه، يقال رجل فراهيدي. وكان يونس يقول: فرهودي مثل قردوسي، والفراهيد صغار الغنم. وهو لغوي عروضي استنبط من العروض وعلله ما لم يستخرجه أحد، ولم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم.[1] ولد بقرية ودام الساحل سنة 100 هـ، وتوفي عام 175 هـ على أرجح أقوال العلماء.

مؤلفاته: للخليل عدة مؤلفات في اللغة وعلومها، يمكن تصنيفها كما يلي:

1- الكتب المحققة: معجم العين: ويعدّ أول عمل في التأليف المعجمي العربي أقامه على نظام التقليبات الصوتية وهو ما أثبت حضوره في المدارس الغربية حديثا، وللعين خمس طبعات.

2 - الكتب المحققة المنسوبة:

- **المنظومة النحوية:** وهي منظومة نحوية من ثلاثمائة بيت، نشرت أول مرة سنة 1995.

- **كتاب الجمل:** وهو كتاب في نحو الجمل في اللغة العربية.

3 - الكتب المفتقدة: ومنها:

- **كتاب النغم:** وعنوانه يبيّن مدى معرفة الخليل بالموسيقى.

- **كتاب الإيقاع:** ويُعتقد أنه جزء من كتاب النغم أو تكملة له.

- **كتاب العروض:** وهو يحوي أوزان الشعر ودوائره العروضية التي هي من ابتكاره.

– **كتاب النقط والمصاحف:** وهو أول من ابتكر الشكل والحركات المعروفة وابتكر علامات الشكل الأخرى وهي: الهمز والتشديد والرّوم والإشمام.[2]

– **كتاب الشواهد:** وقد تكون الشواهد التي أخذها عن الأعراب.

– **كتاب في العوامل:** ويبدو من خلال عنوانه أنه مختص في العوامل النحوية وقد ذهب القفطي إلى أن الكتاب مشكوك في صحة نسبته إلى الخليل.[3]

– **كتاب فائت العين:** ذكرت بعض الروايات أن الخليل لم يضع العين كاملا فأنّى له أن يستدركه بآخر؟

– **كتاب المُعمّى:** هو كتاب في الألغاز، والخليل أول من وضع هذا الفن" والمراد هنا حروف يصطلح عليها الكاتب مع نفسه، ويُكاتب بها، ويسمى الآن المترجم".[4]

– **كتاب الفرش والمثال.**[5]

أما آراء الخليل وتوجيهاته التي لم يضمّنها كتابا من تأليفه، فهي الخاصة بعلمي النحو والصرف، حيث أنِف أن يؤلّف فيهما، فيكون تابعا لغيره، ومقتفيا لأثره بعد أن تقدمه إلى التأليف فيهما أستاذه (عيسى بن عمر) بتأليفه كتابي: الإكمال والجامع؛ وإنما عهِد إلى أنجبِ تلاميذه وأخلصهم سيبويه بعلمه وفكره فأخرج عليه كتابه المسمى بـــ (الكتاب) والمعروف بقرآن النحو، وغالبية النحاة يعتبرون أن جلّ ما اشتمل عليه كتاب سيبويه هو من علم الخليل. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه من الصعب التمييز بين كلام الخليل ورأيه من رأي تلميذه، لعدم إشارته الواضحة إلى حيث ينتهي كلام شيخه ويبتدىء كلامه هو، إلا في مواضع قليلة جدا، أضف إلى ذلك أنه عُني في ما أثبته له بالعلة والقياس، وتأويل ما أُشكل عليه، ولم يكشف لنا عن آرائه النحوية، ولا عن منهاجه في الدراسة عامة ليسهُل بحثه في أبواب النحو. سنحاول التماس الخطى لفهم الخليل على الرغم من العقبات والصعوبات. في مجال **تأسيس البصرة،** يلفت نظر المؤرخ الذي يحاول حل مسألة تأسيس البصرة مجموعتان متناقضتان من الأخبار: الأولى تصعّد بتاريخ التأسيس إلى سنة

14 هـ في حين تؤرخ الثانية تأسيسها **سنة 16 أو 17 هـ**. فالفئة الأولى من الأخبار تؤكد أن مؤسس المدينة كان تحت إمْرة عمر بن الخطاب في حين أن الثانية تجعله تحت إمرة القائد العام للجيوش الإسلامية سعد بن أبي وقاص[6]. لقد كانت البصرة الرائدة؛ نتاج بيئة يسِمُها التناقض في كل شيء، إلا أنه تناقض إيجابي أدّى إلى الحقيقة، ومنه خرجت مجموعة من أبنائها بأنواعَ متضاربة من العلوم والفنون، نذكر منهم: ابن المقفع (ت 142 هـ) على التقدير، وبشار والجاحظ وأبا نواس والأصمعي والخليل بن أحمد الفراهيدي.

وقع آراء الخليل: لعل من أعظم مجالس البصرة – مهد الدراسات النحوية– كان مجلس الخليل بن أحمد لأنه ضم مجموعة من الدارسين، صاروا أئمة للغة والنحو فيما بعد ومنهم: سيبويه، الأصمعي النضر بن شميل وغيرهم. وكان له فضل السبق في إبراز خصائص اللغة العربية و« لم تُخرج الدولة العباسية علوما في المجالات اللغوية أعلى من العلوم التي اكتشفها الخليل» [7]وقد توسع سيبويه في السماع والتسجيل الشاذ والشائع والتحليل، وتعرّض لمباحث الصرف، وقد جعل القياس والتحليل أساس النحو وهو يسير على خطى الخليل بن أحمد، وقد زادت الآراء اختلافا ونقاشا بعد ظهور الكوفة كمنافس للبصرة وانتهاجها منهجا مخالفا[8].وبصنيع سيبويه وأستاذيه يونس والخليل؛ **تكاملت للبصريين أصولهم في استنباط النحو**، ومناهجهم في تقعيده، وفروعهم في وضع مسائله، فكان لهم مذهبهم النحوي، وكانت لهم مدرستهم النحوية، التي هي أول مدرسة نحوية في تاريخ النحو[9]. وكان دور الخليل **أبعد** مدى وأكبر أهمية من دور زميله يونس فهو الذي بسط النحو ومدّ أطنابه، وسبّب علله وفتق معانيه «وأوضح الحجاج فيه، حتى بلغ أقصى حدوده وانتهى إلى أبعد غايته» كما يقول الزبيدي[10]. فلو لم يتعهّد الخليل النحوَ في نشأته لَمَا عرف طور النضج والكمال، وإليه يعود فضل النهوض به مثلما كان لأبي الأسود فضل التكوين. وعليه فإن الخليل أعظم نحاة البصرة شأنا وأبقاهم أثرا، عمد إلى ما تركه الأولون **فأصّله** كما أوتي من ذكاء. وأعظم ما يبرز

في منهج الخليل هو **القياس** لأنه كاشف قناعه، بالإضافة إلى تعليله الظواهر اللغوية تعليلا منطقيا ذهنيا، **وتِبعاً له**، قال النحاة **بعدم جواز الابتداء بالنكرة** إن لم تُفِدْ (يُنظر قول ابن مالك في الابتداء بالنكرة) غير أنّ النحويين يُدركون بأن اللغة لا تضبطها قوانين دقيقة مثل التي نراها في الرياضيات على سبيل المثال، ولهذا وُجد الشاذ عن القواعد المطّردة، وبعض السياقات المُلحّة في أساليب فنية تُستعمل نادراً. إن ابن **أبي** إسحاق قد شرح العلل؛ إلا أن الخليل أول من أعطى التصور الواضح لطبيعتها، طريقة استقرائها، وأتت العلل في عهده بمنزلة التفسير اللغوي الذي يُستخرج من طبيعة الكلام. ثم وضع للنحاة **مِن بعدِه** منهج بحثٍ عن العلل المناسبة بالرجوع إلى الأسس اللغوية الخالصة. وإليه يعود الفضل- الخليل بن أحمد- في تقييد السماع وتحري الفصاحة. وكتاب سيبويه في النحو هو أعظم أثرٍ باقٍ يمثّل آراء النحويين البصريين **المؤسسين للمذهب البصري** كأبي الحسن الأخفش وأبي عمر الجرمي، وأبي بكر المازني، وهؤلاء جميعا شيوخ المذهب البصري الذين **وضعوا** معالمه **واستكملوا قواعده، ونقدوا واستدركوا** ما للكتاب من مآخذ. وقد امتد الخلاف بين البصرة والكوفة ليشمل مجموعة من المصطلحات؛ كالمتعلقة بالإعراب الفعل الدائم؛ وأرادوا به اسم الفاعل، واستعملوا الفعل الغابر؛ وأرادوا به الفعل الماضي، والمكني للضمير، والمجهول لضمير الشأن، وخصّوا تسمية المفعول بالمفعول به أما باقي المفاعيل فهي عندهم أشباه مفاعيل. وظلّت هذه المصطلحات حبيسة مصنّفاتهم وظل النحو البصري بمصطلحاته هو السائد. وأكثر هذه المصطلحات كانت من وضع الخليل بن أحمد.

خرج المذهب البصري من معركة النحو في القرن الثالث؛ **قوي البناء كثير الأنصار غزير التأليف**، ولعل من أسباب ذلك أن المذهب الكوفي لم يجد له في مؤسّسِيه ولا من تلامذته من يضع فيه كتابا مستقلا يضاهي كتاب سيبويه[11]. وملخّص القول أن الخليل جمع قدرا هائلا من علوم اللغة، امتلك أصولها باستيعاب كل ما تَيسّرَ له سماعُه، وطوّره بتفكير مكّنه من استنباط ما لم يسمع. لقد تمثّل

معارف ابن أبي إسحاق الحضرمي في مقاييس النحو، ومعلومات أبي عمرو بن العلاء، فصيّره علما متكاملا مُتقن الصنعة، مجسَّدا في معجم شامل للغة؛ وهو معجم العين، وجعل النحو علما مستقلا قائما بذاته. فلم يكن للنحويين من بعده إلاّ أن اقتسموا هذا الموروث العلمي، وكان النصيب الأوفر منه لتلميذه الفذ الذي نهل من عين الخليل.

علمه: أُتيح لهذا العبقري أن يتقلّب في بيئة علمية غنيّة، عاصر الفقيه أبا حنيفة وهو رأس مدرسة الرأي والقياس في تاريخ الفقه الإسلامي. وعاصر من النحاة الحضرمي، وعيسى بن عمر. والمصادر القديمة تُصرّ على أنّه أخذ عن عيسى بن عمر. أمّا أبو عمرو بن العلاء؛ فقد أنكر مهدي المخزومي أن يكون الخليل قد أخذ عنه شيئا؛ بل حضر حلقته لمناظرته، ثم عدل عن ذلك نُبلا منه. ولكن سيبويه يذكُر رواية في كتابه قائلاً: قلت –أي للخليل– أفتصرفُه في النّكرة؟ قال: لا، لأنّه نكرة يوصف به نكرة، وقال لي: قال لي أبو عمرو: «أُولى أجنحة مثنى وثلاث ورُباع صفة» وقال في النص الثاني وهو دليل آخر: «كان أبو عمرو شيخ البصرة يوم كان الخليل في سن الطلب» فمن غير المعقول ألاّ يدفعه الفضول لحضور حلقته. صحيح إنّ الخليل فاقه علميا؛ ولكن ربّما يحضر حلقته للرواية واللغة والقراءة ومعاني القرآن. وفي الثاني: «وكان الخليل يستحبّ هذا القول، فقُلت له لِمَ فقال: "إنّي رأيتهم حين أرادوا أن يُبدلوا إحدى الهمزتين اللّتين تلتقيان في كلمة واحدة أبدلوا الآخرة وذلك جاء وآدم ورأيت أبا عمرو أخذ بهنّ في قوله عزّ وجل: ﴿ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾. ويغلب على الظن أن الخليل هو الذي رسّخ عمل (إن) المضمرة في تاريخ النحو العربي، وقد يكون مبالِغا في مذهبه، ثم ارتدّ خلفاؤه من نحاة البصرة إلى شيء من الاعتدال ووقف تلامذته من نحاة الكوفة موقفا معارضا له. كان الخليل يلتمس في كلام العرب مصادر جديدة لعل بعض شيوخه أو كلّهم لم يصلوا إليها، فارتحل إلى البادية وتنقّل إلى الحجاز، ونجد وتهامة وكان لا يَني

يختلف إلى المربد اختلافه إليه سعيٌ وراء المادة اللغوية التي يثق بها. وقد أصاب حظًّا وافرًا من لغة العرب واستقرائها فقيل عنه: «إنه يحفظ نصف اللغة»

عقيدته: جاء في مختصر اليغموري أن الخليل قال: « قدِمت من عمان ورأيي رأي الصفرية، فجلستُ إلى أيوب بن أبي تميمة السختياني فسمعته يقول: «إذا أردت أن تعمل عمل أستاذك فجالس غيرهُ فظننتُ أنّه يعنيني، فلزمتُه فنفعني الله به» وهذا دليل على أنه كان خارجيا ثم تحوّل إلى أهل السنة. وهذا يقودُ إلى بُغض المعتزلة له، ويبدو أنّ الخليل نال من مذهبهم في كتابه الذي ألّفه في علم الكلام. أكّد المخزومي أنّ الخليل أخذ عن أبي إسحاق الحضرمي، فذكر أن الخليل يوم مات الحضرمي كان سنّه آنذاك سبعة عشر سنة. نلمسُ في هذه الملاحظة نوعاً من الوجاهة؛ كونها بعيدة عن الواقع التاريخي وهذا لسببين: أولهما أن لا أحد من المؤرّخين تحدّث عن تلمذة الخليل للحضرمي، لأنه لم يولد في البصرة، بل قدِم إليها مع والده كما أسلفنا ذكراَ، وقد كان عمره حينها سبعة عشرة سنة. ولا نجزم بأنّه دخلها في هذه السن؛ لكن يحتمل أن يكون الحضرمي يومئذ منقطعا عن الدرس لشيخوخته وكبره إذ بلغ الثامنة والثمانين. وقد التقى الأخفش بالخليل ولم يأخذ عنه؛ بل أخذ عن سيبويه وهو أسنّ منه. كما التقى يونس بن حبيب بالحضرمي ولم يأخذ عنه.

لم يكن الخليل مجرّد تلميذ يكتفي بما يسمعه في حلقات الدّرس؛ بل أُوتي من نفاذ الذّكاء وعمق النظرة و البصيرة ما ساعده على الاستنباط واستخراج الأقيسة فكان ينهل نهلاً من منبع العربية الأصيل ألا وهو البادية. وقد سأله الكسائي: «من أين أخذت علمك هذا؟ فقال من بوادي الحجاز، ونجدٍ، وتُهامة». فَنَراهُ من خلال هذا الجواب أنّه لا يذكر أحداَ من شيوخه وإنّما يُدرج البوادي التي تخرّج منها.

ونستنِدُ في هذا الرأي إلى ما ذكره المؤرّخون من بعض الأعراب الذين اتّصل بهم وأخذ عنهم، وهم حسب ما يقولون: أبو مهدية وأبو طفيلة، وأبو البيداء، وأبو

خيرة، وأبو مالك، وأبو الدّقين، وقد حوى كتاب العين لغات اليمن، وطيء، وتميم وهذيل، والأزد.

مخترعاته العلمية: لعلّ قيمة الخليل العلمية تتجلّى بأوضح صورها فيما اخترعه في حقول العلوم اللغوية والأدبية، وربّما كان العروض أبرز هذه المخترعات: «فقد استنبط من العروض وعلله ما لم يستخرِجه أحدٌ و لم يسبِقه إلى علمه سابق من العلماء كلّهم». والثاني هو جمعه ألفاظ اللغة كلّها في معجم واحد بطريقة رياضية وصوتية، وهو أول معجم لغوي. كما أنّ دراسته للأصوات جديدة إذ حدّد مخارج الحروف وصفاتها من الجهر ومنها: السبب، الوتد التأسيس الروي، الهمس، والرّخاوة، كما استنبط من علم النّحو ما لم يسبقه إليه أحد، ولا سيما ما يتعلّق في العلل والأقيسة، وللخليل يعود الفضل في **تأصيل الدّرس اللغوي**.

الخليل بن أحمد والصرف: اكتملت نظرة الخليل للمستوى الصوتي، واكتمل معها مستوى ثان هو البعد الصرفي، بنقل الجذور من الصور الصوتية الصامتة إلى الوحدات المعجمية الدالة، أي: الصيغة الصرفية المتشكلة عن طريق من نظام التقليبات وهذا المصطلح الأخير ليس من اختراع الخليل، بل استخدم التصريف.[12] وقد نقل الصورة الصوتية المجردة من المعنى إلى صيغة صرفية، وكان هذا البناء الدلالي للكلمة نتاج تآلف حروف في المستوى الصوتي. وبذلك تكون لها وظيفة صرفية وهي جملة المعاني المتحصل عليها من الصيغ والأوزان المشتقة. ويعرّف الخليل التصريف بالقول: «اعلم أن الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين، نحو قد ودقّ... والكلمة الثلاثية تتصرف على ستة أوجه... والكلمة الرباعية تتصرف على أربعة وعشرين وجها، وذلك أن حروفها وهي أربعة أحرف تُضرب في وجوه الثلاثي الصحيح، وهي ستة أوجه فتصير أربعة وعشرين وجها...»[13] لقد حظيت نظرية التقليب الخليلية بمكانة لدى أصحاب **النظرية اللسانية الغربية** أمثال دي سوسير (Ferdinand De Saussure) ونوام تشومسكي (Noam Chomsky) وعرفت توسعا في تطبيقاتها الاشتقاقية واللغوية. ونورد هذه العبارة لما تتضمّنه

من طريقة فريدة أصّلها الخليل لأن الصيغ الصرفية كانت نتاجا لأصوات أصلية وقد أطلق عبد الرحمن الحاج صالح عليه ما يُسمى **بالتكافؤ** بين الوحدات، وتمثّله تشومسكي بالتطرق إليه من خلال التشجير. ثم إن نبوغ الخليل في علم الصرف مكّنه من تمييز البناء العربي الخالص والأصيل من المعرّب والدخيل وله السبق في كشف القوانين التي تحكمه. و«كل من جاء بعده ساروا على طريقه واستعانوا بعلمه»[14]

الخليل بن أحمد والنحو: تعددت الآراء حول **مؤسس** النحو العربي، فيذهب المستشرق الألماني كارل بروكلمان (Karl Brocklman) إلى أنّ الخليل هو المؤسس الحقيقي لعلم النحو الذي وضعه سيبويه في كتابه، بعد أن تلقّاه عنه وتعلّمه منه. والأرجح أن البوادر الأولى لظهور النحو العربي، كان نتاج العمل القرآني فعلى يد الخليل **اكتملت** تلك **الومضات التأسيسية** التي قام بها أبو الأسود الدّؤلي في هذا الحقل من الدّراسات. وجاء في بعض الروايات أن **الأصول الأولى** للنّحو **وُضعت** على يديه. وإذا عُدنا إلى دراسة تاريخ النحو العربي وجدنا الخليل **واضعًا لأسسه. ومُستقرئًا** لمسائله، **ومعلّلا** في تحليلاته بعين ثاقبة، وبصيرة نافذة. وإذا ما جِئنا نقيس أعماله بسابقيه، وجدناه المبدِع الحقيقي لهذا العلم.

أصول النحو هي أدلّة النحو، وهي عند الخليل: السماع والقياس والعلة والعامل ولو تتّبعنا النحاة سلفْا عن سلفٍ لرأيناهم يعودون إلى كتاب سبيويه، وإنّ أكثر ما في الكتاب للخليل، وعن مدرسته النحوية انبثقت مدرستان: مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة.

السماع عند الخليل بن أحمد الفراهيدي: السماع لغة: من سمع يسمع أي؛ مجمع الألفاظ التي تلتقطها الأذن من فعل المحادثة، وفي اصطلاح النحويين: هي تلك اللغة المستعملة فعلاً من قِبل أهلها الناطقين المثاليين من قبل أن توضع لها القواعد وهو الأصل الأول للاستدلال النّحوي، ومن بين الذين اهتموا بالسماع الخليل بن أحمد. فقد كانت له لغة سماع واسعة، فكان كثير الاستشهاد بالشعر

الجاهلي ولقارئ الكتاب– لسيبويه– أن يرى مدى حرص الخليل في الاحتجاج بمن يثق بعربيتهم، فهو يستشهد بالشعراء: النابغة، والأعشى والشعراء المخضرمين مثل حسان بن ثابت والعباس بن مرداس وشعر الإسلاميين كالفرزدق وجرير والكميت. فيما عدل عن الاستشهاد بشعر المولدين وبهذا نستخلص أن الخليل كان يستشهد بالطبقات الأولى الثلاثة ولا يستشهد بشعر المولدين، أمثال بشار بن برد رغم فصاحة شعره، وبانتقاء الفصيح من كلام العرب علما أن الخليل قد أخذ الشعر من أساتذته الثقات أمثال عيسى بن عمر، وأبي عمرو بن العلاء وبحكم استوطانه البصرة _ حاضرة العلم والمعرفة_ كان يردُ عكاظا لسماع شعر وخطب الوافدين من البوادي المجاورة، ولم يكتف بهذا فرأى ضرورة أن تُستقى اللغة من **منابعها الأصيلة**، حيث شدّ الرحال إلى بوادي الجزيرة الخالية من العجم والبعيدةِ مساكنُهم عن أطرافهم يجمع الفصيح وهذا ما جعله **يمتلك نصف اللغة**. وإضافة إلى العوامل السابقة الذكر، هناك عامل آخر ساعده على امتلاك ناصية اللغة، إذ كان يحج سنة ويغزو سنة وفي سنة الحج عمد إلى مشافهة العرب الخلّص المتوغلين في البداوة.

ومن مثالٍ على اعتماده السماع من اللغة المنطوقة، قال سيبويه: «زعم الخليل أنه سمع من العرب رجلا يقول: ' ما أنا بالذي قائل لك سوءا، وما أنا بالذي قائل لك قبيحا».[15] وقال أيضا: «وحدّثنا الخليل أنه سمع من العرب من يُوثق بعربيته ينشد هذا البيت، وهو قول الشماخ:

وَكُلّ خَلِيلٍ غيرُ هَاضمِ نفْسَهُ لوصْلِ خَلِيلٍ صَارمٌ أَوْ مُعَارِز

فجعله صفة لـــ (كل). وقال أيضا: «وحدّثني من لا أتّهم، عن الخليل أنه سمع أعرابيا يقول: إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب» وقد جاء (أتى) سيبويه بهذا السماع ليتحقق رأيَ الخليل أثناء تجويزه جر الاسم بعد (إياك) قال الخليل: «لو أن رجلا قال: إياك **نفسِك** لم أعنّفه، لأن هذه الكاف مجرورة»[16] وقد أيّد الخليل سماع كثير من الألفاظ واعتبرها جزءا من ألفاظ العرب الصحيحة ما دام أهل الأعراب قد تداولوها وجرَت على ألسنتهم، وقد سمع عن العرب (تمنطق وتمكحل وتمندل

وتمسكن وتكذهب) من(المنطقة والكحلة والمنديل والمسكين والمذهب) فما أجازه العرب وتناقلوه يُؤخذ به ويُعتد به، لأنهم لا ينطقون ولا يتكلمون إلا بما يوافق إدراكهم الطبيعي للغة[17]. **لم يشُذ** الخليل عن القاعدة التي أرساها أوائل البصريين في الاستشهاد بكلام العرب، وقد **اتبعها** من جاؤوا بعده من علماء البصرة، ويمكن أن نعلل اختيار البصريين هذه الطريقة في جمع اللغة والأخذ عن العرب لكون مدرسة البصرة قد سبقت الكوفة في إقامة أسس النحو لتدارك اللحن.

النقل عن الثقات: لم يخرج الخليل عن منطق البصريين في جمع اللغة، إذ حددوا معايير للفصاحة وأخذوا اللغة عن القبائل الستة، وتختلف درجة الأخذ من قبيلة لأخرى. لقد تطرق الخليل لجوانب عدة في كتاب العين عند دراسته لغريب القرآن، ولمّا كان كتاب العين كتاب لغة في المقام الأول؛ يستشهد الخليل على معنى اللفظة القرآنية بالقرآن أو الحديث الشريف أو الشعر، وحفل منهجه بالكثير من الجوانب الصرفية وعددٍ غير قليل من الجوانب النحوية وأقلّ من ذلك الناحية البلاغية كما أنه يتناول القراءات المتواترة والشاذة إلى جانب هذا فقد تناول ما لا يتم فهمُ اللفظ إلا به، كأسباب النزول، وذكر أحوال العرب في الجاهلية وغير ذلك مما أضفى على غريب القرآن بُعدا آخر أو لنقل عمقٍ ما كانت الألفاظ لتُفهم دون معرفة هذه الملابسات التي تكتنف اللفظة وقد كان في كل ما تناوله متوخيا دقة التعبير وسهولته دون إطناب. فهذه هي سمة اللغوي البارع الذي جمع علوما كثيرة في كتاب واحد فاتسم عمله بالموسوعية.

موقف الخليل بن أحمد من الحديث الشريف: ويقصد به ما نطق الرسول(ص) وسُمع منه. وحريّ أن يستدل به وتُبنى عليه القواعد النحوية، لأن المتلفظ به من أفصح قريش وأقواهم سليقة؛ لكن الذي يقرأ كتاب سيبويه تستوقفه ظاهرة، وهي أن الخليل لم يستشهد به في تأصيله لقواعد النحو[18] وأوضح السيوطي جانب هذه المسألة بالقول: إن غالب الأحاديث مروية بالمعنى، وقد تداولتها الأعاجم والمولّدون قبل تدوينها[19]. وليس من باب المبالغة أن يقّر عالِم أو يذهب باحث إلى

أن ّالخليل يعدّ أعظم نحوي حملته أرض العراق؛ بل أعظم نحوي على مَر العصور. فلقد فُتن فيه القدماء، وضربوا به الأمثال **وانطلقوا من آرائه** فذكروا أنّ الإجماع: «منعقد على أنه لم يكن أحد أعلم بالنحو منه» وقالوا أيضا: «كان الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله، ونعتَه ابن جني بأنه: «سيّد قومه و كاشف قناع القياس في عمله».

أقسام القياس عند الخليل:

- **قياس الشبه:** كانت عناية الخليل منصبّة على نوع خاص من القياس وهو الذي يقوم على التشابه بين المقيس والمقيس عليه في اللفظ أو المعنى، وفي نظره وجه من وجوه الشبه يكفي أحيانا لإجراء هذا النوع من القياس دون التطابق التام.[20]

- **قياس الاستئناس:** يلجأ إليه الخليل لشرح مسألة وتوضيحها بأمثلة مشابهة كملاحظته أنه يجوز تقديم خبر كان على اسمها، ولا يجوز ذلك في كأن، فلم يجز في الأصل ما يجوز في الفرع، وقد يكون الخليل صاحب القاعدة المشهورة: "إن الفروع تتدرّج من الأصول"

- **قياس الجدل:** وهو طريق استدلال قائم على منطق الجدل، يحتكم إليه لإثبات رأي ودحض آخر، مع الإشارة إلى المهمل والمستعمل من كلام العرب.

- **قياس الافتراض:** بافتراض شيء لم يردِ عن العرب، ثم التماس حكم له قياسا على ما ورد من أشباهه بهدف تعليمي تطبيقي في التمارين الصرفية بخاصة. إن هذا القياس شبيه بقياس الفقهاء الذين افترضوا ما لم يقع ليحدّدوا حكمه. وتبرز قيمة الخليل في تاريخ النحو العربي في أنه **أكمل** الأسس التي وضعها النحاة منذ أبي الأسود الدؤلي حتى أيامه، فهُم الذين قاموا بعملية الاستقراء ووضع الأصول واستنباط النظم اللغوية، حتى إذا جاء نظر ومحّص ما جمعوه؛ حاول أن يُكمل استقراءهم، ويعمّق أصولهم، ويفسّر النظمَ تفسيرا يقوم في أساسه على ربط الظواهر بعضها ببعض، والنظر إلى اللغة على أنّها صرْح محكم البنيان منطقي

التركيب. ويظهر لنا في بعض ما نقله سيبويه من آرائه **أثر الريادة**، فقد يكون أول من شقّق القول في "لاسيما". وسيبويه يسأل الخليل عن (مهما) فيزعم له أنها كلمة مركبة من قطعتين من جنس واحد، إلا أن العرب استهجنوا نطق هذين المقطعين معا "هي ما أدخلت معها ما لغوًا، ولكنهم استهجنوا أن يكرروا لفظا واحدا فيقولوا (ما ما) فأبدلوا الهاء من الألف التي في الأولى" وهو يرى أن تكون ما الأولى شرطية ويُفترض أن تكون ما الثانية ما يلحق أن؛ في قوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يُدرككم الموت﴾ وقد يجوز أن تكون مهْ كإذْ ضمّ إليها ما.

وأما الحُسن والقبح اللذان نراهما عند المعتزلة، فممّا يعرض له النحاة في فروضهم أيضا، حتى إذا قال واحد: إن تأتني لأفعلن، لا يخطّئه الخليل ويكتفي بأن يقول: "إنه لا يحسن في الكلام، فإن تقل لئن تفعل لأفعلن قبح، وفي نفس الموضع يسأله سيبويه عن القول: «كيف تصنع أصنع فلا يرى الخليل الجملة خطأ ولكنه يقول: هي مستكرهة ليس من حروف الجزاء ومخرجها على الجزاء، لأن معناها على أي حال تكن أكن»[21]. ومن هنا فالقياسان؛ القياس النحوي والقياس الفقهي يسيران جنبا إلى جنب، مع شيء من التحرر في القياس الأخير. وبهذا يغلب على نحاة البصرة الاحتكام إلى العقل، والخليل في تنظيمه لمسائل القياس– على حد ما يقوله السيرافي فيه: «الغاية في استخراج النحو وتصحيح القياس فيه» ظهرت عنده **أركانه الأربعة** وهي الأصل والفرع والحكم والعلة ولقد كان أول من بالغ في **تقصّي العلل** حتى إذا سئل عنها زعم أنها كانت في عقول العرب وإن لم يصرّحوا بها» والأصل في تلك العملية القياسية هو المقيس عليه، واشترط البصريون ألا يكون شاذا، حتى لو تعارض القياس مع السماع، نطقوا بالمسموع دون أن يقيسوا عليه، من ذلك قوله تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ فهذا لا يُعد قياسا عند ابن جني إلا أنه ينبغي قبوله. ومن هنا نتساءل حول حكم ما استعمل للضرورة إذا كان يجوز القياس عليه للضرورة نفسها؟[22]. والفرع هو المقيس، ونعلم أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم، وقد **توسّع الخليل** في **تطبيق هذه القاعدة** في الوقت

الذي كنا نرى فيه طلائع هذه المدرسة ترفض ما لم تسمعه من اللغة مثل أبي الأسود الدؤلي[23]. وقد يشترط الخليل تواتر المقيس عليه، وأخذت مدرسته بهذه الخطة إلا أن عدة قوم من قبله ردّوا ما يجيء على نحو استصوب واستصحب لكونه شاذا مع أن القرآن يستعمله.

ومن خلال جهود الخليل النحوية نتبيّن **وقع آرائه** من خلال مكانته في النحو العربي، فهو الذي **أرسى** أركان **المذهب البصري** من خلال حصره دائرة السماع فيمن يوثق بفصاحته من العرب، والقياس على الكثير، وتأويل الشاذ، وهو الذي أرسى معظم **المصطلحات** التي تدور في علوم النحو والصرف من مثل: العامل والظروف، والنعت وغيرها. كما صاغ كثيرا من المبادئ النحوية الأساسية والقواعد العامة. ومن قولهم: «الأصول والمسائل في كتاب الخليل» وكانت **آراء العلماء فيه** أن قَدّروا الخليلَ بن أحمد الفراهيدي حق قدره، وأشادوا بعلمه ونبوغه وعبقريته وأخذوا يلهجون بالثناء عليه، ويذهبون في تمجيده وتوقيره كل مذهب اعترافا بفضله وعلمه وأدبه وتقواه وعفته وزهده، كما أعجب به كثير من المستشرقين، فأشادوا بفضله على اللغة العربية، ونبوغه وذكائه وعبقريته في خدمة اللسان العربي. فهذا سفيان الثوري– أمير المؤمنين في الحديث النبوي– يقول عنه:" من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك، فلينظر إلى الخليل بن أحمد" وقال حمزة الأصفهاني: "وبعد، فإن دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول من الخليل، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم أخذه، ولا عن مثال تقدّمه أو احتذاه... ومن تأسيسه بناء كتاب العين الذي يحصر لغة أمة من الأمم قاطبة، ثم إمداده سيبويه من علم النحو بما صنّف منه كتابه الذي هو زينة لدولة الإسلام"

مفاضلة سيبويه بين آراء العلماء: لقد رأيت قبل أن أصرف القلم عن الكتابة في هذا المبحث أن أشير إلى أن سيبويه كان يفاضل بين آراء العلماء فيصف بعضها بالسهولة وبعضها بالقوة وغيرها من الصفات. وإن ما لاحظته أنه لم

يفاضل إلا بين آراء الخليل ويونس الذي رأى سيبويه أن قوله أقوى من قول الخليل فيما يتعلق بحذف ياء (القاضي) عند النداء، واستند في ترجيحه على كلام العرب.

أولا: ما رجح فيه رأي يونس:

ا- ترجيح رأي يونس في الوقف على(قاض) في النداء: يقول سيبويه: وسألت الخليل عن القاضي في النداء فقال: أختار (يا قاضي) لأنه ليس بمُنوّن، كما أختار (هذا القاضي) وأما يونس فقال: يا قاضْ. وقول يونس أقوى لأنه لما كان من كلامهم أن يحذفوا في غير النداء أجدر، لأن النداء موضع حذف، يحذفون التنوين ويقولون: يا حار، يا صاح، ويا غلامُ أقبل[24]. وقوة ما ذهب إليه يونس تأتي- كما يبدو لي- من القرب من كلام العرب أكثر من قول الخليل.

ب- ترجيح رأي يونس في رفع (تنزلون) يرجّح سيبويه التأويل الذي ذكره يونس على ما ذهب إليه الخليل في بيت الشعر الآتي:

إن تركبوا فركوب الخيلِ عادتُنا أو تنزلون فإنا معشرٌ نزُلُ

حيث وصف قول يونس بالسهل. قال سيبويه: وسألت الخليل عن قول الأعشى:

إن تركبوا فركوبُ الخيل عادتنا أو تنزلونَ فإناَّ معشر نُزلُ

فقال: الكلام ههنا على قولك يكون كذا أو يكون كذا، لما كان موضعها لو قال فيه: أتركبون لم ينقض المعنى صار بمنزلة قولك: ولا سابق شيئا. أما يونس فقال ارفعه على الابتداء، كأنه قال: أو أنتم نازلون... وقول يونس أسهل، وأما الخليل فجعله بمنزلة قول زهير[25].

بَدَا لِي أَنِّي مُدْرِكُ مَا مَضَى ولَا سابِق شيْئا إِذَا كَانَ جائِيَا

والإشراك على هذا التوهم بعيد كبعدِ ولا سابق شيئا[26]. فبُعد عطف أو تنزلون على توهمهم أتركبون، كبعد عطف سابق على توهم: بمدرك ما مضى وإنني أزعم أن وصف سيبويه لقول يونس بالسهولة صادر من أن سيبويه يميل إلى الوضوح والبعد عن التأويل الذي يؤدي إلى صعوبة الفهم على المتلقي. وقد فاضل الشنتمري بين ما ذهب إليه الخليل ويونس في ما يتعلق ببيت الشعر السابق حيث قال

الشنتمري: وهذا أسهل في اللفظ (قول يونس) والأول (قول الخليل) أصح في المعنى والنظم[27].

ثانيا: ما رجّح فيه رأي الخليل:

أ- **ترجيح سيبويه ما ذهب إليه الخليل في تحقير رجل اسمه قبائل:** يرجّح سيبويه ما ذهب إليه الخليل في تحقير رجل اسمه قبائل على ما ذهب إليه يونس واصفا قول الخليل بالحُسن، من غير أن يبيّن سيبويه سبب جعله قول الخليل أحسن من قول يونس. يقول سيبويه: وإذا حقّرت رجلا اسمه(قبائل) قلت: (قبيئل)، وإن شئت قلت: قبيئيل عوضا مما حذفت... وهذا قول الخليل. وأما يونس فيقول: قُبيّل يحذف الهمزة إذ كانت زائدة... وقول الخليل أحسن[28]. وبعد، فإنه بإمكاننا أن نستخلص من مبحث مناقضة العلماء النتائج الآتية:

- إن أكثر **خلاف** وقع بين العلماء وسيبويه كان حول **التأويل**.
- **لم يأخذ** سيبويه بكل التأويلات النحوية التي ذكرها الخليل بن أحمد. وقد لاحظنا أنه رجّح رأي الخليل في مسألة تتعلق بالتأويل.
- أكبر نسبة **خلاف** وقعت بين **الخليل وسيبويه** كانت قائمة حول **الأصل** وجاء الخلاف حول التعليل في درجة ثانية. أكبر نسبة خلاف وقعت بين سيبويه ويونس كانت حول التأويل؛ فمن الممكن أن نقول: إن الخلاف بين الخليل ويونس كان قائما على التأويل. يستند سيبويه في الرد على ما يذهب إليه العلماء إلى ما يأتي:

أ- السماع عن العرب.

ب- القياس على قول العرب، وأحيانا يقول التوافق مع وجوه العربية.

ج- الاستناد على الجانب الدلالي الذي يركّز على الوضوح وإزالة الالتباس.

د- يستند على الضرورة الشعرية لبيان ما يخرج عن الأصل.

ه- يستند على آيات قرآنية كريمة، وأبيات شعرية.

و- يستند على رأي الخليل بن أحمد الفراهيدي، واستند مرة حسب النصوص التي وردت في مبحث مناقضة العلماء على رأي أبي عمرو بن العلاء الذي نقله يونس بن حبيب، ومرة إلى رأي يونس بن حبيب، مما يمكّننا من القول: إن سيبويه يجعل أبا عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب في الدرجة الثانية بعد الخليل فيما يتعلق بالأخذ بآرائهم لنقض آراء غيره من العلماء. وكأن سيبويه يقول: **إن الخليل في الدرجة الأولى**، وأبا عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب في الدرجة الثانية في ما يتعلق **بأهمية آرائهم**.

واستشهاده برأي أبي عمرو بن العلاء للرد على ما ذهب إليه الخليل؛ جاء في الكلام على همزة (أل) أهي أصلية أم زائدة؛ فقد ذهب سيبويه إلى أنها زائدة مستشهدا برأي أبي عمرو بن العلاء وهذا ربما يؤدي إلى القول بأن اهتمام الخليل بن أحمد بالمسائل المتعلقة بالزيادة والأصل أقل من اهتمام غيره من العلماء؛ إذ إن أكبر نسبة خلاف وقعت بين الخليل وسيبويه كانت حول الأصل. كما وازن سيبويه بين آراء الخليل ويونس. وقد استند سيبويه في الترجيح بين آراء العلماء إلى القياس على كلام العرب وإلى البعد عن التأويل الذي يؤدّي إلى الصعوبة وإجهاد الذهن. وهذا ما استند عليه سيبويه عندما رجّح آراء يونس على آراء الخليل.[29]

خاتمة: يمكن أن نعدّ الخليل بن أحمد **المؤسس الروحي** للمدرسة البصرية والتي تعشّش فيها الفكر العربي، وسيبويه هو مؤسسها النحوي. وينظر إليها بعض المعاصرين على أنها مدرسة متشددة، وتعاملت مع المادة اللغوية بصورة انتقائية ولم تُنزل القرآن المنزلة التي هو أهل لها، وأهانت الحديث الشريف. ليس ضروريا أن نقبل كل هذه المآخذ أو نردّها، ولكن للبصرة أفضال كبيرة على النحو العربي مهما بالغت في تشددها. وفضل الخليل بن أحمد على الدرس اللساني العربي متعدّد الجوانب؛ إذ إنه امتلك رؤية لسانية شاملة في النظر إلى مستويات اللغة العربية أو نظمها، ولا يغيب عنا دوره الجلي في كتاب سيبويه، بتأثيره **التأسيسي** في النظامين الصرفي والنحوي العربيين. وما مقدمة العين في علم الأصوات إلا دليل على

الإسهام غير المعهود في البحث الصوتي عند العرب. وفي ابتكار نظام معجمي بُنيت فيه الوحدات المعجمية على أسس صوتية وصرفية ودلالية ورياضية تقليبية؛ ما يتلاقى مع الفكر اللساني الحديث عند دي سوسير وتشومسكي.

مصادر ومراجع البحث:

1- جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1. دار الفكر العربي القاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ج1، ص 376-377.

2 - أبو عمر الداني، المحكم في نقط المصاحف، تح: عزة حسن، ط02، دمشق، 1986، ص 06-07.

3 - القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج1، ص 346.

4 - ابن نباتة، سرح العيون، دط، القاهرة:1321هـ، مطبعة الموسوعات، ص 184.

5- صلاح رواي، النحو العربي: نشأته تطوره مدارسه رجاله، دط. دار غريب، القاهرة: 2003 ص 172.

6 - شارل بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، تر: إبراهيم الكيلاني، ط1. الجزائر: 1985، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 28.

7 - فخري خليل النجار، الخليل بن أحمد الفراهيدي: آراء وإنجازات لغوية، ط1. عمان: 2008 دار صفاء للنشر والتوزيع، ص 30.

8 - ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص 54.

9 - عبد الهادي الفضلي، مراكز الدراسات النحوية، ط1، الأردن: 1986، مكتبة المنار، ص 39.

10- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي

11 - www. arab- ency.com

12 - عبد الكريم مجاهد، الأبعاد اللسانية في معجم العين، أعمال الندوة الدولية.

13 - عبد الرحمن الخليل بن أحمد، معجم العين، ص 66.

14 - عمر الخزاعلة وعبد الكريم جرادات، الألفاظ الفارسية في معجم العين، أعمال الندوة الدولية.

15 - سيبويه، الكتاب، ج2، ص 108.

16- المرجع نفسه، ص 279.

17 - فخري خليل النجار، الخليل بن أحمد الفراهيدي: آراء وإنجازات لغوية، ط1. عمان: 2008، دار صفاء للنشر والتوزيع، ص 43.

18- شوقي ضيف، المدارس النحوية، ط 6. مصر: 1967، دار المعارف، ص 47، 64.

19- جلال الدين السيوطي، الاقتراح، ص 16.

20 - سيبويه، الكتاب، ج2، ص53.

21 - المرجع نفسه، ص 433، 436.

22 - ابن جني، الخصائص، ص 123.

23 - السيوطي، المزهر،ج1، طبعة الحلبي: 1958.

24 - سيبويه، الكتاب، ج1، ص 184.

25 - ديوان زهير بن أبي سلمى، ص 48.

26 - المرجع السابق ، ج3، ص 53.

27 - سيبويه، الكتاب، الحاشية، ج3، ص 51.

28 - المرجع نفسه، ج4، ص 439.

29 - محمد فضل ثلجي الدلابيج، دليل القاعدة النحوية عند سيبويه، د ط. دار الأردن الثقافي الأردن: 2005، ص 154.

المنظومات والشّروحات التّعليمية في التّأليف النّحوي

أ. عبد القادر معبد

جامعة مولود معمري، تيزي- وزو

- **مقدّمة:** دأب النحاة الأوائل- بعد القرن الثاني للهجرة - إلى التأليف بعد انبهارهم وإعجابهم الشديد بكتاب سيبويه(180هـ)، الذي ظلّ- ولا يزال- أعجوبة الدهر الخالدة، وكأنما كان ذلك صدا أكيدا لما ذهب إليه المازني(249هـ) قديما حين نظر في الكتاب فقال: "من أراد أن يصنف كتابا واسعا في النحو بعد سيبويه فليستح".

فقد كانت كتب النحويين المتقدمين تؤلف لتتضمن ما اهتدوا إليه من حقائق نحويه، وحرص أصحابها على استيفاء البحث في كل مسألة بذكر جميع ما يتصل بها، ولو كان ذلك على سبيل الاستطراد أو لأدنى ملابسه، حتى اكتمل وضع علم النحو، ونضجت أبحاثه وتمت مسائلة. وحينما جاء من يريد أن يضيف جديداً لم يجد زيادة لمستزيد، اللهم إلا شرح كتب من سبقوه، وتوضيح ما عسى أن يكون فيها مما يصعب فهمه، وإضافة ما ظهر من خلاف طارئ بين النحاة، وما عرضوه من علل وتأويلات وشواهد، فازدادت التآليف اتساعاً، وتشعبت الأبواب النحويه وكثرت المسائل الخلافية، وتنوعت العلل والتأويلات العقلية.

وقد دفع هذا كله إلى ظهور فريق ثالث، سعى إلى اختصار الأبواب وتقريب المسائل من أذهان المتعلمين، فألف المتون المنظومة التي برزت في القرن السابع الهجري، حتى باتت تشكل ظاهرة متميزة في منظومة التأليف النحوي، أدت إلى ظهور شروح لها أكثر اتساعاً، ثم بروز حواشٍ وتقريرات على هذه الشروح أوجبتها ظروف التّوضيح والتبيين.

فمتى ظهرت هذه المتون؟ وما هي أنواع المتن؟ ثم ما أشهر المتون المنظومة والمنثورة وأشهر علمائها؟ وما هي الأسباب التي أدت إلى هذه الظاهرة في الدرس النحوي والدوافع التي دفعت العلماء إلى الاختصار في ما يسمى بالمتون، مما اضطرهم بدوره إلى الشروح التي استدعت ظهور الحواشي؟

وما هي أبرز المآخذ والعيوب التي ذكرها الباحثون والنقاد لهذا النظام التأليفي؟ وما هي قيمتها العلمية؟

- **المقصود بالمتن والشرح والحاشية والتقرير:**

المتن: "جرى إطلاقه عند أهل العلم على مبادئ فن من الفنون تكثف في رسائل صغيرة غالباً وهي تخلو في العادة من كل ما يؤدي إلى الاستطراد أو التفصيل كالشواهد والأمثلة إلا في حدود الضرورة وذلك لضيق المقام عن استيعاب هذا ونحوه، لذلك عدت المتون أقل ألفاظاً الأحسن في ذاتها والأكثر قبولاً عند الدارسين.

وعرف صاحب "قصد السبيل" بأنه: الكتاب الأصلي الذي يكتب فيه أصول المسائل، ويقابله الشرح، مولد لم يرد عن العرب، وإنما هو مما نقله العرف تشبيهاً له بظاهر الظهر الذي هو معنى المتن الأصلي في القوة والاعتماد عليه.

وعُرّف بأنه: خلاف الشرح والحواشي"[1].

قال في المدخل الفقهي العام: "وقد سموا به في الاصطلاح هذه المختصرات العلمية، لأنها تتضمن المسائل الأساسية للركوب والحمل"[2]. والمتن نوعان:

متن منظوم، ومتن منثور: وهما يشتركان في الميل إلى الاختصار والخلو إلى كل ما يؤدي إلى الاستطراد والتفصيل، وقلة ذكر المذاهب والخلافات، كما يندر فيهما وجود الشواهد.

والمتون موجودة من قديم الزمان، ولكنها لم تعرف بهذا الاسم، بل باسم المختصرات، مثل مختصر الخرقي عمر بن الحسين الخرقي المتوفى سنة (334هـ)، قال أبو علي الحسن بن أحمد بن البنا في كتابه المقنع في شرح مختصر الخرقي: "وكان بعض شيوخنا يقول: ثلاثة مختصرات، في ثلاثة علوم، لا

أعرف لها نظائر: الفصيح لثعلب، واللمع لابن جني، وكتاب المختصر للخرقي، فما اشتغل بها أحد وفهمها كما ينبغي إلا أفلح"[3].

ألفت المتون النحوية نظما ونثرا، فأما النظم فهو ظاهرة جديدة لم تكن مألوفة في التآليف النحوية الأولى، وجدت لتكون وسيلة من وسائل الحفظ، وقد سادت هذه الظاهرة مدة طويلة في تاريخ الدرس النحوي، عرفنا خلالها منظومات كثيرة كان أشهرها(الخلاصة) الألفية لابن مالك، التي صارت مادة نحوية مهمة في التدريس حتى يومنا هذا، وأما المنثورة فقد كانت تكتب بأسلوب موجز وعبارات مختصرة وهي كثيرة.

"وقد كان النحاة في هذه المتون المنظومة والمنثورة يعيدون صياغة القواعد النحوية التي يستقونها من المؤلفات النحوية الأولى ويعرضونها في تلك المتون بعبارات مقتضبة وأمثلة موجزة تخضع في أكثر الأحيان لمتطلبات النظم والقافية فتأتي مختصرة ويكتنفها الغموض أحيانا"[4].

1- **المتن المنظوم:** بدأ ظهوره عند العرب حين اتسعت معارفهم وتنوعت لديهم الثقافات وزاد إقبالهم على التعلم، وقد أحسوا حينذاك بحاجتهم إلى نوع خاص من التصنيف يعينهم على حفظ المعلومات ونقلها، "فاستعانوا على ذلك بالشعر الذي امتلكوا ناصيته، لأنه يشكل وسيلة مشوقة، ويسهل على المتعلمين حفظها... ولعل آخر الاتجاهات الجديدة التي نتناولها بالدراسة والتي لاحظنا نشأتها في شعر القرن الثاني، هو الفن التعليمي الذي يصطنعه الشعراء عادة لنظم أنواع شتى من العلوم والمعارف تسهيلا لحفظها، ومما لا شك فيه أن نشأة هذا الفن إنما تقترن باتساع أنواع المعارف والعلوم وازدياد الاقبال على التعليم والتعلم في القرن الثاني، وما كان ممكنا أن ينشأ في الشعر العربي فن تعليمي قبل هذا القرن لهذا السبب نفسه"[5]

ولعل من أهم الدوافع التي أدت إلى اعتماد النظم في التآليف ما يورده الدكتور علي ناصف النجدي قائلا:" وراع النحاة ضخامة النحو وتشعب فروعه وثقل أعبائه على الطلاب، فأخذهم بهم رحمة وأبوا إلا أن يتخذوا منها عونا، فتناولوه بالنظم

يسلكون مسائله فيه ويجمعون أشتاته به، لئلا يسبق عليهم حفظه ولا يسرع إليهم نسيانه، فأصابوا في ذلك نجاحا"[6].

2- **المتن المنثور:** صاغ العلماء المتون نثرا كما صيغت نظما، وذاع صيت هذه المتون في مختلف الفنون، وقد اعتمدها الدارسون جيلا بعد جيل يشرحونها ويعلمونها، وهي لا تزال عمدة في بابها ومرجعا ذا بال، وهي حتى الآن مجال للباحثين يخوضون فيه بالتفسير والتعليق والايضاح والتحقيق.

ينسب أقدم متن نحوي منثور لخلف بن حيان الأحمر البصري[7](ت180هـ) حين ألف كتابه الوجيز(مقدمة في النحو).

ثم ألف أبو عمر صالح بن إسحاق الجرمي[8] المتوفى سنة (225هـ) مختصرا في النحو سماه (المقدمة) وسماه بعضهم (مختصر نحو المتعلمين)، ثم ألف أبو علي أحمد بن جعفر الدينوري[9] المتوفى سنة (289هـ) مختصرا سماه (المهذب) جرده من الاختلافات واكتفى فيه بمذهب البصريين.

ثم ألف أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان[10] المتوفى سنة (320هـ) متنا نحويا سماه (المختصر في النحو)، ثم ألف أبو جعفر النحاس[11] المتوفى سنة (338هـ) كتابه (التفاحة) وهو متن صغير الحجم كبير الفائدة.

واستمر التأليف في المتون النحوية المنثورة المختصرة في عصر المماليك وازدهر وكثر، كما كثر شرّاح هذه المتون وحفاظها والمقبلون عليها، ومن أشهر ما ألف في عصرهم من المتون النحوية:

- (الكافية) لابن الحاجب المتوفى سنة(646 هـ)؛
- (المقدمة الآجرومية) في النحو لأبي عبد الله محمد بن داود الصنهاجي المعروف بـ(ابن آجروم) المتوفى سنة(723هـ)، وقد شاعت هذه المقدمة وذاعت وأقبل عليها المعلمون والمتعلمون؛ الأولون يشرحون الآخرون يحفظون.

ويمكن أن يندرج تحت اسم المتون كل كتاب قديم اختصره مؤلفه وأخلاه من الخلاف وكثرة التعليلات، ومن ذلك كتاب(الجمل) في النحو لأبي القاسم الزجاجي[12] المتوفى سنة (339هـ) إلا أنه يؤخذ عليه إكثاره من الأمثلة، وهذا أمر غير

مألوف في المتون بآخره، ومن ذلك أيضا كتاب (الجمل) في النحو لعبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة(471هـ).

الحاشية: إيضاحات مطولة دعت إليها ظاهرة انتشار المتون والشروح.

بدأ ظهور الحواشي في أواخر عصر المماليك وانتشرت في العصر العثماني وأصبحت طابعا شاملا لتدريس العلوم ومنهجا سائدا من مناهج التأليف حتى أضحت ظاهرة راسخة في ذلك العهد، ولقد حققت بالتأكيد كثيرا من النفع المتوخى منها.

ومنشأ الحواشي والتقريرات هو نظام التعلم الذي كان سائدا، إذ كان أساسه تدريس كتاب، أو إقراؤه، فكان المدرس يعالج المباحث التي يتضمنها المتن والشرح، فإن صادف مسألة غامضة أو قصورا أو نقصا كتب على حاشية الكتاب ما يسد ذلك تعقيبا أو استدراكا أو توضيحا.

اختلف في البداية الزمنية لظهور الحواشي النحوية والصرفية، فالدكتور صلاح راوي يلمح إلى أن بدايتها كانت في مستهل القرن السابع الهجري مع ابن معط الزواوي (ت633 هـ) بحواشيه على أصول ابن السراج[13]، ثم تتابع المحشون فكان لابن هشام (716 هـ) حواش على الألفية وحواش على التسهيل وحواش على شرح الألفية لابن الناظم[14]، أما بعض الباحثين فيرى أنه" قد جاءت مرحلة الحواشي والتعليقات في القرون التي تلت عصر ابن هشام الأنصاري"[15] ، وبدايتها كانت مع ابن الضائع (776 هـ) بحاشيته على مغني اللبيب لابن هشام، ثم جاء ابن جماعة[16](ت819 هـ) وله حواش كثيرة منها: حاشية على شرح التوضيح وحاشية على مغني اللبيب وأخرى على ألفية ابن مالك ورابعة على شرح الشافية للجاربردي وخامسة على شرح الألفية لابن الناظم، بعد ذلك جاء الشمني (ت 872 هـ) وله حاشية مشهورة على مغني ابن هشام "يرد فيها على مآخذ الدماميني على ابن هشام في حاشية سماها (تحفة الغريب في الكلام على مغني اللبيب)[17].

والشرح: عمل يتوخى فيه توضيح ما غمض من المتون وتفصيل ماأجمل منها وهو يتراوح بين الطول والقصر والسهولة والعسر، وفيه الوجيز والوسيط والبسيط.

أما **التقرير** فهو بمثابة هوامش كان يسجلها العلماء والمصنفون على أطراف نسخهم مما يعن لهم من الخواطر والأفكار على نقطة معينة أو نقاط متعددة، وذلك أثناء قيامهم بالتدريس من الشروح والحواشي.

- **ظهور المنظومات التعليمية:** إن المصيبة التي مني بها العالم الاسلامي إثر سقوط بغداد تحت همجية التتار سنة 656 هـ ثم سقوط الأندلس بعد ذلك في يد القرنجة سنة 898هـ أذهلت العلماء، وأيقظت فيهم حرصا شديدا على الحفاظ على تراث الأمة وإنقاذه من الضياع.

ويورد لنا السيوطي خبرا خطيرا فيقول: "وقد ذهب جل الكتب في الفتن الكائنة من التتار وغيرهم بحيث إن الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا تجيئ حمل جمل واحد"[18].

فكلام السيوطي وإن كان لا يخلو من غلو إلا إنه يعكس حالة إحساس العلماء بالنقص والخسارة الشيء الذي أشعرهم بالمسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتقهم فوجدوا أنفسهم "مسؤولين أمام الله عن دينه وأمام التاريخ عن نهضة العلم وإقالة عثاره وأمام ضمائرهم عن معارفها، وأمام أوطانهم عن تدعيمها، فدفعهم شعورهم العميق بهذه المسؤولية وضخامتها إلى الجد في العمل لتلافي ما فات، وبذل الجهد لإعادة هذا الصرح المنهار"[19].

فنشطت حركة التأليف في مختلف الفنون في مقدمتها النحو "وفي الإنصاف أن نقول إن عماد هذه الحركة التي كان فيها إمساك للحوباء إنما هم جالية الأندلس والمغرب"[20] الذين وفدوا وأذاعوا مصنفاتهم وعلومهم.

وخلاصة القول إن عصر المماليك عصر الازدهار الكامل للدراسات النحوية خاصة واللغوية عامة، فقد امتلأت البلدان بالنحاة القادمين من بغداد بعد احتلالها على يد التتار، ومن الأندلس بعد احتلال الفرنجة آخر حواضرها غرناطة، مما

جعل المصنفات النحوية على عصرهم تبلغ الذروة كما وكيفا، فظهرت الموسوعات كما ظهرت المتون والشروح والحواشي.

"غير أنه من الملاحظ على الدراسات النحوية في عصر العثمانيين هو تميزها بالحواشي والتقريرات والمختصرات التي يشكل جلها فائدة طيبة، وإن كان بعضها يخلو من الإضافة والتجديد ويقتصر على الجمع والإعادة والترديد"[21].

ومن أُولى المنظومات التعليمية التي تُطالعنا في النحو العربي ما ذكره خلف الأحمر في كتابه (مقدمة في النحو) بأن للخليل بن أحمد الفراهيدي قصيدة شعرية في النحو نقل منها هذين البيتين[22]:

فانسق وصل بالواو قولك كله وبلا وثم وأو فليست تصعب
الفـــاء ناسقة كذلك عندنـــا وسبيلها رحب المذاهب مشعب

وأمّا ابن دريد (ت:321هـــ) عالم اللغة الكبير، فكان ينظم الشعر ويُحسنه[23] وله ديوان مطبوع، وقد عُني بتضمين طائفة من أشعاره بعض المعارف، وأشهر ما له في هذا الباب مقصورته التي جمع فيها أكثر أغراض الشعر وفنون الأدب واللغة والبلاغة، وقد بنى قافيتها على الحرف المقصور، وجعلها في نحو مئتين وخمسين بيتاً، ويُقال إنه ضمَّنها ثلث المقصور في اللغة[24].

ولابن دريد من وراء هذه القصيدة قصائد أُخَر تتضح فيها هذه الغاية اللغوية التعليمية، من ذلك قصيدته في المقصور والممدود، وقد اشتملت على سبع وخمسين كلمة مقصورة ومثلها ممدودة من نفس مادتها، وفي ديوانه قصيدة ملأها بالغريب[25]، نظمها تَحدِّياً لبعض علماء اللغة مُورِداً عليه طائفة كبيرة من ألفاظها الآبدة، وهي لذلك تُضمّ إلى القصيدتين التعليميتين السابقتين، فغايتها هي الأخرى تعليمية واضحة، وأيضاً في الديوان بجانب ما قدمنا ثلاث مقطوعات[26]، أودع في أولاها ما يُذكَّر من أعضاء الجسم ولا يؤنث، وفي ثانيتها ما يؤنث ولا يُذكّر، وفي ثالثتها ما يجوز فيه التذكير والتأنيث، وعلى هذا النحو سَخَّر ابن دريد الشعر ليحمل مواد لغوية تعليمية[27].

وذكر السيوطي أن أحمد بن منصور اليَشكريّ نظم أرجوزة في النحو قديمة عدتها ثلاثة آلاف بيت إلا تسعين بيتاً، احتوت على نظم سهل وعلم جم[28]. ومن الذين ساهموا في هذا المجال القاسم بن علي الحريري (ت:516 هـ) صاحب المقامات المشهورة حيث نظم أرجوزته المسماة (ملحة الإعراب)[29]، وتبلغ عدة أبياتها ثلاثمائة وسبعة وسبعين بيتاً، وكذلك ساهم أبو العباس أحمد بن عبدالعزيز الشَّنتمري ــ توفي في حدود سنة (553 هـ) ــ في هذا المجال، فنظم أرجوزة في النحو[30]، ونظم الحسين بن أحمد بن خيزان البغدادي (ت:600 هـ) أرجوزة حميدة في النحو[31]، وكذلك فعل سالم بن أحمد بن سالم المعروف بالمنتجَب (ت:611هـ)[32].

ولقد بدأت عند نحاة القرن السابع الهجري مرحلة الازدهار والنضج في وضع المنظومات النحوية التي جمعت جلّ مهمات النحو العربي، والذي دفعهم إلى هذا الصنيع محاولتهم تيسير النحو، وخوفهم على أصول اللغة العربية من الضياع؛ كما ذكرت آنفا إثر النكبات والمصائب التي تعرض لها العالم الإسلامي بسقوط بغداد سنة (656هـ)، وبناء على ذلك فإن هذه الفترة تُمثِّل مرحلة النضج والازدهار للشعر التعليمي المتعلق بعلوم العربية، وليس يصح ما يراه كل من الجعفري والذهبي بأن هذا التاريخ يُمثِّل بداية مرحلة ضعف وركود للشعر التعليمي بشكل مطلق، فيزعمان أن هذا الشعر قد اتسم بالجفاف والجمود حتى صار مُنفِّراً، واحتاج نتيجة لذلك إلى الشروح التي تراكمت بشكل ملحوظ حول أي نص شعري تعليمي واحتاجت الشروح إلى حواشٍ وهوامش[33].

ورأيي أن مثل هذه الشروح والحواشي تُظهر لنا مدى ازدهار هذه الوسيلة التعليمية وفاعليتها في هذه الفترة وما تلاها، فقد كانت المنظومات التعليمية في ذلك العهد خُلاصات شديدة التركيز، مِمّا استدعى العلماء المتأخرين أن يثبتوا عليها شروحاً وتعليقات تبسط ما ركّزته وتطيل فيما لخَّصته، ولو كان الأمر كما يزعم الباحثان لَمَا انساق النحاة وراء هذه المنظومات التي لا طائل تحتها يشرحونها

ويُعلِّقون عليها الحواشي والطُّرَر، ولاستعاضوا عنها بمتون نثرية تعليمية أعم فائدة وأكثر رُوَاء.

ومهما يكُن من أمر، فقد فُتِح في القرن السابع الهجري باب النظم المتكامل في علوم العربية على يد ابن مالك (ت:672 هـ) ومن قبله ابن معط (ت:628هـ)[34] فقد استطاع هذان العالمان تسخير قوالب الشعر لصب حقائق النحو ودقائقه في إطار منظوم سُمّي بـ(الألفية)، فابن معط وابن مالك من أوائل من نظم مسائل النحو بشكل متسق متكامل، الأول في ألفيته الموسومة بـ(الدرَّة الألفية في علم العربية)[35]، والآخر في ألفيته الموسومة بـ(الخُلاصَة)[36]، وقد استطاعت كل واحدة منهما أن تجمع المُتفرِّق وتُرَتِّب المُختلِط من مسائل النحو وقضاياه، وأن تختصر المُطوَّلات من التصانيف النحوية، وتعرض الموضوعات بتسلسل وتدرج، مما جعل كل واحدة منهما تُشكِّل منظومة معرفية محددة المعالم متكاملة الأجزاء.

هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن ألفية ابن معط هي السابقة على ألفية ابن مالك فقد نظر الأخير في ألفية السابق، وأقراها لتلاميذه[37]، فألفاها منظومة ناجحة تَستحقُّ أن تُحتَذى، فشجعه ذلك على نظم ألفية على غرارها، وصنيعه هذا ليس معارضة لابن معط في ألفيته، ولا لسُخْط يتعلَّق بها منه، بل هو جارٍ على سبيل الرِّضا بما صَنَع ابن معط، وإن كانت قد فاقتها، وقد أوضح ذلك في قوله[38]:

وتَقْتَضي رِضاً بِغْير سُخط فائقةً ألفيةَ ابنِ مُعْط

فابن مالك بَيَّن أنها في حال شُفُوفها على ألفية ابن معط وتفوّقها، ليست بِمُقتضية لسُخط، بل هي مُقْتَضِية للرضا المَحض الذي لا يشوبه شيء، وهذا شأن العلماء والفُضلاء، أن يأتوا بالفائدة مجردة من التنكيت والاستصغار لِما جاء به غيرهم وإن كان ما يأتون به أتمّ وأكمل[39].

- **طغيان المنهج التعليمي على المنظومات النحوية:**

يرى الدكتور كريم حسين الخالدي بعد استقرائه لكتب النحو الأساسية التي درست الموضوعات النحوية أنها:" تتبع أحد المناهج الثلاثة الآتية"[40]:

1- المنهج الوصفي؛
2- المنهج العقلي(الفلسفي) أو (التعليلي)؛
3- المنهج التعليمي.

" فالمنهج الوصفي هو المنهج الذي يقوم على تقرير ما هو واقع أو تفسيره تفسيرا لا يخرج عن طاقة اللغة "[41].

ويقول الدكتور رمضان عبد التواب: "المنهج الوصفي يكتفي بوصف أية لغة من اللغات عند شعب من الشعوب، أو لهجة من اللهجات في وقت معين؛ أي أنه يبحث اللغة بحثا عرضيا لا طوليا، ويصف ما فيها من ظواهر لغوية مختلفة ويسجل الواقع اللغوي تسجيلا أمينا... فالمنهج الوصفي يقوم على أساس وصف اللغة أو اللهجة في مستوياتها المختلفة؛ أي في نواحي أصواتها ومقاطعها وأبنيتها ودلالاتها وتراكيبها وألفاظها أو في بعض هذه النواحي ولا يتخطى مرحلة الوصف"[42].

لقد كان كتاب سيبويه مثالا معبرا عن المنهج الفطري(الوصفي) في كثير من جوانبه، وأما ما ورد من تعليل للأحكام النحوية في الكتاب" فلم يكن أسلوبا معتمدا على الفلسفة والفروض النظرية، وإنما اعتمد كلام العرب وجعله الأصل الذي استشهد به ويقيس عليه، وكان في تعليله وقياسه غاية في المهارة والذكاء"[43].

أما المنهج العقلي فهو منهج بدأ بالظهور في التآليف النحوية بعد كتاب سيبويه وهذا المنهج قد أفاد من علوم أخرى في أساليبه وتبويبه ومصطلحاته وتعليله وتحليله وحدوده، لذا جاءت تسمياته مختلفة؛ فمنهم من سماه المنهج التعليلي، ومنهم من أطلق عليه المنهج الفلسفي.

"وهذا لا يعني أنه كان يسلك مسلكا فلسفيا أو أنه متأثر بمناهج الفلسفة أو المنطق"[44].

ومنه يمكننا أن نحدد الملامح البارزة لهذا المنهج في النقاط الآتية:

- اتباع أساليب الحوار والجدل والحجاج، مثلما نلحظه في كتاب الانصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري.

- الاهتمام بأوجه الخلاف في الآراء، والسبب في ذلك ظهور مدرستين مختلفتين في منهج البحث هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ونلحظ ذلك في كتاب الأنصاف وفي كتاب مسائل خلافية في النحو للعكبري وغيرها من الكتب.

- التعليل: لا نعني به التعليل الفلسفي المتأثر بالمنطق اليوناني، وإنما التعليل الفطري النابع من طبيعة الدرس النحوي واتجاهاته التعليمية الرامية إلى ايجاد العلل وإيضاحها للمتعلمين.

وأما المنهج التعليمي فهو المنهج الذي أُتبع في التآليف النحوية التي تخاطب الطبقة الوسطى والدنيا من المتعلمين، أما الدوافع التي حفزت النحاة على اتباعه فهي كثيرة أهمها[45]:

1- رغبة كثير من المسلمين الذين ينتمون إلى قوميات غير عربية في تعلم اللغة العربية لارتباط ذلك بعباداتهم ومصالحهم وثقافتهم.

2- رغبة عدد من الخلفاء والأمراء في وضع كتب نحوية مبسطة للدارسين كما هو الحال في كتاب الحدود الذي وضعه القراء تنفيذا لرغبة المأمون.

3- الرغبة في تبسيط التآليف النحوية وجعلها قريبة من متناول الناس ولاسيما المتعلمين المبتدئين منهم وتسهيل حفظها، وقد عبر عن هذه الرغبة كثير من النحاة في مقدمات كتبهم ملمحين إلى صعوبة أساليب التآليف غير التعليمية، لذا ألفوا المتون المنظومة لكون الشعر أسهل حفظا من النثر، كما ألفوا المتون النثرية وشرحوا تلك المتون سعيا وراء توضيح أساليبها وإزالة الابهام عنها.

4- خوف العلماء على أصول العربية من الضياع، وبخاصة بعد الغزو الماغولي الهمجي لبلاد المسلمين، فأراد العلماء أن يعوضوا ذلك الذي فقد بكثرة التأليف والتصنيف فاجتهدوا لنشر الحركة النحوية في دور التعليم "وقلما تخلو مدرسة أو مسجد من درس للنحو يقوم جنبا إلى جنب مع دروس الشريعة"[46].

5- الحرص على أن تحفظ المتون من العلم جوهره ولبابه؛ وأن تقوم بدورها الفعال في مسرح التعليم، وقد حدث هذا في ذلك العصر وفي عصرنا الحاضر. أما

الشروح فقد كانت تطوراً طبيعياً يناسب عصر التوسع والتخصص، ويقرب للطلاب العلم، ويسهل لهم تناول مسائله.

هذه الأسباب التي ذكرتها هي الكامنة وراء ظهور المتون وبروزها في منظومة التأليف النحوي، التي أدت إلى ظهور الشروح، فصورتها المختصرة وعباراتها المضغوطة وبعدها عن استيفاء الشروط والجزئيات التي تربط بالقاعدة، أو التي يتطلبها إتمام البحث، حتمت ظهور الشروح التي كان بعضها مستقلا عن المتن كما في شرح ابن عقيل، أو ممزوجاً به كما في شرح الأشموني، ثم نشأت بعد هذا وذاك الحواشي والتقريرات بدافع تحسين نظام التعليم الذي كان أساسه تدريس الكتاب أو إقراءه، فأخذ المدرس يعالج المباحث التي يتضمنها المتن والشرح ويحاول إزالة ما فيها من غموض أو قصور أو نقص، فيكتب ما يعن له على حاشية الشرح، ثم أخذ المعلقون يأتون بتعليقاتهم على الحواشي، فيبدون ملاحظاتهم، ويحاولون بها إتمام النقص وهو ما سمي اصطلاحاً بالتقريرات.

- **نقائص وعيوب المتون والشروح والحواشي والتقريرات:**

لهذا النظام التأليفي عند بعض الباحثين والنقاد من المتقدمين والمحدثين نقائص وفيه عيوب، وعليه مآخذ، منها:

1- في المتون تشتيت للمتعلم بين تحصيل الحقائق وتذليل ما في المتن من صعاب، وتجلية ما فيه من غموض وإتمام ما فيه من نقص. وقد يكون العناء الذي يبذل في ذلك مستنفذاً في زمن كان المتعلم في غنى عن إضاعته لو استقى المعلومات بطريقة مباشرة من عبارات تامة وافية واضحة، كما قال **ابن خلدون** في مقدمته: "ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن ... وهو فساد في التعليم، وفيه إخلال بالتحصيل؛ وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد ... ثم فيه شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها، وصعوبة

استخراج المسائل من بينها؛ بأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة ... فهم قصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين، فأركبوهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها"[47].

أما الشروح والحواشي والتقريرات، فتردد الجمل المعادة المبتذلة والأمثلة المكررة، وتكثر من حشد الآراء والمسائل بسبب أو بغير سبب، وتكثر من الاستطراد، مما يزيدها غموضاً وإمعاناً في التعقيد، بدلا من الإيضاح والتسهيل.

2- هذه المنظومة التأليفية لم تستطيع أن تضيف إلى مباحث النحو جديداً يجعله مزدهراً نامياً، وإنما حوت قواعد متحجرة، وأصبح هم العلماء تلخيص هذه القواعد، ثم شرح التلخيص، ثم التحشية على الشرح، ثم التقرير على الحاشية، لذلك فإن الناظر لا يرى إلا كلاماً معاداً مكرراً في هذه المنظومة لا ينمي ذوقاً ولا يربي ملكة.

هذه هي خلاصة ما انتقد به بعضهم هذا النمط التأليفي، وما وسموه به في العصور التي كتب فيها وشاع. وبالنظر الموضوعي البعيد عن الحماس الذي اتسم به كلام مناهضي هذا اللون من التأليف، يمكنني أن أقول في الدفاع عنه وفي بيان مزاياه ، مع الرد على ما سقته وأوردته عنهم من العيوب والنقائص ما يلي:

1- إن الناظر في هذا النظام من التصنيف يجد فيه عمقاً علمياً يتجلى في كثرة المعلومات، وتنوعها، وترتيبها ترتيباً محكماً.

2- إضافة إلى ما فيها من الفوائد، والإضافات التي لا توجد في المطولات.

3- تكوين صورة مجملة للفن الذي ألفت فيه، يستطيع الطالب الإحاطة بها في زمن قليل، وماهي إلا مدخل للعلوم، وليست هي الغاية وإليها النهاية، بل هي الأساس والبداية.

4- إن العلم الذي فيه المتون، أكثر منه فيما تلاها من المؤلفات الحديثة وأعظم فائدة.

5- إن الغموض الذي عيبت به المتون ليس مما يعاب، بل هو في الحقيقة مدح لها لا قدح فيها، لأنه لا يستوي من يحصل العلم بيسر وسهولة، ومن يحصله بكد

ومشقة، وعناء ... وأين مستوى هذا من ذاك، وبهذا يشرف قدر العالم وتفضل منزلته، ولو كان العلم كله بيناً لاستوى في علمه جميع من سمعه، فيبطل التفاضل. قال الخليل بن أحمد رحمه الله تعالى: " من الأبواب ما لو شئنا أن نشرحه حتى يستوي فيه القوي والضعيف لفعلنا، ولكن يجب أن يكون للعالم مزية بعدنا".

وقال بعضهم عن المتون: "حفظتْ من العلم جوهره ولبابه، وقامت لا تزال بدورْها الكريم في مسرح التعليم، من ذلك العصر البعيد إلى عصرنا الجديد"[48].

6- المتون تجمع حقائق العلم في ورقات يسهل حفظها، ويسهل استحضارها في الدروس والمناسبات.

7- إن الزعم بأن هذه المؤلفات لم تضف جديدًا، وإنما هي قواعد متحجرة كان هم العلماء شرحها فحسب، هو زعم لا يقره الواقع؛ ذلك أن تعدد المتون وتنوع الشروح والحواشي والتقريرات، قد كوَّن – في حقيقة الأمر – ثروة علمية عظيمة خلدت مع الزمان، وحفلت بالمعارف المفيدة والآراء السديدة والنظرات المبتكرة إضافة إلى ميزة أخرى هي أن هذه المنظومة التأليفية حفظت نصوصاً من أصول ومصادر ضاعت من يد الزمن، ولم تصلنا غير أسمائها. وليت شعري كيف تكون كافية ابن الحاجب وألفية ابن مالك وشروحهما قواعد متحجرة؟!!

ومهما يكن من أمر فإن هذا اللّون من التصنيف يربى – في ما أرى – فضيلة البحث والتمحيص، وينمي حلية الصبر، ويقوي الاعتماد على الذات، ويعود الطالب على دقة الملاحظة.

- **خاتمة:**

وخلاصة القول أن جمهرة المتون والشروح والحواشي والتقريرات، وكذلك المنظومات والنكت وشروح الشواهد، قد انتظمت في إطار عام متنوع، وهو الإطار الذي لا يمكن معه أن ترمى بأنها جميعاً صور متقاربة، ليس بين أكثرها مقدار واسع من التفاوت في الموضوع والمنهج والأسلوب، أو في طريقة عرض المعلومات وحجمها.

هذا مع الإقرار بأن بعضها لم يكد يخرج عن غيره أو يزيد عليه أو يبتعد عنه مما لا يجعل لشيء من هذه المصنفات القليلة مزية علمية ترفعه على ما سبقه أو عاصره أو لحقه من المصنفات المشابهة.

ومهما يكن من شيء، فإن الذي ينبغي ألا يغيب عن ذهن القارئ الكريم في كل الأحوال ، هو أن هذا الأسلوب التأليفي يشكل جزءاً كبيراً من تراثنا الخالد، الذي لا يستغني عنه الدارس مهما علا كعبه في العلوم والمعارف .

- **الهوامش:**

1- عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم، الدليل إلى المتون العلمية، دار الصميعي للنشر والتوزيع الرياض، ط1، 2000، ص25.

2- مصطفى أحمد الزرقا، المدخل الفقهي العام، دار القلم، دمشق، ط1، 1998م، ص212

3- عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم، الدليل إلى المتون العلمية، ص26.

4- د. كريم حسن الخالدي، مناهج التأليف النحوي، ص56.

5- د. أحمد السليمي، المتون والشروح والحواشي والتقريرات.

6- علي النجدي ناصيف، سيبويه إمام النحاة، المطبعة العثمانية، القاهرة، ط2، 1979، ص34.

7- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت: 911هـ): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1964م، ج1، ص554، ونزهة الألباء ص53.

8- المصدر السابق، ج2، ص8 و9، قال أبو علي الفارسي: "قلّ من اشتغل بمختصر الجرمي إلا صارت له بالنحو صناعة" نزهة الألباء، ص 117.

9- المصدر السابق، ج1، ص 301.

10- المصدر السابق، ج1، ص18 و19.

11- المصدر السابق، ج1، ص 362.

12- ابن خروف، شرح جمل الزجاجي، تحقيق ودراسة، د.علاء الدين حموية.

13- د. صلاح راوي، النحو العربي، ص613.

14- المرجع السابق، ص629.

15- د. كريم حسين راوي، مناهج التأليف النحوي، ص641.

16- د. صلاح راوي، النحو العربي، ص641.

17- المرجع السابق، ص 646.

18- السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، دت ج1، ص97.

19- محمد رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ج3، ص17 نقلا عن كتاب (منهج النويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب)، د.عبد الحليم الندوي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1987 ص53.

20- محمد طنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، مصر، 1995، ص160.

21- د .أحمد السليمي، المتون والشروح والتقريرات، مجلة جامعة الملك عبد العزيز- الآداب والعلوم الانسانية- العدد 2008/06.

22- الأحمر، أبو محرز خلف بن حيان (ت: 180هـ): مقدمة في النحو، تحقيق: عز الدين التنوخي، دمشق،1961م، ص85، 86. يرى محقق كتاب (مقدمة في النحو) أن النحاة لا يذكرون للخليل قصيدة في النحو، وإن صحت هذه النسبة، فعلى هذا تكون هذه القصيدة من جملة ما ضاع من كتب الخليل.

23- ذكر السيوطي في(بغية الوعاة، ج1، ص76، 77) أن ابن دريد كان أحفظ الناس، وأوسعهم علماً، وأقدرهم على الشِّعر، وما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر وابن دريد، وكان يُقال: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء.

24- البغدادي، عبدالقادر بن عمر، (ت:1093هـ): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 2000م، ج3، ص105.

25- ابن دريد، محمد بن الحسن (ت:321هـ): ديوانه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة 1946م، ص88.

26- ديوان ابن دريد، ص123.

27- السيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص76ـ 81؛ ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني)، دار المعارف، القاهرة، ط13، 2004م، ص251 - 254؛ غوشة: الشعر التعليمي في القرون الأربعة الأولى، ص166، 201.

28- السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص392.

29- جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (المتوفى: 646هـ): إنباه الرواة على أنباه النحاة، المكتبة العنصرية، بيروت، ط1، 1424هـ، ج3، ص23ـ 26؛ السيوطي: بغية الوعاة ج2، ص257- 259، لقد نُشرت (ملحة الإعراب) في باريس عام 1885م، بشرح وتعليق:

ل.بنتو (ت:1889م)، ومن ثم توالت طبعاتها أيضا في باريس عام 1904م بترجمة فرنسية وطُبعت في القاهرة في مطبعة الطوخي سنة 1296هـ، وفي مطبعة مصطفى الحلبي سنة 1353هـ ـ 1934م.

30- السيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص225، 226، يقول السيوطي عنه: كان شاعراً مُحسِناً، كاتباً بليغاً...، له أرجوزة في النحو وشرحها، وأرجوزة في الغريب، وأخرى في الخط.

31- السيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص531.

32- السابق نفسه، ج1، ص575.

33- الجعفري والذهب: دور الشعر التعليمي في تطور الفكر التربوي العربي، ص195، 196.

34- ابن معط ناظم الألفية التي أشار إليها ابن مالك، هو زين الدين أبو زكريا يحيى بن مُعط بن عبدالنور المَغْربيّ الأصل والمَنشأ، الزَّواويّ القبيلة، الجزائريّ البلد، اشتغل بالعربية في المغرب على شيخه أبي موسى الجُزُليّ، فَتَمهَّر فيها، ثُمَّ رحل إلى بلاد المشرق، فلقي المشايخ، وباحث العُلماء وناظر الفضلاء، ثُمّ أقام بدمشق، وفي ذلك الوقت نظم ألفيته في النحو، وبعد ذلك انتقل إلى مصر، فأقام بها إلى أن تُوفِّي ـ رحمه الله ـ يوم الاثنين في آخر يوم من ذي القعدة، ودفن يوم الثلاثاء أوّل يوم من ذي الحجة بالقَرَافة، سنة ثَمانٍ وعشرين وستِّمائة، وكان مُبرِّزاً في علم الأدب قادراً على النظم للعلوم، نظم الألفية، ونظم العروض، وشرع في نظم كتاب (الصحاح) للجوهري فتوفي قبل إتمامه، ونظم كتاب الجمهرة لابن دريد في اللغة، وله كتاب نظم فيه شرح أبيات سيبويه، وله قصيدة في القراءات السبع، ومن وقف على تصانيفه عَلِمَ غزارة علمه، وقوَّة فهمه وجودة طبعه، وفصاحة نظمه. انظر: الشاطبي، إبراهيم بن موسى (ت:790هـ): المقاصد الشّافية في شَرح الخُلاصة الكافية، الجزء الأول بتحقيق: عبدالرحمن ابن سليمان العُثيمين، جامعة أمّ القرى، مكة المكرمة، 2007م، ج1، ص25، 26؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج2، 344.

35- يقول أبو إسحاق الشاطبي في (المقاصد الشافية، ج1، ص24): "وألفية ابن معط مشهورة بأيدي الناس، وهي ذات محاسن من تقريب المرام للأفهام وعذوبة المَسَاق، وسهولة الحفظ، والبيان بالمُثُل مع قلة الحشو، مع أنها مؤذنة بفصاحة صاحبها، شاهدة له بجَوْدة القريحة، وسعة العلم" وقد حظيت باهتمام كبير خلال القرنين السابع والثامن الهجريين حيث تناولها نحاة كثيرون يدرسونها، ويقومون بشرحها وتفصيلها، ومن أولئك: ابن الخباز (ت:627هـ)، والشريشي (ت:685هـ)، وعبدالعزيز الموصلي (ت:696هـ)، ومحمود بن يعقوب الدمشقي (ت:718هـ). وقد طبعت ألفية ابن معط في ليبزيج عام 1895م، بتحقيق: المستشرق السويدي ك.ف.سترستين

وصدرت الطبعة الثانية في ليبزيج عام 1900م ــ 1317هـ بتحقيق سترستين أيضاً إلا أنه اعتمد فيها على مخطوطات برلين والأسكوريال وليدن، مع ترجمة هولندية وتعليقات.

36- لقد طبعت ألفية ابن مالك لأول مرة في باريس عام 1833م، بتحقيق وشرح: سلفستر دي ساسي مع ترجمة إلى الفرنسية، وبعد ذلك توالت الطبعات في بولاق والمطبعة الأدبية والميمنية والحسينية وغيرها من دور النشر، حتى فاقت طبعاتها عشرين طبعة.

37- الطناحي: محمود محمد: ابن معط وآراؤه النحوية، رسالة ماجستير مرقونة في جامعة القاهرة، ص36.

38- ابن مالك، محمد بن عبدالله (ت:762هـ): متن الألفية، مكتبة دار البيان، دمشق، ط2 1970م، ص9.

39- الشاطبي: المقاصد الشافية، ج1، ص23، 24.

40- د. كريم حسين الخالدي، مناهج التأليف النحوي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1 2007، ص23.

41- د. محمد حسين آل ياسين، مكتبة الحياة، الدراسات اللغوية عند العرب حتى القرن 3هـ بيروت، ص374.

42- د. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، ط3 القاهرة، 1997، ص 181 و182.

43- الرماني النحوي، د. مازن المبارك، ص120 نقلا عن مناهج التأليف النحوي، د. كريم حسين الخالدي، ص 47.

44- د. كريم حسين الخالدي، مناهج التأليف النحوي، ص 81.

45- المرجع نفسه، ص 49.

46- د. عبد العال سالم مكرم، المدرسة النحوية في مصر والشام، ص 141.

47- مقدمة ابن خلدون، ج1، ص 342.

48- مقالات منتخبة، ص 452.

إشكاليات النّحو العربي في الأوساط الجامعية

أ. دليلة صاحبي

جامعة مولود معمري، تيزي- وزو

مقدمة: للنّحو مكانة مهمّة في نفوس العرب المهتمين باللّغة العربية، لِما له من دور فاعل في تقويم الخطأ نطقاً وكتابة، وتعود صعوبة فهم النّحو لدى الكثيرين في مدارسنا وجامعاتنا إلى واقع مناهجه التي أرهقت الطلبة، وتركيز المعلمين على الجانب النظري وإهمالهم للجانب التطبيقي؛ إذ تَشهَد الجامعات ضعفا ملحوظا في أوساط الطلبة في اللّغة العربية؛ ضعفا علميا ووظيفيا في القراءة والكتابة والتعبير والتواصل، وفي تحصيل علوم العربية. وفي هذا الصدد يقول **الباحث الدكتور صالح بلعيد:** "**ونخُص بها أقسام الأدب العربي على اعتبار أنّ حالها أحسن من كلّ أقسام العلوم الإنسانية الأخرى لغويا، كما يفترض في أقسام الأدب أن تكون اللّغة العربية تحصيل حاصل للطالب؛ سليقة سليمة... والكارثة عندما نرى الأقسام المختّصة تعيش الخطأ على عواهنه**"[1] فلم يَسْلَم من هذا الضعف حتّى طلاب الدراسات العليا من المتخصّصين في اللّغة العربيّة وحتّى غير المتخصّصين. **فبنت الشاطئ** تصرّح بأنّ "الطالب كلّما سار خطوة في تعلّم اللّغة العربية زاد جهلا بها ونفورا منها وبخاصة من النّحو العربي، فيمضي في الطريق التعليمي إلى آخر شوط ليتخرج من الجامعة، وهو لا يستطيع إن يكتب خطابا بسيطا بلغة قومه، بل قد يتخصص في دراسة اللّغة العربية حتّى ينال أعلى دراجاتها وهو لا يتقن لسان قوميته"[2] ومادة تخصّصه فلسانهم يلحن، ومعارفهم اللّغوية على المستويات كلّها لا تتناسب وشهاداتهم الجامعية.

إنّ الأزمة قديمة، وهي متجذرة في النظم التعليمية؛ إذ لا يحسن الأستاذ تقديم اللّغة العربية للطالب في مرحلة دراسية مبكرة، بل إن الطرق التقليدية التي يجرى

بها تعليم الطلبة قد تكون منفرة لهم، خاصة عندما ندرك إن هذه الطرق تعتمد على الحفظ والتلقين فقط، ومن هنا فإن الطالب ينتقل من مرحلة لأخرى من دون إن يستوعب المعاني الجمالية في لغته الأم، كما إن تطور العلوم وارتباط هذا الأمر باللّغة الإنجليزية والفرنسية جعلها مقصداً لجموع الطلبة خاصة إنها تمثل طريقهم إلى سوق العمل.

إن هذا الأمر يسهم في تدهور مستوى الطلاب المختصين والذي يؤدي إلى ضعف فادح في مستوى مدرسي العربية في مراحل التعليم العام؛ لأنّ معظم خريجي أقسام اللّغة العربية سيكونون مدرّسين بعد تخرّجهم.

إن المدخل الصحيح لعلاج الظاهرة تكمن في معرفة الأسباب المؤدية لظاهرة الضعف اللّغوي بعامة والضعف في قواعد النّحو – على وجه الخصوص– وتشخيصها وتحديدها بدقة لكي تكون منطلقاً لوضع سبل العلاج للتخفيف من حدة هذه الظاهرة. فما أسباب عزوف وضعف الطلبة في مادة النّحو العربي؟ وما سبل التخفيف من حدة الظاهرة؟

<u>أسباب ضعف الطلبة في النّحو العربي</u>: تعدّدت أسباب ظاهرة ضعف الطلبة في قواعد النّحو العربي، فهناك من يرى إنها نتيجة انتشار العامية وهناك من يرجعها إلى ثنائية اللّغة بين الجامعة والبيت والشارع، ومن الباحثين من يرى إن ضعف الطلبة في النّحو العربي إنما هو بسبب سوء تصميم المناهج الجامعية التي ينقصها عنصر التشويق والارتباط بواقع الطلبة وحياتهم ومتطلباتهم وتأخر أساليب تقويم الطلبة. وهناك من يقول إنها تعود إلى المعلّم وتأهيله وطريقة تدريسه. ومنهم من يرجعها إلى الطالب نفسه وعدم جديته ورغبته. وهناك من يحمّل الإعلام ووسائله المختلفة مسؤولية هذه الظاهرة الخطيرة.

ومن جملة الأسباب التي أراها السبب في التراجع اللّغوي وإلى نفور الطلبة من لغتهم نذكر:

أولا: ضعف التأسيس اللّغوي في مراحل التعليم الأولى: ويتمثّل في قلة اهتمام المعلمين بالأهداف الرئيسة لتدريس العربية أثناء العملية التعليميّة التعلّمية، ومن أهمّها إن يتقن الطالب المهارات اللّغوية المعروفة (القراءة، الكتابة، الاستماع التحدّث)، بالإضافة إلى أساليب وطرق تدريس النّحو التي تنفّر الطلبة من لغتهم فينبغي التركيز في الأساليب على الجانب العملي التطبيقي دون الاعتماد على التجريد والتعسير. فمن المؤسف إن معلمي اللّغة العربية يدرّسون اللّغة العربية بأساليب ممّلة، تنفر الطالب من لغته، وبخاصة في تدريس النّحو العربي الذي أصبح عبئا ثقيلا على الطلبة في الجامعات فقواعد النّحو وضعت لغاية تقويم اللّسان العربي، ليكون ما يكتب وما يقال يتماشى والأحكام النّحويّة. بالإضافة إلى أسباب أخرى تعود إلى المنهاج والمقرر، والمعلم والطالب، والأسرة، والبيئة المدرسية في حدّ ذاتها، وغيرها من المعوقات.

ثانيا: أسباب تعود إلى دراسة الطالب في مرحلة التعليم الجامعي:

أ – طبيعة الدرس النّحوي العربي القائم على نظرية العامل: تعتبر نظرية العامل من أعقد المسائل التي شغلت بال علماء العربية منذ القدم، والذي زاد للمسألة بلة وتعقيدا هو ما يعرف بنظرية العلة والتي أدّت إلى كثرة التعليلات والخلافات والمصطلحات النّحوية والإعرابية ممّا أدى تعقيد النّحو وتعسيره على المتعلمين "بحث النحاة الأوائل في مسائل الخلاف، فأداهم ذلك إلى وضع علل لغوية لكل ما يخالف المألوف، ونتجت عن ذلك ممحاكات نحوية فظيعة، وتعسّف يأباه المنطق، وكان ذلك سببا في التوهّم النّحوي الذي أدى إلى تشعّب المسائل... هذا وغيرها من المسائل التي يكلّ منها الفكر"[3] فأصبح التعليل سمة غالبة على مناهج الدرس النّحوي فما فائدة هذه التعليلات التي زادت من الطين بلة. ومن المجامع التي دعت إلى **تيسير تعليم النّحو وتطوير واقعه في مؤسّسات التعليم الجامعي، مجمع اللّغة العربية السوري**، الذي نظّم ندوة سنة 2002 حول الموضوع، وخرج هذا المؤتمر بالقرارات التالية:

* تبنّي النظرة الشاملة لمفهوم النّحو بين ما هو عملي أو شكلي؛
* التركيز على الجانب التطبيقي وأنشطة الإنتاج اللّغوي؛
* الرّبط بين حاجات المتعلّمين النّحوية وأهداف التعليم؛
* تجاوز التشعّبات والتداخلات وحالات الشذوذ؛
* استخدام طرائق التدريس الأكثر جدوى؛
* الاستخدام المكثّف للوسائل التعليمية؛
* إعادة النظر في أساليب التقويم؛
* تأهيل تربوي للمدرّس.[4]

ب – بناء درس النّحو العربي على الشكل وإهماله للمعنى: فدَرْسُ النّحو يركّز في تحليلاته ودراساته على المبنى دون الالتفات إلى المضمون، ممّا جعله جسدا بلا روح، فلم يُعنى الأساتذة بالدلالة الاجتماعية التي ترتكّز في أساسها على المقام، ممّا أدى إلى الفصل بين علوم العربية وبالخصوص بين علم النّحو وعلم المعاني، فليس من الصواب إن ندرس النّحو على إنه مادة لا تتجاوز النظر في حركات أواخر الكلّم، وحفظ القواعد التي تميّز لنا الجائز من الممتنع من التراكيب اللّغوية، فأرى إن يندرج النّحو ضمن علوم البلاغة وبخاصة علم المعاني، ولا ينبغي الفصل بين الشكل والمضمون، فهما يمثّلان وجهين لعملة واحدة على حدّ تعبير دي سوسير.

ج – طريقة تدريس النّحو في الجامعة التي تقوم على حفظ القواعد والشواهد: إنّ إتّباع الطريقة الإلقائية في التدريس التي تقوم على تلقين المعارف للطلبة وفيها يكون المعلّم هو الصوت الغالب في الدرس– إن لم يكن الوحيد– ممّا جعل دروس النّحو ممّلة روتينية وثقيلة لا تشدّ الطلبة ولا تحفّزهم على الانتفاع بما يقدّم الأستاذ من معلومات، ممّا يؤدي إلى نفور الطلبة من دروس النّحو إذ إن واقع تدريس اللّغة العربية يركّز على تلقين التلاميذ المعلومات، أكثر من تركيزه على استفادة التلاميذ منها. فقواعد النّحو على سبيل المثال وأكثرنا يعلم نفور التلاميذ والناس عموما منها، يجري الاهتمام بتلقينها واستظهارها بصورة روتينية جامدة

أكثر من الاهتمام بتطبيقها ومراعاتها كتابة ونطقا، حتّى إننا قد نجد كثيرا من التلاميذ يحفظون ما يقرّر عليهم من قواعد كاملة بشواهدها ونصوصها، فإذا ما كتبوا أو قرأوا افتقرت قراءاتهم وكتاباتهم للصحة والسلامة اللّغوية.

إن هذه الطريقة التلقينية تنتج لنا طلابا حافظين للقواعد النّحو ومستظهرين لشواهده وليس مستعملين لها في بعدها التداولي الاجتماعي "فاللّغة بالنّسبة للمتكلم معايير تُراعى وبالنسبة للباحث موضوع دراسة وهي بالنسبة للمتكلّم وسيلة حياة في المجتمع، وبالنسبة للباحث وسيلة كشف عن المجتمع"[5]؛ لأنّهم عاجزون على توظيفها في لغتهم. فما الفائدة المرجوّة من إنسان يحفظ على ظهر قلب، ولكنّه لا يستطيع إن يكتب أو يتكلّم بلغة سليمة صحيحة. فينطبق عليهم قول الشاعر:

كَالْعِيسِ فِي البَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَأُ وَالمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ

ومن أجل التقليل من حدّة هذه الظاهرة لا بدّ من دراسة النصوص الأدبية وفهمها وتحليلها وحفظ الأبيات الشعرية وآيات التنزيل الحكيم التي تمثّل ينبوع فصاحة وبلاغة اللّسان العربي.

د – التساهل في تقويم مستوى الطلبة: إن التقويم الحقيقي يهدف إلى وصول الطلبة إلى المستويات المرغوبة في الجانب العقلي والمعرفي، إلاّ أنّنا نجد واقعا مغايرا تماما لمفهوم التقويم في الجامعة الذي أصبح ميسّرا للنجاح لمَن يستحق ولمَن لا يستحق النجاح مِن الطلبة فتخرّج من الجامعة من لا يستطيع إن يقرأ ولا إن يقيم فقرة من غير أخطاء، فأصبح التساهل والسكوت عن الخطأ أمرا عاديا لا يثير أية إشكالية.

هـ – قلّة تكليف الطلبة بكتابة البحوث والمقالات في موضوعات ومُقرَرات اللّغة العربية: إن اعتماد كتاب واحد في تدريس المقرر، ممّا يجعل الطلاّب حافظين وليسوا باحثين، مع إن الذي يكتبه الطالب بنفسه يبقى عالقا في ذهنه، وأما الذي يلقنه فسرعان ما ينساه، وقد يتخرج الطالب وهو لا يستطيع كتابة بحث صغير، أو حتّى طلب خطي يتقدم به إلى المؤسّسات التعليميّة بهدف طلب العمل.

ففي الحرم الجامعي نجد الطالب بعيدا عن المكتبة، وبعضهم لا يكاد يعرفها أو يتعامل معها؛ لأنّه اعتمد على الكتاب المقرَر والمطبوعات التي يقدّمها الأستاذ فحسب. فيا حبّذا إن تكون نصف درجة أعمال السنة مخصّصة لأبحاث جادة ومقالات مثمرة يُكلّف بها الطالب قصد تكوين طالب جامعي باحث وكاتب ومفكر وأديب؛ لأن أسلوب التلقين لا يخرج طلاّبا مبدعين، وإنما يخرج طلاّبا حافظين.

ممّا سبق نستخلص إن هناك أربع صعوبات تكتنف الدرس النّحوي في الجامعة وهي:

1 – صعوبات ذات الصلة بأستاذ مادة النّحو: المعلّم هو العنصر الذي يمارس فعل التعليم؛ إذ يمكنه أن يصنع الكثير من أجل تحقيق الأهداف التربوية عن طريق بذل الجهد وتهيئة الوسائل وتشجيع المتعلّمين[6] يُعتبر الأستاذ محور العملية التعليمية، فهو المسؤول الأول في نجاحها أو فشلها. والملاحظ على أساتذة الجامعة أنّهم لا يملكون أساسيات التدريس وهذا في أساسه يعود إلى نقص الخبرة والتكوين في المجال، لهذا يلجأ إلى الطرائق التقليدية في تقديمه للدرس من إلقاء وإلزام الطالب بالحفظ والاستظهار. فالعديد من الأساتذة تغيب عنهم الغاية من تدريس النّحو ظنّا منهم إن النّحو يقتصر على الإعراب دون إدراك للمعنى؛

2 – صعوبات ذات الصلة بالطالب: هو العنصر الذي تقع عليه العملية بكل مقوماتها وعناصرها فالمتعلم هو العنصر الذي تدور حوله عملية التعلّم، وترتكّز عليه، وهو من أجله أُنشئت المدرسة[7] إنّ بعض طلاب الجامعات يجدون صعوبة في التحدث باللّغة العربية الفصحى، بسبب قلّة الممارسة تحدثاً وكتابة؛ بحيث إنّ الطالب يتحدث العامية معظم الوقت ونادراً ما يضطّر إلى التحدّث بالفصحى بعد التحاقه بالجامعة. أما الكتابة فإنّه قلّما يضطّر إلى الكتابة باللّغة العربية، فاللّغة الأجنبية تكاد أن تكون هي اللّغة الحصرية والرئيسة للتراسل الإلكتروني إنْ لم تكن الوحيدة للدراسة الجامعية.

هذا من ناحية الأسباب العملية، ولكن علينا ألاّ نغفل العامل الاجتماعي، والثقافة السائدة في جيل الشباب التي ترى في إتقان اللّغة الأجنبية مضاداً لإتقان العربية فإذا كانت إجادة اللّغة الأجنبيّة من مظاهر الحداثة والعصرنة، فغالباً ما يتم ذلك على حساب إهمال اللّغة العربية مع العلم بأن إتقان اللغتين يجب أن يتمّ بالتوازي وليس بالتضاد. أضف إلى كون الطالب ينفر من مادة النّحو فيجد الطالب نفسه أمام موضوعات نحوية متعدّدة يعتريها الكثير من التجريد والتعقيد. فالشغل الشاغل للطالب الحصول على النقطة بأقلّ جهد ممكن، والحصول على عمل بعد التخرّج لا الحصول على مستوى معرفي راق.

إنّ أغلب الطلاب، لا يتحدثون حتّى اللّغة العامية، وليس الفصحى فقط بين بعضهم بعضاً، والسبب ينبع من الأسرة؛ لأنّها أصبحت تعتبر أن نطق ابنها باللّغة الأجنبية يعدّ شكلا من أشكال العبقريّة، ومدعاة للفخر، ودليل الأسرة المتحضرة كأنّ اللّغة العربية باتت رداءً بالياً يجب خلعه.

ومن جهة أخرى أوضح أنّ جميع الطلبة في مؤسسات التعليم العالي يدرسون اللّغة العربية ضمن متطلبات الجامعة الأساسية، ولكن ماذا تفيد الدراسة بالفصحى ويتخرج الطالب من الجامعة، وهو يتقنها ثم لا يجد في المجتمع ما يعزز من قدرته على استخدامها؛ بحيث يتعامل المجتمع بلهجات محلية متباينة وبالتالي يتراجع دورها في المجتمع لمصلحة العامية.

3 – صعوبات تتعلّق بالمادة: تتميّز المادة النّحوية بالتجريد فهي تحتاج في استيعابها إلى إعمال الفكر واستخدامها حتّى تترسّخ في الذهن، وقد يعود ذلك إلى اللّغة التي كتب بها النّحو العربي، ضف إلى ذلك تعدّد المدارس النّحوية وتعدد مصطلحاتها، ومسائلها الخلافية. من دون أن ننسى نظرية العامل والعلة التي تحدثنا عليها فيما سبق والتي أدت إلى كثرة أبواب النّحو وتفريعاتها.

4 – صعوبات تتعلّق بالمنهاج: إنّ المحتوى المقدم للطالب في مادة النّحو لا يأخذ بعين الاعتبار مستوى الطالب ولا يتماشى واحتياجاته التعليميّة، معتمدا على

الطرائق التقليدية في التعليم مستبعدا في ذلك الطرائق الحديثة كالتواصلية والبنوية وهي تركّز على التنظير دون التطبيق.[8]

ممّا تقدّم يمكننا أن نلخّص واقع تعلي النّحو فيما يلي:

إنّ النّحو لا يعني مجرد العلم بالإعراب والبناء في الكلام، ولا مجرد ضبط أواخر الكلمات، بل يمتّد إلى المعاني والوظائف؛

فقدان أو ضعف أثر النّحو فيما يقوله الطلاّب أو يكتبونه؛

ضعف الحصيلة المعرفية المُستوعَبة لدى طلابنا بقواعد النّحو وكلّياته، فضلا عن العجز عن مهاراتها، وتوظيفها؛

برودة العلاقة بين الطلبة والنّحو المتمثّلة في شكاوي الطلبة، وتذمّرهم من مقرّرات اللّغة العربية، ومن معلّميها؛

شعور الطلبة أنّ ما يدرسونه بعيد عن مشاعرهم، وبمعزل عن عواطفهم وبغربته عنهم، وكأنّه علم من كوكب آخر؛

شعور الطلبة بالملل، وانتشار التثاؤب وغيبوبة الطلاب عن الدرس إما بالنوم وإما برحلة ذهنية بعيدا عن الدّرس والفصل؛

غياب وضعف التذوق في دراسة النّحو وتدريسه، وغياب الذوق في التمييز بين المعاني؛

التركيز على الجوانب الصورية في تعليم النّحو وعدم استخدامها في إبداء الآراء والدفاع عنها، وغيرها من وسائل التبادل والتراسل والتهاتف؛

إهمال عنصر الدّلالة إذ طغت الوظائف النّحوية من فاعل ومفعول، وتمييز... على المعاني النّحوية؛

تدريس النّحو مفصولا عن علوم العربية ونصوصها الإبداعية، وتُدرَّس بدون الالتفات إلى المهارات والقدرات، وتوظيفه في حياة المتعلّم ولغته.

فالواقع الحالي لمناهج النّحو يحتاج إلى معلم كفء يفهم ويدرك مواطن الضعف والقوة في مناهج النّحو الحالية ؛ لأن المعلم يعد حجر الزاوية للعملية التربوية والتعليمية، لذلك تسعى الدول والمجتمعات إلى إعادة النظر في برامج إعداد المعلمين ووجد اتجاه لاعتماد برامج إعداد قائمة على الكفايات، ويقصد بالكفاية: ما

يظهره معلم اللّغة العربية من قدرات وأساليب معرفية وأدائية يمكن ملاحظتها في أثناء تدريس درس النّحو. كما لا نغفل غياب جانب التشويق في الموضوعات المقرّرة أو التي يختارها الأستاذ.

توصيات ومقترحات: أما بالنسبة إلى الخطوات التي أقترحها من أجل إتقان اللّغة العربية الفصحى عامة لدى طلبة الجامعات فهي:

إعادة النظر في مناهج اللّغة العربية المقدمة للطلبة، وأساليب التدريس المستخدمة، وضرورة إعداد معلميها إعداداً يواكب العصر؛ بحيث يتمكن المعلم من إحداث المواءمة المطلوبة بين اللّغة العربية وفصاحتها وكذلك ضرورة توظيف التقنيات المتطورة في عملية تدريسها؛

الحرص على أن تأخذ الدراسة في الجامعة بنموذج متطور جداً ينبع من رسالة الجامعة التي تنصّ على صقل شخصية الطلاب والطالبات وترسيخ انتماءهم لهويتهم الوطنية، وموروثهم الثقافي من اللّغة العربية والحضارة العربية الإسلامية وبالتالي يتخرج الطلبة من الجامعة وهم على إلمام كامل وكفاءة عالية في اللّغة العربية؛

الاهتمام باللّغة العربية من الصفوف الأولى حتى يكبر الطالب وهو متقن لمهارات القراءة والكتابة، وذلك من خلال المنهج الدراسي والقراءة الخارجية؛

تخصيص علامات ودرجات مرتفعة لمادة النّحو على غرار المواد الأخرى فلّغة العلامات هي أرقى اللّغات التي يفهمها الطالب، فهي السبيل الوحيد لإعادة المتعلّم إلى لغة أجداده وآبائه؛

القراءة هي الدواء الناجع لعلاج ضعف الطلبة؛ فتقوية لغتهم تكون من خلال قراءة الشعر العربي والقصص والروايات، ففيها جانب ممتع ومفيد يساعد على إتقان اللّغة العربية من خلال بعض المبادرات في الجامعة مثل النوادي الأدبيّة والأنشطة الطلابيّة، فهناك قاعدة معروفة تقول إنه **(لا أحد يبدع بتخصصه إلا بلغته الأم) و**ضرورة أن يملك الطلبة زمام المبادرة في اقتراح أفكار وتنفيذ أنشطة بدعم من إدارة الجامعة؛

إصدار قرار وطني سياسي يعيد للعربية قوتها واعتبارها وهيبتها في الجامعات ولا بدّ إن يكون إتقان العربية شرطا للتوظيف في المؤسّسات التعليمية التعلّمية؛

تفعيل المجامع واتّحاد المجامع والمجالس العليا ومؤسّسات ترقية اللّغة العربية في أن تلعب دورها العلمي التطبيقي؛

توسيع نطاق الإصلاحات التربوية وعلى نطاق يشمل المرحلة الجامعية؛

سنّ قوانين صارمة تفرض الالتزام باللّغة العربية في المحيط المدرسي والجامعي بين المعلّمين والتلاميذ والمديرين وبين أولياء التلاميذ.

خاتمة: وفي الأخير لا يسعني إلاّ أن أقول إنّ الغاية نبيلة وكبيرة، وعملية التدريس ليست بالشيء الهيّن، والطريق طويل يحتاج إلى تضافر الجهود الصادقة والمخلصة من المربين والمعلّمين والمشرفين التربويين والأساتذة أصحاب العلم والخبرة للارتقاء بمستوى التدريس في بلادنا بدعم من الجهات المعنيّة بالتعليم والتربية لتُؤتيّ الجهود أكلها وعندئذ يمكن أن تنتهي أزمة التعليم ليس فقط على مستواه العام، بل العالي؛ لأنّ المعاناة هي نفسها، فمعا من أجل غد أفضل ومشرق.

الهوامش:

1 – صالح بلعيد، ضعف اللّغة العربية في الجامعات الجزائرية. الجزائر: 2009، دار هومه ص10.

2– ينظر: مقدمة (بحوث ندوة ظاهرة الضعف اللّغوي في المرحلة الجامعية). الرياض: 1997 منشورات جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية المنعقدة أيام: 17 – 19 أكتوبر 1995، المجلد الثالث، ص17.

3 – صالح بلعيد "شكوى مدرّس النّحو من مادة النّحو" مجلة المجلس الأعلى للّغة العربية. الجزائر: 2001، ص424 –425.

4 – صالح بلعيد، مقالات لغوية. الجزائر: 2004، دار هومه، ص 222 ــ 223.

5 – تمام حسّان، اللّغة العربية معناها ومبناها، ط4. القاهرة: 2004، عالم الكتب، ص32.

6 – نوارة بوعياد "واقع اللّغة العربية في ظل الظواهر السوسيولسانية – الخطاب التعليمي الجامعي – أنموذجا مجلة مخبر الممارسات اللّغوية، ج1. الجزائر: 2012، ص236.

7 – المرجع نفسه، ص237.

8 – ينظر: نسيمة حمّار، رسالة ماجستير، إشكالية تعليم مادة النّحو العربي في الجامعة جامعة بجاية نموذجا، جامعة تيزي وزو: 2009 – 2010.

وسائل تيسير قواعد النّحو العربي لتلاميذ المرحلة الابتدائية
-الشّعر التّعليمي أنموذجا-

أ. حدة روباش
جامعة مولود معمري، تيزي-وزو

مقدّمة: مثّل الشّعر العربي في العصر الجاهلي روح الأمة العربية، ومتنفس أبنائها للتّعبير عما يجول في خواطرهم، ويقضّ مضاجعهم، والأهم من هذا كلّه أنّه كان ديوانها الّذي أرّخ لتاريخها العظيم وهويتها، وكان أهمّ مصدر لحفظ اللّغة العربية قبل نزول القرآن الكريم، في وقت لم يهتمّ العربيّ بالتّدوين وكان كلّ شيء تقريبا يتمّ مشافهة؛ وهذا الدّور لم ينقطع بعد مجيء الإسلام؛ وإّنما تطوّر وصار أداة للدّفاع عن الدّين الجديد، ونشر قيمه السامية.

وبعد أن انتشر الإسلام خارج بقاع الجزيرة العربية، ودخله الأعاجم، حدث اختلاط واحتكاك بين العرب وغيرهم، وهنا طرأ ما لم يكن في الحسبان؛ وهو شيوع اللّحن وفساد الألسنة.؛ فهبّ العلماء الأجلاّء للبحث عن علاج لهذا الدّاء، فألّفوا الكتب الّتي تساعد العربي وغيره على التّكلم بفصاحة واجتناب اللّحن، ثم بعد ذلك؛ ولأنّ السّليقة لم تبق كما كانت، صارت الشّكوى من صعوبة تلك القواعد في حدّ ذاتها؛ فانبرى العلماء مرّة أخرى للبحث عن طريقة لتيسيرها، فاهتدوا إلى فكرة المنظومات النّحوية، أو ما يعرف بالمتون الشّعرية، ليسهل على متعلّم اللّغة حفظ تلك القواعد.

وبالرّغم من تلك الجهود الّتي بذلت قديما وحديثا، والحبر الّذي سال في هذه المسألة، مازالت الشّكاوى مستمرّة، وصرخات المتعلّمين ترتفع يوما بعد يوم للتّيسير، وازدادت الهوة بين اللّغة وأصحابها الفعليين، حتىّ اختلط الحابل بالنابل

ولم يعد المتأمّل لهذه اللّغة الجميلة ونحوها يفهم من دعواهم أيريدون التّيسير أم التّدمير؟ وهل أضحى النّحو العربيّ وحشا أمام نحو اللّغات الأخرى؟ وهل النّحو هو المشكلة أم نحن الّذين نبحث عن السّهل، ونرمي تراثا عريقا وراء ظهورنا بدعوى الصّعوبة والتّعقيد؟

وفي رأيي، يجب أن تتكاثف الجهود للبحث عن الحلّ الأمثل، ويجب أن ننطلق من البدايات الأولى للمتعلّم؛ ولذلك اخترت تلاميذ المرحلة الابتدائية، لأنّنا لو انطلقنا معهم انطلاقة جيّدة وحبَّبنا ليس النّحو فقط، وإنّما اللّغة كلّها إلى قلوبهم، فلن نعاني في المراحل التّالية من تعليمهم، وسينشأ جيل محب للغته، ومتفوق في اللّغات الأخرى، فمن لا ماضي له لا مستقبل أمامه.

ومن الوسائل الّتي أراها تخدم هذا الهدف **الشّعر التّعليمي.**

كيف ذلك؟ ولماذا الشّعر التّعليمي بالذات؟ هذا ما سأحاول الإجابة عنه في هذا البحث. بعد أن أتطرّق إلى مفهوم النّحو، والتّيسير والشّعر التّعليمي؛ حتّى يفهم الموضوع بطريقة جيّدة.

أولا- مفهوم النّحو وأسباب نشأته:

1) مفهومه:

أ- لغة: يعرّفه ابن منظور في معجمه لسان العرب بقوله: "**الأزهري:** النّحو إعراب الكلام العربي. والنّحو: القصد والطّريق، يكون ظرفا ويكون اسما، نحاه ينحوه وينحاه نحوا وانتحاه، ونحو العربية منه... وهو في الأصل مصدر شائع أي نحوت نحوا، كقولك قصدت قصدا، ثم خصّ به انتحاء هذا القبيل من العلم. ابن السّكيت: نحا نحوه إذا قصده، ونحا الشيء وينحوه إذا حرّفه، ومنه سمي النّحوي لأنه يحرف الكلام إلى وجوه الإعراب"[1]

ب- اصطلاحا: عرّف ابن جني النّحو بقوله "انتحاء سمت كلام العرب، في تصرّفه من إعراب وغيره كالتّثنية والجمع والتّحقير، والتّكسير والإضافة، والنّسب والتّركيب، وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شد بعضهم عنها رد به إليها"[2].

ومن هذا التّعريف نستطيع أن نستخلص الدّور الأساس للنّحو، ألا وهو التّصحيح لمن أخطأ في النّطق السّليم. وإعانته على التّكلم وفق سمت كلام العرب.

ويجب أن نعلم أن النّحو العربي لا يقتصر على الحركات في أواخر الكلمات – كما يفهم الكثيرون– فهذه الأخيرة مظهر من مظاهره فقط، وفائدة هذه الحركات ضبط الكلمة وتحديد موقعها من الإعراب، وهذا بدوره يساعد على فهم المعنى والتحكم في توزيع الألفاظ في الجملة.

2) أسباب نشأته: إنّ أول باعث لنشأة النّحو العربي هو اللّحن في اللّغة العربية، وأشدّ منه ما تفشّى في القرآن الكريم، سواء في الجزيرة العربية، أو عند من وفد إليها من الأعاجم، وحتى عند أولئك الذين ذهبوا لفتح الأمصار وبقوا هناك أو الذين ذهبوا للتجارة... فكان لزاما على العلماء وحتّى المسؤولين التّصدي لهذه الظّاهرة الخطيرة في أسرع وقت، ومن هنا بدأ التّأليف في هذا المجال، وتطوّر عبر العصور، وهذا دليل على قيمة اللّغة العربية، ولن أذكر هنا الروايات المختلفة لنشأته، فليس هذا موضعها، لكن أذكر قولا لعمر بن عبد العزيز للتّمثيل، قال: "إنّ الرّجل ليكلّمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فأردّه عنها، وكأنّي أقضم حبّ الرّمان الحامض لبغضي استماع اللّحن، ويكلّمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب فأجيبه إليها التذاذا لما أسمع من كلامه"[3].

ثانيا– تيسير النّحو:

1) مفهومه: هو تبسيط الصّورة الّتي تعرض فيها القواعد على المتعلّم؛ أي التّبسيط في كيفية تعليم النّحو لا في النّحو نفسه، لأنّه علم محض، ولا يعقل حذف بعض قوانينه وعلله. لأنّنا إذا قلنا أنّ التّيسير للنّحو في حدّ ذاته فهذا معناه حذف أبواب منه، وهذا يؤدّي إلى نتيجة عكسية لأننا بالتّالي سنحذف اللّغة المتّصلة بتلك الأبواب.

وقبل أن أكمل أشير إلى أن النّحو العلمي ليس هو النّحو التّعليمي، فالأوّل يختصّ به العلماء الّذين يدرسون اللّغة في حدّ ذاتها، ويتابعون تطوراتها عبر التّاريخ؛ أمّا النّحو التّعليمي، وهو الّذي أتحدّث عن تيسير قواعده في عرضي هذا، فهو الموجه إلى الفئة المتعلّمة، والّذي يقصد منه تلقينها قواعده لاستعمالها في تقويم الألسنة.

ويجب علينا أن نفرق بين اللّسان والنّحو، وفي هذا الصّدد نذكر ابن خلدون حيث تحدث عن الملكة وفرق بينها وبين صناعة العربية، أي تعليم قواعد العربية فقال متحدثا عن الملكة أولا: "اعلم أنّ اللّغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن مقصوده. وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام. فلا بدّ أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللّسان"[4] ثم عرّف لنا صناعة العربية فقال: "والسّبب في ذلك أنّ صناعة العربية إنّما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها الخاصّة، فهو علم بكيفية، لا نفس كيفية؛ فليست نفس الملكة، وإنّما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصّنائع علما، ولا يحكمها عملا"[5]

إذن فالتّيسير يجب أن يُوجه إلى طرق تدريس النّحو، فهو تابع للّغة ليس إلاّ والنّحاة عندما وضعوا النّحو لم يخترعوه، بل استنبطوه من اللّغة العربية الّتي جمعوها.

2) دواعيه: إنّ الدّعوات لتيسير النّحو العربي ليست وليدة اليوم، لكنّها ظهرت مع انتهاء العلماء من تقعيده، حيث بدأت الشكاوى تصبّ عليهم، وبدأ التّذمر مما حوته تلك الكتب من صعوبة وهنا كان على العلماء أن يقوموا بعمل مضاعف لشرح وتيسير النّحو العربي.

ومن الطّرق الّتي استعملوها نظم القواعد في منظومات نحوية تمتاز بالسهولة والقدرة على حفظها دونما أي عناء، وبعد ذلك جاءت الشّروحات والتّيسيرات لتلك المنظومات أيضا، والمقصود هنا أنّ التّيسير ليس جديدا على علوم العربية.

ومن مظاهر التّيسير أيضا دعوات ابن مضاء إلى إلغاء نظرية العامل، وإن اختلف تيسيره هنا فهو في هذه الحالة يدعو إلى تيسير النّحو وليس إلى تيسير تعليم النحو.

ومن المعاصرين الذين كان لهم باع في هذا المجال، بغضّ النّظر عن اختلاف الرؤى والوسائل شوقي ضيف، إبراهيم مصطفى، علي الجارم وغيرهم كثيرون منهم من أصاب ومنهم من أخطأ.

ثالثا- توظيف الشّعر التّعليمي في تيسير النّحو: كما قلنا سابقا يعدّ الشّعر التّعليمي أو ما اصطلح عليه قديما بالمنظومات أحد الوسائل التي استعين بها لتيسير النّحو، وإن كانت أحيانا قد صعّبته ولم تيسره على رأي بعض العلماء، لذلك أردت أن أبحث عن طريقة تعيد لها بريقها بين المتعلمين، وخاصة تلاميذ المرحلة الابتدائية، ولكن بعيدا عن المواصفات التقليدية التي نفرت منها العديد من المتعلّمين.

1- مفهوم الشّعر:

1- أ – تعريف الشّعر:

لغة: جاء في لسان العرب: "شعر: شَعَرَ به وشَعُرَ يشعُرُ شِعْرا وشَعْرا وشِعْرَة ومَشْعُورَة وشُعُورا وشُعُورَة وشِعْرَى ومَشْعُورَاء ومَشْعُورا، كلّه: عَلِمَ. وليت شعري أي ليت علمي، قال سيبويه: ليت شعرتي، فحذفوا التاء مع الإضافة للكثرة. وتقول للرجل: استشعر خشية الله، أي اجعله شعار قلبك. واستشعر فلان الخوف إذا أضمره. وأَشْعَرَهُ فلان شرا: غشيه به. ويقال: أشعره الحبُّ مرضا. والشِّعْرُ: منظوم القول، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية"[6].

وجاء في كتاب العين: "والشِّعر: القريض المحدَّد بعلامات لا يجاوزها، وسمّي شعرا، لأنّ الشّعر يفطن له بما لا يفطن له غيره من معانيه. ويقولون: شعر شاعر أي: جيد، كما تقول: سبي ساب وطريق سالك، وإنما هو شعر مشعور"[7]

وهذا في المعاجم القديمة، أمّا الحديثة فنأخذ على سبيل المثال معجم (الرّائد) الّذي عرّف الشّعر كما يلي: "الشِّعر: ج: أشعار، مص: شَعَر وشعُر: الكلام الموزون المقفّى القائم على العاطفة والخيال والنّغم والجرس والعقل تنساب في البيت أو القصيدة في تجانس إيقاعي عذب. كلّ نوع من أنواع الشّعر (الشّعر الغنائي، الشّعر الحكمي) وغير ذلك من أنواع الشّعر كالقصصي، الملحمي، الغنائي التّمثيلي، المسرحي، والتّعليمي"[8] والشّعر التّعليمي من بين هذه الأنواع هو موضوع البحث.

اصطلاحا: قبل أن أذكر مفهوم الشّعر عند العرب، أودّ أن أشير إلى تعريف لطيف عرّفه به اليونانيون، الّشعر: "مركبة يجرّها زوجان من الخيول المطهّمة* هما: المخيلة والشّعور، يسيّرها رجل حكيم هو العقل قد خرج من مخدعه، وهو قلبه، متّحدا اتّحادا أثيريا بشعور آخر هو النّغمة الّتي نسمّيها وزنا، وقد ركبا أجنحة الألفاظ ليطيرا معا مرفرفين رفرفة الفراش الجميل على زهر الّرياض فيصلا إلى الأسماع بعد أن يحدثا في طريقهما أمواجا خفيفة في الهواء، ومنها إلى مخادع أخر هن قلوب أصحاب تلك الأسماع، ويثيرا ما هنالك من الإحساسات الراقدة"[9].

وعرّفه قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشّعر كما يلي: "قول موزون ومقفّى يدلّ على معنى: فقولنا: (قول) دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشّعر وقولنا (موزون) يفصله مما ليس بموزون إذا كان من القول موزون وغير موزون، وقولنا (مقفىّ) فصل بين ما له من الكلام الموزون قواف وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع، وقولنا (يدل على معنى) يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى، فإنه لو أراد مريد أن يعمل من ذلك شيئا على هذه الجهة لأمكنه وما تعذر عليه."[10]

وقدامة هنا يعطينا حدود الشعر المتمثّلة في الوزن والقافية والدلالة على معنى.

وأضاف ابن رشيق في العمدة ما مفاده: "إنّما الشّعر ما أطرب، وهزّ النّفوس وحرّك الطّباع فهذا هو باب الشّعر الّذي وضع له، وبني عليه، لا ما سواه."[11]

1 – ب– الفرق بين الشّعر والنّظم: نستطيع من خلال التّعريفات السّابقة أن نستخلص الفرق بين الشّعر والنّظم؛ ففي حين يمتاز الشّعر بالعاطفة والخيال والصّورة، يخلو النّظم من هذه العناصر، مقتصرا على النّغم الموسيقي. ويقول عمر فروخ وهو يفرّق بين النّظم والشّعر: "أمّا النّظم فهو الكلام الموزون المقفّى. فإذا امتاز النّظم بجودة المعاني وتخيّر الألفاظ ودقّة التّعبير ومتانة السّبك وحسن الخيال مع التّأثير في النّفس فهو الشّعر. لأنّ الشّعر حقيقته ما خلب العقل واستولى على العاطفة واستهوى النفس. من أجل ذلك قال العرب الجاهلية عن القرآن إنه

شعر وعن رسول الله إنّه شاعر. والعرب الجاهليون لم يقصدوا أنّ القرآن كلام موزون مقفّى، بل نظروا إلى شدّة أثره في النفس فقالوا عنه ما قالوا."[12]

2 – الشّعر التّعليمي:

2–أ– مفهومه: الشّعر التّعليمي لون من الشّعر يمزج بين العلم والفن والعقل والخيال، ويحاول أن يقدّم الخبرات والتأملات في قصائد ذات حسّ غنائي، ويعتبر قسما من أقسام الشّعر الكبرى وهو الشّعر الذي من خلاله يتم عرض علم من العلوم ويخلو من عنصري العاطفة والخيال ويسمى عند العرب بالنظم. أو المنظومات، كألفية ابن مالك النّحوية، وألفية السيوطي وابن معطٍ ويسمى أيضا المتون الشّعرية، وإن كان هناك من يفرق بين الشّعر التّعليمي والمتون، فيرى أن الأول "شامل للكل بينما شعر المتون مختص بشيئين فقط هما:

أ) قصائد المعاني: وهي القصائد التي تنظم لبيان المعاني المتعددة للفظ واحد أو لتقديم معلومات حول قضية بعينها، وهذا من باب التّعليم بالمثال.

ب) قصائد ينظم فيها أصحابها قواعد هذا العلم أو ذاك مما نجده منشورا في الكتب دون نظم وهذا من باب التّعليم بالقاعدة، وهدفه من وراء ذلك تسهيل حفظها على الدّارسين."[13]

أما الميادين التي عمل الشعر التعليمي على تيسيرها، فهي: أصول الأخلاق والعقائد، السير والتاريخ، والحقائق والمعارف المتصلة بالعلوم والفنون والصناعات.

إذا نستطيع أن نقول أن المتون الشعرية أو المنظومات، أو لنقل حتى القصائد تدخل كلها تحت مسمى الشعر التعليمي ما دام الغرض منها تعليميا بالدرجة الأولى وهذه التسمية الأخيرة هي ما اخترت لخفتها وقربها من أذهان المتعلمين في العصر الحالي، ولأنه يشمل حتى القصائد التعليمية الممزوجة بالعاطفة على غرار القصائد الجافة، حيث أردت من ذلك تبيين كيف أن بعض التعديلات والتيسيرات الجديدة على طريقة نظم تلك المتون والأشعار وإدخال بعض العاطفة قد تسهم في تيسير النحو العربي لدى التلاميذ، والقضاء على نفورهم من هذه المادة.

2-ب- نشأته: ظهر الشعر التعليمي عند العرب في القرن الثاني الهجري حيث كانت الحاجة إليه في الجانب التعليمي هي ما دفعهم إلى التأليف فيه، وذلك تيسيرا للعلوم المختلفة والكثيرة التي ظهرت في ذلك الوقت، حتى يسهل على المتعلمين الإلمام بها، وحفظ ما تيسر من قواعدها بسهولة وبطريقة مشوقة تجذب ولا تنفر.

وكغيره من العلوم، تباينت الآراء حول ما إذ كان هذا العلم عربيا أصيلا، أم وفد مع الثقافات الأجنبية، وفي رأيي أن هذا الأمر لا يهم، فإذا لم يكن عربيا أصيلا فهذا لا ينقص من عظمة العقل العربي قيد أنملة، وإن كان كذلك فهذا ليس بالغريب على أمة كان الشعر روحها وعقلها.

ادعى بعض العلماء أن هذا اللون من الشعر غريب على ثقافتنا العربية، وقالوا أن العرب تأثروا بالثقافات الأخرى في مجال الشعر التعليمي، كالثقافتين الهندية واليونانية على سبيل المثال؛ من هؤلاء أحمد أمين، مصطفى هدارة؛ هذا الأخير الذي يعلل هذا التأثير فيقول: "فأي الثقافة اليونانية أم الهندية؟ بل كلتا الثقافتين قد اتصلت بالفكر العربي اتصالا وثيقا كما بينا، ولكن اتصال العرب بالأدب الهندي كان أوثق بكثير من اتصالهم بالأدب اليوناني، لأن أدب الهنود أقرب إلى الطبيعة بما فيه من أساطير وأسمار وحكايات. ثم إن علوم الهند التي كانت متقدمة فيها أو تنفرد بها، مثل الفلك والحساب وغيرهما، كانت سببا في توثيق العلاقة بين الثقافتين العربية والهندية أيضا، هذا بالإضافة إلى تأثير الشعراء المولدين الذين هم من أصل هندي وتأثير عملية المزج بين الجنسين على وجه العموم، وما يترتب عليها من آثار مختلفة.

نحن نميل إذن إلى إقرار هذا التأثير الهندي في نشأة الفن التعليمي في الشعر العربي"[14]

لكن في رأيي الخاص، الشعر العربي التعليمي خالص النشأة، لأنه شبيه بالأراجيز العربية التي كانت تنظم حينذاك، ولا نستكثر على العقل الذي فتح بلدانا

وأمصارا، ونشر أعظم دين في البقاع الأخرى، أن يبتكر طريقة يسهل بها تلقين العلوم.

ومن المناصرين لأصالة هذا اللون الشعري شوقي ضيف، حيث يرى أن الشعر التعليمي عربي خالص النشأة، يقول: "نحن إذن بإزاء متون تؤلف لا بإزاء أشعار تصاغ ويعبر بها أصحابها عن حاجاتهم الوجدانية أو العقلية، فقد تطور الشعر العربي، وأصبحت الأرجوزة منه خاصة تؤلَّف من أجل حاجة المدرسة اللغوية وما تريده من الشواهد والأمثال. والأرجوزة الأموية من هذه الناحية تعد أول شعر تعليمي ظهر في اللغة العربية."[15] فشوقي هنا يرى أن الشعر التعليمي تطور عن الشعر العربي بسبب تطور الأغراض. وليس وافدا مع العلوم الأجنبية.

ويرى وائل أبو صالح "أن فكرة تأثر الشعري التعليمي بالشعر اليوناني ما هي إلا فكرة المستشرقين الذين استكثروا أن ينسب لهذه الأمة أي عمل مجيد، فقد قالوا من قبل بتأثر النحو العربي منذ نشأته بالفلسفة اليونانية، والمنطق الأرسطي وتأثر الموشحات الأندلسية بشعر يهود إسبانيا"[16].

يؤرخ العلماء لظهور أول شعر تعليمي بالعصر الجاهلي، ومن أشهر الشعراء الذين نظموا فيه زهير بن أبي سلمى و أمية بن الصلت وغيرهما كثير، نظموا في شتى المجالات.

من الأمثلة على ذلك ما نظمه عدي بن زيد في قصة آدم وحواء وهبوطهما من الجنة، حيث يقول[17]:

اسمعْ حَدِيثًا كمَا يَومًا تحَدِّثُــهُ ... عنْ ظهرِ غيبٍ إذا مَا سَائِلٌ سَأَلا

أنْ كيف أبْدى إلهُ الخلقِ نِعْمَتهُ ... فِينا، وعَرَّفنا آيَاتِــــــه الأُوَلا

كانَتْ رِيَاحٌ وماءٌ ذو عَرَانِيَــة ... وظلمةٌ لمْ تدَعْ فتْــقًا ولا خَلَلا

وأبَسط الأرضَ بَسْطًا ثمّ قدّرَهَا ... تحت السمَاءِ سَواءً مِثلَ ما فعَلا

ويرى شوقي ضيف أن هذا الفن كانت بدايته الحقيقية مع رؤبة بن العجاج في العصر الأموي يقول في ذلك: "والأرجوزة الأموية من هذه الناحية تعد أول شعر

تعليمي ظهر في اللغة العربية. ولعل في هذا ما يدل على المكان الذي ينبغي أن توضع فيه أو الذي وضعت فيه فعلا، فمكانها صحف العلماء من مثل يونس وأبي عمرو بن العلاء، يتعلمونها، ويعلمونها الناس، وينقلونها إلى أذهانهم وينقشونها في عقولهم، ليدلوا بها على مدى علمهم في اللغة، ومعرفتهم بألفاظها المستعملة والمهملة."[18]

لكن أشعار رؤبة والعجاج وإن عدها العلماء أول شعر تعليمي، فهي ليست بذاك المعنى حقيقة لأنها وجهت إلى علماء اللغة وليس إلى المتعلمين.

أما المنظومات النحوية فقد ظهرت في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري وفي هذه الفترة شهد النحو اكتماله على يد علماء البصرة والكوفة، وكان السبب الأساس لنظمها تفشي اللحن بشدة فجاءت تيسيرا له ولتعلم قواعده التي يستقيم بها اللسان.

ومهما احتوت تلك المنظومات على سلبيات، لا يجب علينا استهجانها، فيكفيها أن لها باعا طويلا في نشر العلم على مر الأزمان؛ والأجدر بنا أن نبحث عن وسائل لتطويرها، واستغلالها في وقت ازدادت فيه الهوة بين اللغة ومتكلميها اتساعا.

رابعا- المشاكل والاقتراحات: إن المتأمل في لغة الأطفال اليوم، يجد كوارث يندى لها الجبين فإن كان المتعلمون قديما يشكون من بعض الصعوبات في فهم القواعد، فاليوم الصعوبات تتجاوز ذلك الأمر. خاصة أنّ العربية لم يعد لها ذلك البريق الذي عرفناه ونحن صغار، كما أنها أصبحت ثقيلة على متعلميها حتى صاروا ينتظرون لحظة الخلاص منها كمن ينتظر الخلاص من الموت.

والملاحظ في الآونة الأخيرة أنه أضحى لدينا تلاميذ لا يتكلمون اللغة العربية حتى في القسم وهم وإن تعلموا بعض التراكيب الصحيحة نحويا، فإنها ستندثر بتعلم لغة الشارع. وهناك فئة تجيد القواعد، وتستطيع أن تعرب دون ارتكاب أي خطأ لكن لا تستطيع توظيف تلك القواعد في الاستعمال، والذي هو دورها الأساس.

ومن أهم الأسباب التي أدت لذلك، أن الطفل قبل المدرسة يتكلم العامية ويتعامل بها في جميع المواقف؛ فإذا ما التحق بالمدرسة وجد لغة جديدة، ونحوا جديدا، فينفر من اللغة ونحوها وصرفها.

والمشكلة الثانية تتمثل في معلم اللغة، الذي لا يبحث عن طرق ييسر بها تعليم اللغة العربية لتلاميذه وجل المعلمين نجدهم يجترون الطرق القديمة، وعذرهم في ذلك التقيد بالمنهاج؛ لكن هذا ليس عذرا فيجب عليهم وسريعا أن يجدوا منفذا ولو من خلال ذلك المنهاج لإحداث تغيير، لأننا مسؤولون جميعا أمام الله، وأمام أمتنا عن هذا الوضع.

أما المشكلة الثالثة فهي عدم مراعاة المستويات، فنعلم الطفل أشياء لا يستطيع استيعابها أو فهم سبب تعلمه إياها، علما أن قواعد النحو عقلية بحتة، أما المرحلة التي يمر بها تلميذ المرحلة الابتدائية فهي مرحلة خيال ليس إلا.

حلا لتلك الصعوبات، وتيسيرا لتعليم قواعد النحو على التلاميذ، ولا أقصد هنا الإعراب فقط، فلا ننسى قواعد الصرف، وكيفية تركيب الجمل بطريقة جيدة كما قلت سابقا؛ أقترح بعض الحلول، التي تنم عن خبرة متواضعة جدا، لكن ربما تكون فعالة:

1- من الأحسن نظم القواعد النحوية على شكل أشعار بسيطة في ألفاظها متناسبة مع عمر الأطفال وإدراكهم؛ فالطفل غير الراشد، فلكل طريقته في التعلم والأطفال سريعو الحفظ، وعلينا استغلال هذه الموهبة فيهم.

2- بما أن للطفل عالما خاصا، يرسمه بلغة غير لغتنا، علينا إدخال عنصر التشويق والخيال على تلك الأشعار، لأن التجريد يقتل حب اللغة عند الطفل، وينفره منها.

3- إسناد هذا الأمر إلى شعراء متميزين، ومتمكنين من اللغة العربية ونحوها ومتمكنين خاصة من الكتابة للطفل في هذه السن.

4- إضافة إلى علماء اللغة، يجب الاستفادة من خبرات علماء نفسانيين يعرفون ما يتماشى واحتياجات الطفل، وخبراء في التنمية اللغوية.

5- تقديم المنظوم على شكل يستطيع الطفل إنشاده، والتغني به، وحتى إن لم يفهم مضمونه فلا يجب تأنيبه، لأنه مستقبلا عندما تتسع مداركه سيفهمه دون حاجة إلى متعلم، والمهم أن تكون الأنشودة سهلة، ومشوقة، وطريقة تأليفها تسهل حفظها.

6- من الممكن أيضا جعل ذلك المنظوم يؤدى على شكل مسرحيات، يحفظها الأطفال ويؤدونها في القسم، وبذلك تترسخ لديهم المعلومات المطلوبة، ويجدون أنفسهم يتكلمون عربية فصيحة، سهلة وبذلك نكون قد حققنا هدفين معا؛ تعليم العربية وقواعدها، واستمتاع الطفل بما يتعلم.

7- تكوين معلمين أكفاء، يجمعون بين حب التراث، والاطلاع الواسع على النظريات الحديثة والقدرة على توظيفها في تحقيق الأهداف المرجوة، ويفهمون متطلبات مرحلة الطفولة، وخصائصها.

8- والأهم من كل ما سبق، علينا استغلال موهبتي الحفظ والمحاكاة عند الطفل في هذا السن لنعلمه نطق عربية صحيحة، وذلك بتعليمه القواعد بطريقة غير مباشرة، أي ندع مصطلحات القواعد إلى المرحلة التي يصبح عقله قادرا على استيعابها.

خاتمة: تعد الجهود التي بذلها علماؤنا قديما وحديثا في حفظ اللغة العربية واستنباط قواعد تمكن المتعلمين من تفادي الخطأ، والتكلم بفصاحة جهودا جبارة تنم عن عقلية فذة، وتعكس واقع مجتمع كان اهتمامه بلغته واجبا مقدسا.

لذا وجب علينا اليوم، وتقديرا لتلك الجهود، أن نكمل المشوار، ولا نزدري ما فعلوه، وإن كانت اللغة هناك مشاكل فيجب أن نذللها، لا أن نتخذها عذرا لهجر لغتنا، ورفض نحوها.

وتحقيقا لذلك يجب أن نفهم أن:

– النحو العربي تراث عريق، وأمانة تركها القدماء لنا، جاء لخدمة اللغة العربية والحفاظ على أصولها؛ فيجب علينا أن نحافظ عليه؛

– الهدف من تدريس النحو ليس حفظ القواعد بالذات حفظا صما، بل كيفية تطبيقها بطريقة سهلة لتحقيق الفائدة المرجوة؛

– تيسير النحو لا يعني البتة إلغاء جزء منه، لأن هذا يعد أولا تدميرا لا تيسيرا، وثانيا لأنه مساس بلغة القرآن الكريم؛

– هناك وسائل عدة لتيسير تعليم النحو العربي للناشئة، وتحبيبه إلى نفوسهم من هذه الوسائل الشعر التعليمي، الذي إذا وجد الاهتمام الجيد، فسيكون أداة فعالة في أيدينا.

وفي الأخير أقول، نحونا ليس بدعا، فكل لغة لها نحوها؛ وما من أمة سعت لإلغاء نحوها، فلا يجب أن نكون نحن بدعا بين الأمم.

قائمة المراجع:

---

1 – محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، ط1. القاهرة: دت. دار المعارف، مج6، مادة نحا، ص4371.

2 – سليمان سالم علي باقشع، ابن جني وجهوده اللغوية والنحوية، بحث ماجستير، إشراف: عبد الغني حيدر كلية العلوم الإدارية والإنسانية لغة عربية، الجمهورية اليمنية، العام الجامعي: 2006 ص40.

3– يحياوي حفيظة، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، الجزائر: 2011، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، ص159.

4 – عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدّمة، ط1. بيروت: 2004، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص712.

5 – المرجع نفسه، ص 729

6 – ابن منظور، لسان العرب، مج4، ص2273–2274.

7 – الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وإبرهيم السامرائي، دط. دب: دت، ج1، ص251.

8 – جبران مسعود، الرائد معجم لغوي معاصر، ط7. بيروت: 1992، دار العلم للملايين ص474.

9 – إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، ط1. بيروت: 1991، دار الكتب العلمية، ص276.

* الخيول المطهمة هي الخيول الكاملة الأوصاف.

10 – فريدة مقلاتي، نظرية الشعر عند ابن رشيق القيرواني، مذكرة ماجستير، إشراف محمد زرمان، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر باتنة الجزائر: 2008–2009م، ص53.

11– أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط1. دب:ـــ1981م، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ج1 ص128.

12 – عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ط4. بيروت: 1981، دار العلم للملايين، ج1، ص44–45.

13 – حكمة اللطفي، الإيجاز في الشعر التعليمي الصوفي لزين الدين المليباري، بحث مقدم للحصول على الدرجة الجامعية الأولى، إشراف: أ.م.هداية الله، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية جاكرتا: 2009م، ص31.

14 – ياسر إبراهيم محمود علي الأحمد، شعر المتون في التراث العربي من القرن الهجري الثاني حتى نهاية القرن الهجري الرابع دراسة في الموضوعات والأساليب، بحث الماجستير، إشراف يحيى عبد الرؤوف جبر، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، 2006م، ص08.

15 – محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دط. القاهرة: دار المعارف، 1963، ص 355.

16 – إبراهيم محمود علي الأحمد، شعر المتون في التراث العربي من القرن الهجري الثاني حتى نهاية القرن الهجري الرابع دراسة في الموضوعات والأساليب، ص10.

17 – فادي صقر أحمد عصيدة، جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي، بحث ماجستير إشراف وائل أبو صالح كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين: 2006، ص147.

18 – شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر التعليمي، ط08. دب: دت، دار المعارف ص319.

نظريةُ العامل النّحوي أحقيقة لغوية أم فلسفة نحوية؟ وصلتها بالنظرية التوليدية التحويلية.

أ. يوسف بن خويا

جامعة سيدي بلعباس

تمهيد: إنّ لكلّ لغة نظامُها الخاص بها، كلٌّ لغة تسير وفق نمط معين يتماشى مع طبيعتها، إنها كالكائنات الحيّة كلٌّ نسيج وحده، كالكائنات الحيّة في تغير مُستمر عبر الزمن.

فاللّغة العربية كبقية اللغات لها نظامُها الخاص بها على جميع المستويات، وما يهُمنا في بحثنا هذا هو المستوى التركيبي.

يُعد المستوى التركيبي من أكثر المستويات اللغوية تعقيدا، وذلك في كل لغة؛ فمن السّهل على مُتعلم اللغة إحكام نظام المستوى الصّوتي، الصّرفي، المعجمي، إلا أنه من الصُّعوبة إحكام نظام المستوى التركيبي القائم على إقران المحور الأفقي مع المحور العمودي.

قام التفسير العربي النحوي القديم للمستوى التركيبي على نظرية تُعد – على حد تعبير أحدهم – العمود الفقري للدّرس اللغوي القديم، إنها نظريةُ العامل النحوي والتي دار حولها جدل كبير ما بين مؤيد ومعارض.

رأى العلماء القُدامى أن الكلمة تأخذ حركة إعرابية معينة في الجملة، فقالوا إنّ هذه

الحركة إنما هي نتيجة لمُؤثر ما، أطلقوا على هذا المُؤثر اسم العامل؛ الذي يُعد في نظرهم سبب تواجد الأثر الإعرابي، فهل كل حركة إعرابية ناتجة بفعل عامل ما؟

عندما بحثنا عن الإجابة في هذه الإشكالية بين دفّات الكتب وجدنا أنفسنا في صراع ما بين مؤيد لفكرة العامل ومُعارض لها، فكان هذا الجدل دافعا لنا للبحث عن حقيقة نظرية العامل النحوي أهي فعلا حقيقة لغوية أم مُجرد فلسفة نحوية لا أساس لها من الصّحة؟ وما موقع هذه النظرية ضمن نظريات البحث اللّساني الحديث؟

من وراء كل بحث هدف منشود يسعى الباحث إلى تحقيقه، وهدفنا من وراء هذه الدراسة المتواضعة هو الإجابة عن تلك الإشكالية التي جعلنا منها عنوانا لبحثنا هذا والتي سبق لنا ذكرها.

ولا شك أن الغاية من وراء دراستنا، هو محاولة تحقيق نتائج موضوعيه بعيدة عن الذاتية.

إنّ الهدف من وراء ذلك هو بيان حال النظرية في ضوء الرُّؤى القديمة والحديثة.

لذلك ابتدأنا بعرض مفهوم نظرية العامل النحوي ثم انتقلنا إلى تاريخ هذه النظرية وأنهينا مرحلتنا هاته بوضع نظرية العامل النّحوي في الميزان النقدي.

وقد اقتضت الإجابة عن الشّق الآخر من الإشكالية بيان حقيقة نظرية العامل النحوي في ضوء النظريات الحديثة حيث انتقينا من بين كل النظريات اللّسانية النظرية التوليدية التحويلية لمُلامستها المباشرة لنظرية العامل النحوي؛ ذلك أنّ النظرية التوليدية التحويلية فضلا عن كونها نظرية تُركّز على الجانب النّحوي فإنها

نظرية تتميز بالشمولية؛ فهي لا تقتصر على تفسير أو دراسة الجانب الشّكلي للغة بل تتجاوز ذلك إلى البنية الداخلية له، وسنستشف العلاقة الوطيدة التي تجمع هــذه النظرية بنظرية العامل النحوي.

قراءة في العنوان – نسج فرضيات– : إنّ نظرية العامل النحوي من القضــايا الجدلية التي تناولها العديد من الدّارسين، وما يجدُر بنا ذكره هو أنّ القــدامى لــم يدرسوا هذه النظرية كقضية، بل درسوا فكرة العامل كحقيقة مُفترضه منــذ عهــد الخليل بن أحمد الفراهيدي، فصنّفوا فيها عدّة كتب نذكر منها:

– كتاب العوامل، "لابن معطي الزّواوي الجزائري".

– "العوامل في النحو"، لأبي علي الفارسي المتوفى سنة 377 هــ".

– "العوامل في النحو"، لعلي بن فضال المجاشعي القيرواني المتوفى سنة 479 هــ."

– "العوامل المائة في النحو"، لعبد القاهر بن عبد الرحمان الجر جاني المتوفى سنة 471 هــ" .

–"المصباح في النحو"، للإمام ناصر الدين بن عبد السيد المطــرزي النحــوي 610 هــ."[1]

والمتأمّل في أمهات الكتب اللغوية والنحوية يُدرك مدى إيمان معظــم علمائنــا القدامى بهذه النظرية والتي لم تُقابل برفض إلا من لدن ابن مضّاء الأندلسي الــذي رفض فكرة العامل أساسا وقدم حججا وبراهين تُبطل هذه النظرية، وظهــر مــن الدّارسين المحدثين من يؤيد رأي ابن مُضاء الأندلسي، وفي مُقابل ذلك ظهر مــن يدعم هذه النظرية، ويعدها العمود الفقري الذي تدور حوله الكثير من أبحاث النحو

الرئيسة والفرعية.

من أجل ذلك قام هذا البحث، فإذا كان هناك فعلا عاملا مؤثرا في الحركة الأخيرة للكلمة كلما اتخذت موقعا معينا في الجملة، فهذا يعني أنّ العامل حقيقة نابعة من عُمق اللغة ونظامها، لأن اللغة باتحاد مستوياتها وفق نظام معين تُسهم في هذا التأثير لذلك ربطنا العامل في تساؤلنا باللغة فقلنا: أحقيقة لغوية؟

أمّا إذا كان العامل ليس بحقيقة، فلا شك أنه يدخل في نطاق اجتهاد النُّحاة والاجتهاد في العادة يكون نابعا من العقل والمنطق الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالفلسفة، لذلك قلنا في تساؤلنا: أم فلسفة نحويه؟.

يُقال إن الفلسفة أمُّ العلوم، والكثير من العلوم ابتدأت كفكرة ساذجة ومع مرور الزمن تطورت تلك الفكرة وأصبحت نظرية علميه مُجسده على أرض الواقع، ماذا لو أنّ فكرة العامل التي ابتدأت كفرضيه، افترضها علماؤُنا القدامى لها أساس من الصّحة؟ أو أنّ ذلك العامل المُفترض موجود حقيقة وله تأثير إلا أنه ليس على نحو ما تصوره القدامى، بل بصورة جديدة منبعها نظام اللغة، خاصّة وأن العرب الفصحاء قديما كانوا يتحدثون باللغة العربية سليقة، واللغة بشكلها المعقد تجعل العقل يستبعد أحيانا فكرة العُرف؛ أي أن قوما ما تواضعوا على أن يكون الفاعل مرفوعا، والمفعول منصوبا، فالتواضع على تسمية والمحافظة عليها أمر سهل أما التواضع على تركيب معين والمحافظة عليه أمر صعب، فما بالك بتراكيب وتراكيب، فلو كان من السّهل الالتزام بما تواضعنا عليه، لسهُل علينا تعلمُ اللغات الأخرى، مادامت مسألة اللغة وإدراك مستوياتها وقوانينها بهذه البساطة.

حتى نصل إلى الهدف المرجو من هذا البحث، قرّرنا أن لا نغفل الصّلة التي

تربط نظرية العامل بالنظريات الأخرى؛ لأن هذه النظريـــة لهـــا ارتبـــاط وثيـــق بالنظريات اللغوية المتعلقة بأصل اللغة والنظريات اللسانية الحديثة أيضا.

مفهوم نظرية العامل النحوي:

يقول النُّحاة: إنّ أية ظاهرة من ظواهر الإعراب في الكلمة (رفعا، أو نصبا، أو جرّا، أو جزما، تكون ناتجة بفعل مُؤثر عمل فيها فأكسبها تلك الظاهرة[2].

وبالتالي نُلخّص مفهوم هذه النظرية في أنه ما من حالة إعرابية للكلمة إلا وهي نتيجة لمؤثر ما. سَمى النحاة هذا المؤثر بالعامل؛ باعتباره الذي قام بالعمل وسُمي المؤثر عليه بالمعمول.

فإذا كانت الحالة الإعرابية ناتجة عن مؤثر ما، فما طبيعة هذا المؤثر، لقد كان للنحاة تصورا للعامل لخصه الدكتور محمد عيد في ثلاثة أمور هي كالآتي:

أ ~ العامل مؤثر حقيقة؛ إنه سبب وعلة للعمل: إنّ هذا مشهور وشائع في كتب النحو، ويوضح هذا ما يقوله "الصبّان" تعليقا على ما نقله "الأشموني" على شـــرح التسهيل من أنّ(الإعراب ما جيء به لبيان مُقتضى العامل، فالعامل "كجاء، ورأى والباء" والمُقتضى "الفاعلية، والمفعولية، والإضافة" والإعراب الـــذي يبـــين هـــذا المُقتضى" الرفع، والنصب، والجر.)[3]

لقد ذهب أكثر النحويين إلى أن العامل هو الكلمات أو المعاني، فالكلمة تحمـــل في طياتها قدرة على التأثير في كلمة أخرى أو عدة كلمات؛ فتُحدث فيها الرفـــع أو النّصب أو الجرّ أو الجزم، فإذا قلنا مثلا: (ذهب زيد) فإن: (ذهب) نفسُها هي التي أحدثت الرفع في (زيد) وهي التي اجتلبت العلامة الإعرابية فيها وهي الضمة.)[4]

وقد لا يكون العامل كلمة من الكلمات، بل معنى من المعاني يُدرك بالقلـــب ولا

ينطق به، فالمعنى عندهم له قدرة أيضا على إيجاد الحالة الإعرابية، والعلامة الدالة عليها، كما هو الحال مثلا في الابتداء الذي يرفع المبتدأ، فإذا قلنا مثلا:

(المؤمنُ صادق) فإن: الابتداء هو الذي رفع كلمة (المؤمنُ) وهو الذي اجتلب العلامة الإعرابية فيها وهي الضمة، هذا هو المفهوم البصري الشائع في كتب النحو.)[5]

عدّ النُّحاة العامل شخصية لها اعتباراتُها المُلزمة (فدونوا له شروطا وأحكاما هي عندهم فلسفة النّحو وسرُّ العربية جمعها إبراهيم مصطفى في كتابه "إحياء النحو" بقدر ما يشرح لنا أصول نظرياتهم في العامل.)[6]

وقد اتفق جمهور النحويين من بصريين وكوفيين على اعتماد العوامل النحوية وإن كانت مُثار خلاف بين الفريقين، كما اتفقوا على قسمتها إلى ضربين لفظي ومعنوي.

فالعوامل اللفظية عند الفريقين ثلاثة أنواع: أفعال، وأسماء، وحروف، أما العوامل المعنوية فهي عند الكوفيين أكثر عددا منها عند البصريين.

قال "عبد القاهر الجرجاني" في كتابه "العوامل المائة": العوامل في النحو مائة عامل، وهي تنقسم إلى قسمين: لفظية ومعنوية؛ واللفظية تنقسم إلى قسمين سمعية وقياسية.

العوامل اللفظية السماعية: هي ما سُمعت عن العرب، ولا يُقاس عليها غيرُها كحروف الجر، والحروف المشبّهة بالفعل، مثلا فإن الباء وأخواتُها تجرُّ الاسم فليس لك أن تتجاوزها وتقيسَ عليها غيرُها.

والعوامل اللّفظية القياسية: هي ما سُمعت عن العرب ويُقاس عليها غيرُها

وتفسير هذا المعنى أنه سُمع لها أمثلة مُطّردة وصلت إلى بناء قاعدة كلية في ذلك النّوع من العوامل، فكلُّ ما يصدُق عليه تلك القاعدة، يُطلق عليه اسم العامل اللفظي القياسي.

وأمّا العوامل المعنوية فإنها معنى من المعاني لا نُطق فيه، وهو معنى يُعرف بالقلب ليس للّفظ فيه حظ.)[7]

ب- العامل أمارة وعلامة فقط: يقول "ابن الأنباري" في ذلك: (العوامل اللفظية ليست مُؤثرة في المعمول حقيقة، وإنما هي أمارات وعلامات، فإذا ثبت أن العوامل في محل الإجماع هي أمارات وعلامات، فالعلامة تكون بعدم الشيء كما تكون بوجود شيء... وإذا ثبت هذا جاز أن يكون التّعري من العوامل اللفظية عاملا)[8] فالعامل في هذا المقام ما هو إلا إشارة إلى العمل، لكنه غير مؤثر بنفسه.

ج - ما أُطلق عليه اسم العامل؛ لا عمل له إطلاقا إلا أن وجوده ضروري للتمهيد للعامل الحقيقي، والعامل الحقيقي هو المتكلم.

ووضُح هذا الرأي عند ابن جني بقوله: ألا تراك إذا قلت "ضرب سعيد جعفرا" فإن "ضرب" لم تعمل في الحقيقة شيئا، وهل تحصلُ من قولك "ضرب" إلا على اللفظ بالضاد، والراء، والباء على صورة "فعل" فهذا هو الصوت، والصوت مما لا يجوز أن يكون منسوبا إليه الفعل، فأما في الحقيقة ومحصول الحديث، فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسُه لا لشيء غيره، وإنما قالوا لفظي ومعنوي، لما ظهرت آثار فعل المتكلم بمُضامّة اللفظ للفظ أو باشتمال المعنى على اللفظ.)[9]

شرح النظرية: وضّح الأستاذ "عبد الرحمان الحاج صـــالح" مفهـــوم العامـــل والمعمول عند النحاة فقال: ينطلق النحاة العرب في هذا المستوى من أقل ما يمكن أن ينطق به من الكلام المفيد مما هو أكثر من لفظة وذلك مثل: زيد منطلق. وهذا قد يجيء ككلام مفيد ويتألف من لفظتين، ثم يختبرون هذا التركيب بزيادة ما يمكن زيادته مع بقاء هذه النواة وذلك مثل:

/	زيد	منطلق
إن	زيدا	منطلق
كان	زيد	منطلقا
حسبت	زيدا	منطلقا
أعلمت خالدا	زيدا	منطلقا
1	2	3

فكل هذه التراكيب هي محمولة بعضها على بعض وهي متكافئة من حيث كونها تتضمن نواة واحدة وهي الأصل – لعدم دخول أية زيادة عليه – وتتفـــرع عليهـــا الفروع بهذه العملية التحويلية التي هي زيادة الزوائد، وعند ذلك يتضح لهم أن هذا الجدول هو في الحقيقة قياس، وحد، ومثال، ويتبين بهذا المثال التركيبي أن الزوائد على الواحدة التركيبية تؤثر لفظيا ودلاليا على ما تدخل عليه بـــاختلاف الإعـــراب فيما يخصُّ اللفظ ومعان زائدة لم تكن موجودة في النواة، وعلـــى هـــذا الأســـاس اعتبروا هذه الزيادة المؤثرة عاملا وما يؤثر فيه معمولا، ولاحظوا أيضا أن أحـــد المعمولين لا يمكن أن يتقدم على عامله، وهو الذي لا يستغني عنه العامل فســـماه "الخليل" و"سيبويه" المعمول الأول. فيكون العامل مع هذا المعمول زوجـــا مرتبـــا.

أما الأصل الذي لا زيادة فيه، فالعامل فيه هو الخلو من العامل اللفظي؛ وهو على أي حال عامل – أشرنا إليه بالعلامة العدمية– وهو ما يسمى عندهم بالابتداء والمبتدأ هو المعمول الأول لهذا النوع من العوامل. فهذا الذي اكتشفوه ثم نظّروُه بهذه الكيفية يمكن أن يُصاغ صياغة رياضية، ثم إنّ كل واحد من هذه الوحدات هي كيان مجرد؛ لأن العامل شيء ومحتواه شيء آخر، فقد يكون العامل كلمة واحدة – ولا يكون أبدا مورفيما مركبا في كلمة – مثل: "إن" و"كان"، وقد يكون لفظة مثل (حسبت) وقد يكون تركيبا بأكمله مثل "أعلمت خالدا"، وهكذا هو الأمر بالنسبة للمعمول الأول والثاني.

وقد تظهر معمولات أخرى غير هذين وهي في الواقع زوائد تركيبية تدخل على العامل ومعموليه، وتخرج كما هو الشأن في الزوائد التي تُزاد في مستوى اللفظة، فهي مُخصصات من حيث الدلالة وهي جميع المفاعيل إلا المفعول به – فهو دائما معمول ثان – والحال والتمييز وغير ذلك مما لا يدخل كجزء في الوحدة التركيبية الصغرى، وقد رمزنا إلى كل هذه العناصر وعلاقتها بالرموز التالية:

[(ع ⟵ م1) +م2] + خ

بحيث: ع: العمل، والسهم يدل تقديم العامل على معموله الأول، وهما يُكوّنان بما يسمى في الرياضيات الحديثة بالزوج المُرتّب.

- م1: المعمول الأول، م2: المعمول الثاني.
- خ: ⟵ المخصص: التركيب الواجب.
- القوسان يجمعان الزوج المرتب، أما المعقوفتان فللوحدة التركيبية الصغرى.

إذا العامل مفهوم ذهني لتفسير ظاهرة لغوية؛ هي علاقة كلمة بكلمة داخل الجملة؛ في هذه العلاقة تم تصنيف الكلمات إلى عوامل ومعمولات، أو متأثرات وعلى ذلك حين وجد سيبويه بعض الكلمات منصوبة أو مرفوعة دون وجود عامل ظاهر في السياق، كان لا بد له من افتراض عامل محذوف أو مُضمر كما في أساليب النداء والقسم والاختصاص.

إن نظرية العامل النحوي تفسير على مستوى البنية السطحية والبنية العميقة للشكل اللغوي.

تاريخ نظرية العامل النحوي: يقول "حسن عباس": استقر في رأي النحاة أن الحركات الإعرابية وما يتصل بها إنما هي أثر لمؤثر أوجدها، متأثرين في ذلك بما يقرر في العقائد الدينية ومجالات علم الكلام من أن لكل حادث مُحدث، ولكل مُوجد موجد، ولا يصح ذهنيا مخلوقا بغير خالق ولا مصنوع بدون صانع.

والمتفحص للكلمات التي استخدمها النحاة القدامى عند تعبيرهم عن العامل، من خلال حديثهم عن التأثير والتأثر، والوجود والعدم يؤيد رأي "حسن عباس" في أن نظرية العامل النحوي نشأت في كنف الجو العقلي العام الذي كان يحيط بالنحو.

إن أقدم المصادر التي تشير إلى نظرية العامل النحوي هو كتاب سيبويه الذي يقول فيه: عن الحرف المشبه بالفعل؛ زعم الخليل أنها عملت عملين: الرفع والنصب، كما عملت كان الرفع والنصب حين قلت: "كان أخاك زيد" إلا أنه ليس لك أن تقول: "كأن أخوك عبد الله" تريد_: "كأن عبد الله أخوك" لأنها لا تصرف تصرّف الأفعال، ولا يُضمر فيها للمرفوع كما يُضمر في كان. فمن ثم فرقوا بينهما كما فرقوا بين (ليس) و(ما) فلم يجرُوها مجراها، ولكن قيل هي بمنزلة الأفعال فيما

بعدها وليست بأفعال ممّا يدل على أن فكرة العامل كانت راسخة في ذهن الخليل ولا نستبعد أن يكون الخليل بن أحمد الفراهيدي هو صاحب فكرة العامل لما أوتي من عبقرية – وثقافة لغوية ورياضية واسعة؛ فهو واضعُ علم العروض، وهو الذي طور نقط أبي الأسود الدؤلي وجعلها أبعاض الحروف (الألف، والواو، والياء) وغيرها من الإنجازات التي تعكس عبقريته الفذة.

لقد استقطبت هذه النظرية معظم النحاة القدامى، حيث لا يكاد يخلُ مصنف نحوي من ذكر العامل، بل ألفوا فيها كتبا، وهناك من المحدثين من ألف كتابا حول نظرية العامل النحوي. وقد أشار بعض اللغويين إلى مسألة وجود النظرية في تراثنا اللغوي يقول في ذلك: أغلب الظن أن النظرية موجودة ولكنها تحتاج إلى الكشف عنها؟ فليس من المعقول أن يقوم هذا البناء الضخم في الدرس اللغوي العربي دون نظرية.

إن فكرة العامل هي فكرة عقلية؛ ذلك أن النحو كله "عقل من نقل"[10] وهذا ما جعل البعض من الدارسين المحدثين يعتبرون العامل مجرد فلسفة لا تمت بأي صلة للدراسة اللغوية، فهل النزعة الفلسفية لا تصلح بالفعل للدرس اللغوي؟.

يرى البحث في هذا الصدد أن النزعة الفلسفية التي اتهم بها درسنا اللغوي ضرورة علمية محضة؛ لكون النظرية هي الفرض أو الفروض التي يقدمها العلماء لوصف النظام الذي يدرسونه.

إن خلو العلوم من الافتراض – الذي عيب على اللغويين العرب – مستحيل وغير وارد؛ إذ تصبح مجرد معارف سطحية تقتصر على الظاهر دون استكناه لما وراءه من أنظمة وقوانين.

كما يستلزم خلو العلوم من الافتراض خلوها من النظريات، فليست النظريات أكثر من الفروض النظرية التي يضعها العلماء لوصف الأنظمة وبيانها وتفسيرها.

وإذا كان البحث قد انتهى إلى ضرورة الافتراض في الدرس اللغوي وغيره بناء على أن النظرية تمثل المقابل الذهني التجريدي الذي يقدمه العلماء للأنظمة الواردة في ظواهر اللغة، فإن بعض الباحثين الكبار قد عبر عن ضرورة هذا الافتراض في الدرس اللغوي، وفي الدرس العلمي بصفة عامة.

يقول أحدهم في ذلك فما ضيقنا بالنحو؟ وإنما هو قانون اللغة الذي قُدّر علينا أن نتكلم به. وما جريرة النحاة فيه؟ وما هي إساءتهم إلينا به؟ وهو إنما أخذوه من العربية كما ألفوا أصحابها يتكلمون. أنضيق بفلسفته؟ وكيف وكل شيء من الثقافة اللغوية والدينية قد دخلته الفلسفة، وأثرت فيه وصبغته بصبغتها، وما كان ممكنا أن يسلم منها النحو وحده وإلا كان عجبا من العجب أو تلفيقا من التلفيق يُراد به إخفاء طابع الثقافة وسمة العصور في النحو خاصة.

ولا يلزم العلماء إلا الحرص على مُطابقة فروضهم للأنظمة ما أمكن، (ويمكن التحقق من موافقة النظام من خلال إمكان تفسير أفراد الظاهرة وفق الفرض المقترح؛ أي إذا انطبق الفرض على جميع الأفراد، كان فرضا صحيحا مقابلا للنّظام.)[11]

إنّ نظرية العامل النحوي ليست نظرية فلسفية بل نظرية لغوية قائمة على دراسة وصفية للغة العربية المنطوقة سليقة في فترة معينة.

– **نظرية العامل النحوي بين القبول والرفض:** لقد وقف النحاة طويلا أمام نظرية العامل النحوي، تلك النظرية التي دار حولها جدل ومناقشات وصراع بين

المؤيدين والمعارضين لها فكل فريق له حججه وأدلته؟ لذلك لا يمكننا قبول رأي دون التعرض إلى مخالفه لمعرفة حقيقة الأمر ولب الصراع.

أولا: المؤيدون للنظرية: لقد تبنّى هذه النظرية معظم علمائنا القدامى – كما سلف ذكره – ومن المحدثين أيضا من دعّم هذه النظرية ودافع عنها نذكر من هؤلاء:

– علي النّجدي ناصف في كتابه: "من قضايا اللغة والنحو"

– د / داود عبده في كتابه: "أبحاث في اللغة العربية "

– أ . د / محمد عبد العزيز عبد الدّايم في كتابه: "النظرية اللغوية في التراث العربي."

– عبدُه الرّاجحي في كتابه: "النحو العربي والدرس الحديث."

– عبد الرحمان الحاج صالح في كتابه: "دراسات وبحوث في اللسانيات العربية."

– طاهر سليمان حمودة في كتابه: "ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي."

– د / حسن خميس الملخ في كتابه: "نظرية الأصل والفرع في النحو العربي."

– التّواتي بن التّواتي في كتابه: "محاضرات في أصول النحو."

– **رأي الأستاذ علي النّجدي ناصف:** يرى أن التقدير وحي توحي به اللغة نفسُها وضرورة لا غنى عنها للتّعمق فيها، وفقه أسرارها وأن القول بالعوامل اللفظية والمعنوية من قبيل الحقيقة العُرفية بهدف تعليم النحو، ذلك أن التّقدير قائم على مبادئ سليمة وأصول مقررة. كما رأى الأستاذ أن اللغة كالكون لها قوانينها وأسرارها وإن كانت صامتة مغلقة تنتظر من يواصل الجد في استنباط قوانينها

واكتناه أسرارها، وأن التقدير فيها ضرورة لكثرة الإيجاز والحذف.

ويُنهي الأستاذ دفاعه عن التقدير والعامل بالتذكير بأن الذين قدّروا التقدير كانوا هم حفظة اللغة وفقهاءها المنقطعين لها.

– **رأي الأستاذ طاهر سليمان حمودة:** قال: فلسفة التقدير – في النحو العربي ~ تتشابه في جوهرها مع النظرية التحويلية فكلتاهما تصدر عن أساس عقلي والبنية العميقة عند التحويليين هي ~ في الغالب ~ الأصل المُقدر عند النحويين القدماء.

ويرى الدكتور أن ´قضايا الأصلية والفرعية والعامل والتقدير والحذف والزيادة وإعادة الترتيب، والقضايا الثلاث الأخيرة تتدرج تحتها العمليات التحويلية، ولا بد من التسليم بمبدأ الأصلية والفرعية بالإضافة إلى صلتها الوثيقة بالتقدير والعامل»[12].

– **رأي الأستاذ حسن خميس الملخ:** يرى (أن العامل ركن مكين في النظرية النحوية وأنه نظرية تفسيرية تعليمية تُفسر التغير الإعرابي، وتساعد في تعلم النحو الذي نُظر إليه منذ نشأته على أنه أوضح الطرق لوصف اللغة وتعليمها معا، ولا تحتاج العوامل إلى إرادة وطبع حتى تعمل، لأن إسناد العمل إليها هدفه التفسير والتعليم.)[13]

– **رأي الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح:** قال: إن نظرية العامل هي أروع ما أبدعه الخليل بن أحمد وأصحابه ~ رحمهم الله ~ ومن أخطر النظريات التي سيكون لها دور عظيم في تطوير معلوماتنا حول الظواهر اللغوية؟ ذلك أن مفهوم العمل هو المفهوم الدينامي الذي ينبني عليه المستوى التركيبي للغة، فبفضله

يستطيع اللغوي الارتقاء إلى مستوى أكثر تجريدا من المستويات السفلى التي تحتوي على الوحدات الخطابية ومقوماتها القريبة، وهذا هو في الواقع أعمق بكثير من القول بأن مستوى التركيب هو ناتج عن تركيب الوحدات الدالة – التي هي المورفيمات في اصطلاح الغربيين– وأول دليل على ذلك هو إمكانية استغلال مفهوم العامل – وما يترتب عليه من عامل، ومعمول أول، ومعمول ثان، كما فهمه سيبويه– في معالجة النصوص بالحاسب، فنظرية العامل يستطيع اللغوي أن يمثل بها أبسط الكيفيات وأنجعها في التراكيب المعقدة؛ التي تتداخل فيها العناصر اللغوية؛ لأنها تصوغ التركيب في قالب رياضي دقيق، ويرتقي بها من مستوى مادي معقد إلى مستوى صوري مجرد قابل للاستخدام في الحاسبات الالكترونية.)[14]

– **رأي الأستاذ محمد عبد العزيز عبد الدايم:** يقول: (ويرى البحث كون مفهوم العمل، النظرية الأساس وفق تصنيفه للنظريات النحوية. وهو يمثل فعليا نظرية لكونه فرضا وضعه النحاة العرب لتفسير تركيب الجملة المشتمل على كلمات معينة ترد على ترتيب معين؛ إذ افترض النحاة أن الكلمات ترد في الجملة وفق قانون العمل فبعضها يأتي عاملا بمعنى أنه مقتض لغيره، وبعض آخر يرد وفقا لهذا العمل أو الاقتضاء بوروده معمولا. ولا يخفى أن الفرض الذي وضعه النحاة يعكس النظام أو القانون الذي يحكم تركيب الجملة.)[15]

إن نظرية العامل النحوي تستوفي شروط النظرية – الملائمة للظاهرة المُراد تفسيرها والتي وضعها الباحثون في فلسفة العلوم. حيث أجملوها في ثلاثة أمور هي كالآتي:

أ – يتعين أن تكون النظرية في مقولاتها كلها نتيجة منطقية لتحليل الظاهرة المُراد تفسيرها، فيجب أن تكون مشتقة من المعلومة المتضمّنة في الظاهرة كاشتقاق نظرية العامل من ملاحظة ظاهرة التغير الإعرابي في العربية.

ب– ينبغي أن تشتمل النظرية على قوانين عامة مشتقة من الظاهرة المُراد تفسيرُها، يُناط بها إخضاع الظاهرة كلها للضبط من جهة، والتفسير من جهة أخراة، كقول جمهور النُّحاة: إن الأصل في الاسم الإعراب؛ إذ ينتج عن الأخذ به إخضاع الأسماء المبنية غير المعربة إلى تفسير يُثبت انضباطها في القانون النّظري العام للاسم.

ج – على النظرية بكل مقولاتها أن تكون قابلة من حيث المبدأ للاختبار التجريبي أو الملاحظي فمثلا: قول جمهور النُّحاة: (إن الفعل المضارع المتصل اتصالا مباشرا بنون التوكيد الخفيفة أو الثقيلة في محل رفع أو نصب أو جزم قول يمكن اختباره تجريبيا، فحذف حرف التوكيد يظهر علامة الإعراب المناسبة.)[16]

ثانيا: المعارضون للنظرية: مثلما وجد للنظرية مؤيدون وجد لها معارضون إلا أن نسبة المعارضين من القدامى تكاد تؤول إلى الصفر إذا ما قورنت مع نسبة الرفض عند المحدثين.

– **قطرب ت. 206 هـ** : يرى محمد بن المستنير (قطرب) أنه لا قيمة للعامل في الأثر الإعرابي (الحركات الإعرابية) على أواخر الكلم في التركيب الجملي وأنّ هذه الحركات قد كانت بأثر صوتي، ويمكن أن تعلل هذه الحركات تعليلا صوتيا[17]، يقول: «لم يُعرب الكلام للدلالة على المعاني، والفرق بين بعضها وبعض؛ لأننا نجد في كلامهم أسماء متفقة في الإعراب مختلفة المعاني وأسماء

مختلفة في الإعراب متفقة المعاني، فلو كان الإعراب إنما دخل الكلام للفرق بين المعاني، لوجب أن يكون لكل معنى إعراب يدل عليه، ولا يزول إلا بزواله، وإنما أعربت العرب كلامها؛ لأن الاسم في حال الوقف يلزمُه السكون للوقف، فلو جعلوا وصله بالسكون لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل، وهذا مستحيل وينشأ عنه لُبس واشتباه كبيران، فلمّا وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبا للإسكان ليعتدل الكلام. (وهكذا حسب رأيه نشأت الحركات وكان الإعراب.)[18]

– **رأي ابن مضاء الأندلسي: ت592 هـ:** قال في كتابه الرد على النحاة: «قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه، وأُنبّه على ما أجمعوا على الخطأ فيه، فدعا إلى إلغاء نظرية العامل؛ لأن «العوامل النحوية لم يقل بعملها عاقل، لا ألفاظها، ولا معانيها، لأنها لا تفعل بإرادة وطبع، ورفض تقدير المحذوف الذي لا حاجة إلى إظهاره في القول بل هو تام دونه وإن ظهر كان عيبا لأن قولنا: "زيد في الدار" كلام تام مركب من اسمين دالين على معنيين بينهما نسبة وتلك النسبة دلت عليها "في" ولا حاجة بنا إلى غير ذلك.

كما رفض ابن مُضاء تقدير المُضمر (الذي إذا أُظهر تغير الكلام عما كان عليه قبل إظهاره، كالمنادى الذي إذا أظهر فعله تغير الكلام من الإنشاء إلى الخبر.)[19]

واعترض على تقدير الضمائر المستترة لأنها غير موجودة في نص الكلام. ودعا – في نهاية كتابه – إلى إلغاء كل مالا يُفيد نطقا فقال: «ومما يجب أن يسقط من النحو الاختلاف فيما لا يُفيد نطقا كاختلافهم – النُّحاة – في علة رفع الفاعل ونصب المفعول، وسائر ما اختلفوا فيه من العلل الثواني وغيرها مما لا يفيد نُطقا».[20]

– **رأي الأستاذ إبراهيم مصطفى:** رفض الأستاذ نظرية العامل ورأى أنها سبب ´التقدير الصّناعي`؛ وهو ما يُراد به تسوية صناعة الإعراب» (وأنّ النُّحاة أضَاعوا حُكم النَّحو بهذا التقدير والتّوسُّع فيه)[21] وقال: «لن تجد هذه النظرية من بعد سلطانها القديم في النحو ولا سحرها لعقول النحاة، ومن استمسك بها فسوف يحُس ما فيها من تهافت وهلهلة، وستخذُله نفسُه حين يبحث عن العامل في مثل´ التحذير أو الإغراء أو الاختصاص أو النّداء، ثم يرى أنه يبحث عن غير شيء»[22].

يقول الأستاذ عن التقدير: «والمُقدّر في الكلام نوعان: ما يكون قد فُهم من الكلام ودلَّ عليه سياق القول؛ فترى المحذوف جزءا من المعنى كأنك نطقت به وإنما تخففت بحذفه، وآثرت الإيجاز بتركه، وهذا أمر سائغ في كل لغة بل هو في العربية أكثرُ لميلها إلى الإيجاز وإلى التخفيف بحذف ما يُفهم.

– **رأي الأستاذ إبراهيم السامرائي:** يرى أنّ العامل من آثار الفلسفة وقال عن طريقة التفكير بالعامل والمعمول؛ وهذه الطريقة في التفكير النّحوي لا تمُتُّ إلى العلم اللُّغوي بسبب من قريب أو من بعيد؛ وذلك لأنها مُستعارة من علوم أُخراة فجُرّبت في النّحو فكان ما كان من نتائج مفتعلة لا تتصل بالعربية مطلقا. وقال: وإذا عرفنا أن مسألة العامل والعمل أجنبية عن النحو وأنها من اختصاص العقل الفلسفي الذي يُؤمن بالسّبب أو العلة والأثر أو النتيجة أدركنا أنّ القوم في أي متاهة سارُوا".)[23]

– **رأي الأستاذ تمَّام حسَّان:** رفض نظرية العامل وسمّاها خُرافة العمل النّحوي والعوامل النحوية وقال: الحقيقة أنّ لا عامل. إنّ وضع اللغة يجعلها منظمة من الأجهزة، وكل جهاز منها متكامل مع الأجهزة الأخرى، ويتكون من عدد من

الطرق التركيبية المعرفية المرتبطة بالمعاني اللغوية، فكل طريقة تركيبية منها تتجه إلى بيان معنى من المعاني الوظيفية في اللُّغة، فإذا كان الفاعل مرفوعا في النحـــو فلأن العُرف ربط بين فكرتي الفاعلية والرفع دون ما سبب منطقي واضح وكـــان من الجائز جدا أن يكون الفاعل منصوبا والمفعول مرفوعا لو أنّ المُصادفة العُرفية لم تجر على النحو الذي جرت عليه.

(كما رفض التّعليل النّحوي لأنه المسؤول عن خلق نظرية العامل. ويـــرى أنّ التقدير بلية فقال: والتقدير بلية فلسفية ميتافيزيقية ومنطقية ابتلي بها النحو العربـــي ولا زال يبتلى.)[24]

– **نظرية العامل النحوي وعلاقتها بالنظرية التوليدية التحويلية:** أثارت نظرية العامل النحوي في النحو العربي جدليات كبيرة بين النُّحاة قديما وحديثا، وشـــغلت أبوابا من كُتب النّحو لتعلُّقها بالتفسير والتحليل الإعرابي للتركيب النّحوي، ونظرية " تشُومسكي" اللّسانية التي مبدأُها التوليد والتحويل أي كيفية إنتاج الجُمل مع إمكانية تحويل الجُملة من بنية عميقة إلى بنية سطحية، فهذه النظرية تتوجّه إلى الإنســـان صاحب اللغة أوالى ما يُسميه "تشومسكي" بالمُنجز المثـــالي فـــي مُجتمـــع لُغـــوي مُتجانس يعرف لغته معرفة كاملة وهو شرط ضروري، لأن الغاية هـــي محاولـــة الوقوف على القوانين الإنسانية التي تجعل الإنسان يتميز بهذه القـــدرة علـــى أداء اللغة.

(ولبلوغ هذه الأهداف يرفض "تشومسكي" النحو الوصفي الذي يقف عند الوقائع اللغوية ويصفُها كما هي ويُوضح أن هناك جانبين مهمين لفهم اللغـــة الإنســـانية الأول هو الانجاز اللغوي، يمثل ما ينطقه الإنسان فعلا أي البنية السطحية، والثاني

هي الطاقة اللغوية، تمثل عند المتكلم السامع المثالي في البنية العميقة للكلام)[25]

وهذان المصطلحان؛ الطاقة اللغوية والانجاز، يُمثلان حجر الزاوية في النظرية التوليدية التحويلية عند "تشومسكي" لأن الانجاز اللغوي أو السطح يعكس الطاقة اللغوية أي يعكس ما يجري في العُمق من عمليات، إذ اللغة التي تُنطق فعلا إنما تكمن تحتها عمليات عقلية عميقة تختفي وراء الوعي، بل وراء الوعي الباطن أحيانا، ودراسة الانجاز أي البنية السطحية يقدم التفسير الصوتي للغة، ودراسة الطاقة أي البنية العميقة، يقدم التفسير الدّلالي لها، ولعلّنا نصل من فحوى هذا الكلام إلى أنه ثمّة أشياء وأمور خفية تتميز بها النفس البشرية ويجب على الدّارس إن يكتشفها.

ولعلّ من المواطن التي تجمع بين النظريتين هو إن فكرة السطح والعُمق تعيد إلى الذّهن قضية التقدير عند النحاة العرب، وإذا كانت النظرية التوليدية التحويلية تهتم بالجهاز الدّاخلي الذهني للمتكلمين عوض الاهتمام بسلوكهم الفعلي، فإن الأمر كذلك مع نظرية العامل، فهناك من يُرجع مسالة التقدير إلى المتكلم نفسُه كما مرّ معنا، وتلتقي نظرية العامل النّحوي عند النُّحاة العرب مع النّظرية التوليدية التحويلية لتشُومسكي بشكل أساس في مفهوم الكفاءة؛ فهي-أي الكفاءة- النظام النحوي الموجود تقديرا داخل كل بناء، ومن جملة القواعد التي يُشبه فيها النحو التوليدي النحو العربي قواعد الحذف والزيادة والتعويض وإعادة الترتيب.[26]

ومن الأمثلة التي تُؤيد ذلك ما يلي:

أولا: الحذف: وينقسم الحذف إلى عدة أنواع نذكر مثلا حذف الحرف ومن أمثلة ذلك؛ قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ

ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴾ [يوسف: 85]. أي قال له أولاده مُتعجبين لا تزال تذكر يُوسف؛ لا تفتُر من حُبه و(لا) محذوفة حيث حذف النافي (لا)، ولا يُحذف النّافي قياسا إلا في القسم، زعم الخليل وسيبويه أن (لا) تُضمر في القسم وقد يُحذف شذوذا دون القسم. وأصلُ الكلام –في غير كلام الله سبحانه– أي البنية العميقة للجملة (لا تفتؤُ أنت) ثم أصبحت بعد تطبيق قانون الحذف إلى (تفتؤُ) وهي البنية السطحية للجملة وهو حذف اختياري؛ أي جائز.

ثانيا: التّمدد أو التّوسع: وله أشكال كثيرة من أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴾ [الجن:1]. فأصل الكلام – في غير كلام الله سبحانه– أي البنية العميقة (استماع نفر من الجن) ولكن بعد تطبيق (قانون التمدد) تمدد نائب الفاعل (استماع) إلى جملة، وذلك على نحو ما جاء في الآية الكريمة وهي البنية السطحية للجملة.

ثالثا: الزيادة أو الإقحام: لها أشكال متنوعة ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴾[الفجر:**21**]. حيث تكرر المصدر (دكا) لغرض التوكيد ومنه قوله تعالى: ﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾[المؤمنون:36].

رابعا: إعادة الترتيب (التقديم والتأخير): وله أشكال عديدة ومتنوعة ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴾[الغاشية: **25**]. وأصل الكلام – في غير كلام الله سبحانه– (إن إيابهم إلينا ثم إن حسابهم علينا)، وبعد تطبيق قانون إعادة الترتيب أصبح الكلام على ما هو عليه في الآية الكريمة.

إن أهم الأمور التي تم استنتاجها وترجيحُها انطلاقا من محتوى هذه الدراسة

هي كالآتي:

1 – العوامل النحوية ليست مُؤثرات حقيقة، وإنما هي مُجرد أمارات وعلامات يُستدلُ بها على سرّ تواجد الحركة الإعرابية في الكلمة المُـؤثر عليهـا... بينمـا المُؤثر الحقيقي في أواخر الكلمات – التي اصـطلح النحويـون علـى تسـميتها بالمعمولات – هو المتكلم.

ودليل ذلك هو ما يلي:

فاللفظ الذي اعتُبر عاملا ما هو إلا مُتوالية صوتية يُشكل اتحادهـا كلمـة لهـا معنى، وأصوات الكلمة – في الغالب – لا يمكن أن تؤثر في الحالـة الإعرابيـة للكلمة التي تليها في التركيب بحكم المجاورة، فما بالك بكلمـة لا تجاورهـا فـي التركيب، ولك المثال الآتي: أنشد سعيد قصيدة مذهلة.

إذا كان لأصوات الفعل "أنشد" تأثيرا في رفع كلمة "سعيد" فإنـه بالضـرورة لا يمكننا نطق آخر حرف من كلمة "سعيد" إلا بالرفع... لأن الأصوات صادرة مـن جهاز النطق الذي يتحكم في طريقة نطق كل حرف أي أن المتكلم مُسيّر لا مُخيّـر فإن كان لأصوات كلمة تأثيرا في أواخر حركة الكلمـات التـي اصـطُلح عليهـا بالمعمولات لمَا عَرف تاريخ اللغة العربية ظاهرة اللَّحن الناتجة من مخالفة عُـرف الناطقين باللغة العربية. ففي ذلك المثال يمكننا أن ننطق "سعيد" وهي فـي نفـس الموقع بالنصب أو الجر وبالتالي: اللفظ لا يمكن أن يكون عاملا.

2 – الألفاظ – التي اعتبرها جمهور النُّحاة عوامل ليس لها تأثير فـي عمليـة الرفع والنصب والجر والجزم، إلا أن لها وظيفة داخل التركيب حيث تظهر قيمتها عند إدخالها ومثال ذلك: محمد جواد.

فإن أدخلنا على هذه الجملة الحرف المشبّه بالفعل "إن" تُصبح الجملة كـالآتي: إنّ محمدا جواد.

وبالتالي: إن نصب "محمد" بمجرد دخول "إن" على الجملة دلالة علـى أنّ لـ "إن" قيمة أساسية ولها علاقة وطيدة بعمل المتكلم وبالتالي كونُها ليست عوامـل لا ينفي عنها حقيقتها الوظيفية داخل التركيب.

فتواجدها المطّرد داخل التركيب دليل على ارتباطها الوثيق بعمل المتكلم، وربما هذا ما جعل علماءنا القدامى يعبرون عن عمل المتكلم بدلاله الألفاظ والمعاني.

فاصطلحوا عليها تسمية عوامل لفظيه ومعنوية، فالخليل بن أحمـد الفراهيـدي صاحب كتاب "العين" لا يخفى عليه هذا الأمر، وإطلاقه لمصطلح عوامل كان لـه حكمة منها؛ فهو بعد دراسته الوصفية للغة، وملاحظته لـذلك التواجـد المطّـرد للكلمات أو الحروف – التي سُمّيت عوامل – كان دليلا قاطعا على أن لها علاقـة وطيدة بعملية رفع العرب – الفصحاء المتكلمين باللغة سليقة– ونصـبهم وجـرهم وجزمهم أثناء عمليه الكلام. كانت تلك الألفاظ والمعاني عُدّة عمل المـتكلم أثنـاء قيامه بالكلام، ولا يمكن للعامل أن يعمل بغير عُدّة، وبالتالي تواجد العُدّة في قلـب الخطاب دلالة على العمل، لذلك لا غرابة أن يُعبّر عن العامل الحقيقي الـذي هـو المتكلم بدلالة العوامل المساعدة في العمل، والتي لا يمكن نفيُها أو الاستغناء عنها. فتواجُدها يغير الأثر الإعرابي– كما هو مُجسد في المثال السابق– لذلك لا نستغرب عندما يُصرّح ابن جني بأن العمل من الرفع والنصب والجر والجـزم إنمـا هـو للمتكلم، ومع ذلك نجده في الجانب التطبيقي يقول بالعوامل اللفظية والمعنوية لأنها تعكس عمل المتكلم.

3 – إنّ نظرية العامل النحوي ليست نظرية فلسفية بل نظرية لغويه قائمه على دراسة وصفية للغة العربية. وُجدت لتُقدم تفسيرا لسرّ تواجد الأثر الإعرابي للكلمات في الجملة، وفشلُها في إعطاء تفسيرات مُقنعة في بعض الحالات الإعرابية لا ينفي ما قدمته من تفسيرات هامة في الكثير من الظواهر النحوية، مثلما لا ينفي حقيقتها كنظرية نحويه مبنية على أسس منطقية منبعُها الواقع اللغوي. كما نجد في مقابل ذلك إن النظرية التوليدية التحويلية لا تُعد نظرية متكاملة بمعنى أننا لا نستطيع أن نطبقها تطبيقا كاملا في درسنا النحوي، فمن عقباتها خُلوها من خاصيّة الإعراب من رفع ونصب وجر فهذه الحركات لاوجود لها في نظرية التحويل.

4– إذا كان العامل هو المتكلم فان هذا سيُسفر عن الإشكال الآتي: هل اللغة وضعية أم إلهامية، فالإجابة عن هذا الإشكال سيفصل لنا في الإشكال الأهمّ: هل عملُ المتكلم ناتج من عرف المجتمع اللغوي، أم انه ناتج من طبيعة اللغة التي أودعها الله في الإنسان.

5– إن نظرية العامل النحوي والنظرية التوليدية التحويلية لها اثر واضح في الدّرس النحوي من خلال التفسير والتحليل للكيفية التي يُنتج بها المخاطب الرسالة اللغوية وصولا إلى المتلقي، وعملية الفهم والتأويل لديه حسب مُقتضيات السياق فلذلك تمكنتا من إزاحة النقاب وكشف الحجاب عن القدرة الكامنة وراء الفعل اللساني، لذلك فهُما نظريتان لغويتان تُكسبان الباحث اللغوي القدرة على سبر أغوار الذات الإنسانية إلى حد بعيد.

الهوامش:

1- ينظر: د/ محمد عيد، "أصول النحو العربي"، ط5، 2006، ص199.

2- ينظر: د/ التواتي بن التواتي، "محاضرات في أصول النحو"، دار الوعي-الجزائر- د ط، د ت، ص270.

3- ينظر: محمد عيد، "أصول النحو العربي"، ص 200.

4- ينظر: وليد عاطف الأنصاري، "نظرية العامل في النحو العربي عرضا ونقدا"، دار الكتاب الثقافي- الأردن، د ط، 2003، ص51.

5- ينظر: المرجع نفسه، ص51-52.

6- ينظر: د/ محمد عيد، "أصول النحو العربي"، ص199.

7- ينظر: وليد عاطف الأنصاري، "نظرية العامل في النحو العربي عرضا ونقدا"،ص55.

8- ابن الأنبا ري، "أسرار العربية"، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1997، ص56.

9- ابن جني، "الخصائص"، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط3، 2008، ج1، ص194.

10- التواتي بن التواتي، "محاضرات في أصول النحو"، ص235.

11- ينظر: د/ محمد عبد العزيز عبد الدايم، "النظرية اللغوية في التراث العربي"، ص62-63.

12- ينظر: د/ حسن خميس الملخ، "نظرية الأصل والفرع في النحو العربي"، دار الشرف للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ط1، 2001، ص130.

13- ينظر: التواتي بن التواتي، "محاضرات في أصول النحو"، ص122.

14- المرجع نفسه، ص303.

15- ينظر: د/ محمد عبد العزيز عبد الدايم، "النظرية اللغوية في التراث العربي، ص237.

16- د/ حسن خميس الملخ، "التفكير العلمي في النحو العربي (الاستقراء- التحليل- التفسير)" دار الشروق للتوزيع، رام الله، غزة، ط1، 2002، ص27-28.

17- خليل أحمد عمايرة، "العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه ودوره في التحليل اللغوي"، د ط، د ت، ص65.

18- د/طلال علامة، "تطور النحو العربي في مدرستي البصرة والكوفة"، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط 1، 1993، ص167.

19- ينظر: د/ حسن خميس الملخ، "نظرية الأصل والفرع في النحو العربي"، ص120-121.

20- حسن خميس الملخ، المرجع نفسه، ص122.

21- ينظر: المرجع نفسه، ص124.

22- إبراهيم مصطفى، "إحياء النحو"، ص194.

23- حسن خميس الملخ، "نظرية الأصل والفرع في النحو العربي"، ص127.

24- المرجع نفسه، ص127-128.

25- عبده الراجحي، "النحو العربي والدرس الحديث"، دار النهضة، بيروت، 1979، ص115.

26- ينظر: أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص 214.

تطبيق النّظرية التّوليديّة التّحويليّة على اللغة العربية
-عبد القادر الفاسي الفهري أنموذجا-

أ. ياسين بوراس
جامعة مولود معمري، تيزي-وزو

مقدمة: لقد طرح النّحو العربي الموروث بعد عصر النَّهضة العربية، عدة إشكالات على مستوى التطبيق والتنظير، كان أهمها صعوبته على متعلميه، وكذا عدم كفايته في تفسير العديد من الظواهر اللغوية في العربية؛ ولذلك ظلَّت قضية تيسيره هدفا جمع الباحثين اللغويين فرادى ومجمعيين، وقد تزامن ذلك مع وُفُود اللسانيات إلى الأقطار العربية، فانصبت جهود بعض الباحثين العرب على تلمُّس الحلَّ البديل في النظريات اللسانية الغربية، للبحث عن نموذج نظرية لسانية صالح للغة العربية، يتجاوزون من خلاله الإشكال الذي يطرحه النّحو العربي.

ويُعَدُّ الفاسي الفهري أحدَ اللسانيين العرب الذين تبنَّوا أحدث نماذج نظريات هذا العلم الوافد، في ما ألّفه من أبحاث لسانية، كان قد شرع في إنجازها منذ منتصف الثمانينات من القرن الماضي، مُطبِّقا مِنْ خلالها نموذج النّظرية التّوليدية التّحويلية على اللغة العربية. وأمام محاولته الرّامية إلى إعادة وصف قواعد اللغة العربية وِفقَ ما توصَّلت إليه أحدث نظريات البحث اللساني في الغرب، سنتناول بدراسة وصفية تحليلية نموذج هذه النظرية اللسانية الذي قدّمه الفهري لقواعد اللغة العربية؛ لنحدِّد موضوعها ومنهجها وهدفها، ونستشفَّ مدى كفايتها في تفسير الظواهر اللغوية في العربية، مُقارَنة بنظرية النّحو العربي القائمة على العامل، ضمن هذه الإشكالية: **كيف تَمثَّل الفهري تطويع نموذج هذه النظرية اللسانية لقواعد اللغة**

العربية؟ وما مدى كفاءة هذا النّموذج المُقتَرح لوصف وتفسير الظّواهر اللغوية في العربية، مُقارنَة بنظرية العامل الموروثة؟

لقد ظهرت أعمال عبد القادر الفاسي الفهري حول تطبيق النظرية اللسانية التوليدية التحويلية على اللغة العربية في شكل بحوث متفرقة، مثلتها كتبه التي شرع في إصدارها منذ الثمانينات وقد عالج من خلالها عدّة قضايا في اللغة العربية، وكان هدفه الأساس من هذه الأعمال هو "وصف اللغة العربية الحالية وصفا كافيا، يمكِّن من بناء نظرية للغة العربية أو (نحو) يمثّل الملكة الباطنية لمتكلم هذه اللغة ومستعملها"[1] وبهذا يتحدد موضوع الكتابة اللسانية لعبد القادر الفاسي الفهري في **اللغة العربية المعاصرة أو الحالية بتعبيره**، والتي حسبه قد أصبحت مَلَكة مترسِّخة في أذهان المتكلمين المعاصرين، على نحو ملكة عهد السليقة اللغوية، ولذلك فهو يعيب على الدراسين المتأخرين إهمال وصفها؛ إذ ظلّوا مقيدين بملكة عهد السليقة اللغوية وبما سُمِع عن العرب؛ حيث قال "إنّ جلّ المتأخرين لم يهتموا بوصف الملكة التي ترسَّخت عند العربي المعاصر... وقد اكتفى جلُّهم بأخذ ما نُقِل عن العرب سماعا، وحصروا المادة في ما سُمِع عن السّلف في منطقة محدودة وزمن محدود، وهذا ما حذا بنا إلى مخالفة هذا المنهج واعتماد حدوس متكلمي هذه اللغة"[2].

وباعتبار أنّ اللغة العربية الحالية تخرج في كثير من خصائصها عن اللغة التي وصفها سيبويه –وهو ما يعتبره المختصون لحنا– فإنّ الفاسي الفهري يَعتَبِر أنّ هذه اللغة الحالية، لها خصائصها وقواعدها التي تميزها عن اللغة التي وصفها سيبويه، وهي بذلك بحاجة إلى وصف جديد لقواعدها؛ حيث ذهب إلى أنّه "مهما كانت قيمة الأنحاء التي وضعها القدماء والمحدثون لهذه اللغة أو لغيرها، فإن هناك حاجة إلى إعادة بناء أنحاء أخرى، أي آلات أخرى تصف معطيات أخرى وتتنبأ بها... وعلاوة على هذا وذاك إنّ العربية كسائر اللغات، تطورت وتغيرت عبر

القرون، وهناك ما يدل على أنّ اللغة التي وصفها سيبويه ليست هي اللغة الموجودة حاليا، باعتبار كثير من خصائصها التركيبية، والصرفية، والصوتية"[3] وبهذا فإنّ **المنهج** الذي اتخذه الفهري لدراسة **موضوعه** (العربية المعاصرة) هو منهج وصفي، **هدف** من خلاله إلى إعادة وصف قواعد اللغة العربية، وتفسير عملية اشتغال بُنَاها التركيبية، وِفْق نموذج النظرية التوليدية التحويلية الذي طوَّرته بريزنن (Brisnene) وآخرون. وهذه النّظرية "تجد أصولها في عدد من الأعمال التي أنجزت في إطار النّحو التوليدي التحويلي، وخاصة بريزنن (1978) وقد تطورت هذه النظرية على يد بريزنن (1979) و(1980) وكابلن (Kaplan) وبريزنن (1980) وگريمشو (GrimShaw) (1980) وأندروز (1979) (Andrews) ونيدل (Nidle) (1979) وموهانن (Mohanan) (1980) والفاسي الفهري (1980) وآخرين، وسيقتصر العرض الذي أقدمه هنا، بصفة جوهرية على تحديدات تتعلق بالصياغة، مستخلصة من عمل كابلن وبريزنن (1980)"[4] ويوضح هذا القول أنّ النّظرية التي أسس لها تشومسكي لم تخضع لنموذج واحد، بل عرفت عدة نماذج عبر مراحل تاريخها، آخرها النموذج الذي طوره كل من بريزنن وكابلن، كما يوضّح أنّه علاوة على كون الفاسي الفهري متتبعا مسار النّظرية، كان رائدا من روادها؛ لما أسهم به من أبحاث في تطوير هذا النموذج الذي قدمه الباحثان، والذي جاء وفقه النموذج الذي اقترحه للغة العربية الحالية.

ومن القضايا التي عالجها الفهري في إطار مشروعه اللساني حول تطبيق هذه النظرية اللسانية على اللغة العربية، نجد:

أولا- الرُّتبة الأصلية في اللغة العربية: جاء في ما أسّس عليه تشومسكي نظريته التوليدية التحويلية، أنّ الرُّتبة الأصلية في جميع اللغات الطبيعية هي من قبيل نمط (فا-ف-مف) مع إنكاره أنْ تخرج اللغات عن هذا النّمط؛ حيث اعتبر الجُمل فيها مُكوَّنة من مركب اسمي هو الفاعل ومركب فعلي هو الفعل مع المفعول

(مركب اسمي + مركب فعلي) على أساس أنّ هناك "عدمَ تناظر بين الفاعل والمفعول؛ حيث يَقع الفاعل والفعل في عبارتين منفصلتين، أمّا الفعل والمفعول فيكوِّنان عبارة واحدة هي ما نسميه بـــ (المُكوِّن الفعلي)"[5] نحو قولك: العلم يصنع الحضارة، ويُعتبَر –حسب تشومسكي– (العلم) الفاعل (المركب الاسمي) الوارد في العبارة المنفصلة عن عبارة (يصنع الحضارة) التي هي بمثابة المركب الفعلي المُكوّن من (الفعل + المفعول) ويكمن عدم التناظر بين الفاعل والمفعول حسبه، في كون الأول (الفاعل) له إمكانية أنْ يُحذَف، وبخلاف الثاني الذي يظلّ متصلا بالفعل اتصالا دائما، ما يجعلهما يشكلان مركبا واحدا.

وقد ذهب عبد القادر الفاسي الفهري، إلى أنّ اللغة العربية ليست من قبيل النّمط الذي وضعه تشومسكي، وإنّما هي من قبيل نمط (فعل فاعل مفعول) وذلك بناء على ما جاء به گرينبرك (Greenberg) في عمله الرائد حول الرتب في اللغات؛ حيث "لاحظ گرينبرك (1966) أنّ الرُّتَب المنتشرة في اللغات، للمكونات الثلاثة التي توجد في الجُمل هي: (أ) (فا ف مف) (كما في الإنگليزية والفرنسية والإيطالية، إلخ) و(ب) (فا مف ف) (كما في اليابانية، والفارسية والتركية، إلخ) و(ج) (ف فا مف) (كما في العربية والأرلندية، والغالية، إلخ)"[6] وإنّ العمل الذي قدمه گرينبرك قد أدى بالعديد ممن نَحَو الاتجاه التوليدي التحويلي في دراستهم اللغة من منظور هذا الاتجاه، إلى مراجعة معطيات النظرية؛ قصد تطويعها لهذه الأنماط اللغوية المتباينة.

وقد اتّجه عبد القادر الفاسي الفهري نحو تطويع هذه النّظرية اللسانية لقواعد اللغة العربية، انطلاقا مما توصّل إليه گرينبرك حول الرُّتب في اللغات؛ حيث يقول "اِعتَبر گرينبرك أنّ العربية من نمط (ف فا مف) واِعتبَرتُ هذا أصل الرُّتبة كذلك في إطار التّحليل التوليدي التحويلي الذي قدّمته لهذه اللغة"[7] ودحضا لفرضية تشومسكي حول الرُّتبة في اللغة العربية، انطلق الفاسي الفهري في الاستدلال على

هذه الرُّتبة، قبل شروعه في بيان القواعد التحويلية التي يمكن أنْ تطرأ عليها، وقد ظهرت هذه الاستدلالات في بحوثه التي ذهب من خلالها إلى أنّ مُؤشِّرات أصلية هذه الرُّتبة بالنسبة للغة العربية تظهر في[8]:

– أنّ هذه الرُّتبة توجد في الفعل الذي يتضمن فعلا متعديا؛ حيث يتوسط الفاعل بين الفعل والمفعول، نحو ما هو في الأمثلة الآتية:

– ألقى زيد قصيدة.

– عدم إمكان اللبس في الجُمل التي يتوارد فيها الفاعل والمفعول دون إعراب بارز، نحو ما هو في الأمثلة الآتية:

– ضرب عيسى موسى

ويأتي الاسم الأول في الجملة فاعلا والاسم الذي يليه مفعولا على الترتيب؛ أمنا للبس، إلا أن الأمر يلتبس في حالة ما إذا كانا الاسمان اللذان يُعتبران فاعلا مُتصدريْن الجُملة؛ أي مُرتَّبيْن عكس الترتيب المُستدَل على أصليته، نحو ما في الجُملتين.

– عيسى ضرب موسى.

ويتعذر في هذه الحالة تحديد الفاعل من المفعول، إلا من خلال الرُّتبة (ف فا مف) التي من تُمكِّن من معرفة الفاعل من المفعول، وهذا ما يدعم الاستدلال على أصليتها.

– بعض القيود على الإضمار، فالنُّحاة يَذكُرون أنّ مُفسِّر الضمير يجب أنْ يتقدَّمه إمّا لفظا أو رتبة. أمّا تَقدُّمه لفظا، فنحو قوله تعالى ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ ﴾ [البقرة: 124]

وأمّا تَقدُّمه رتبة، فنحو ما هو في المثال الآتي:

– دخل مكتبَه زيدٌ.

ومُفسِّر الضّمير في الآية (إبراهيم) مُتقدِّم لفظا؛ حيث جاء قبل الضمير المُفسَّر وفي الثانية (زيد) مُتقدِّم رتبة؛ حيث مُفسِّر الضمير فاعلا، وهي الرُّتبة التي تقع قبل

المفعول في الترتيب الأصلي (ف فا مف). ولا يجوز أنْ يتأخر المفسر عن الضمير في الرُّتبة واللفظ، نحو ما هو في لحن الجُملة الآتية:

– ؟؟؟ ابتلى ربُه إبراهيمَ.

ويكمن لحن هذه الجُملة في كونها تخرق قاعدة الإضمار التي وضعها النُّحاة؛ حيث مُفسِّر الضمير (إبراهيم) متأخر لفظا عن الضمير المُفسَّر له، ومتأخر رتبة؛ حيث مُفسِّر الضمير في الجملة مفعول وليس فاعلا، وهي الرُّتبة التي تقع بعد الفاعل في الترتيب (ف فا مف). وهذا القيد الذي وضعه النُّحاة لمُفسِّر الضمير (تقدم المفسر في الرُّتبة) يدعم الاستدلال على أصلية هذه الرُّتبة.

– ظاهرة التطابق بين الفعل والفاعل، فالفعل يطابق الفاعل جنسا وعددا إذا تقدم الفاعل عليه، أمّا إذا لم يتقدَّم فلا يطابقه في ذلك، نحو ما هو في الأمثلة الآتية:

– جاء الأولاد.

– الأولاد جاؤوا.

– ؟؟؟ جاؤوا الأولاد.

ويُثبِت لحن الجُملة الأخيرة أنّ الرُّتبة الأصلية للغة العربية هي (ف فا مف)؛ حيث إنّها تمنع تطابق الفعل والفاعل إذا كان الفعل مُقدَّما، وتفرض مطابقة الفعل للفاعل إذا كان الفاعل مُقدَّما؛ إذ يستدعي نقل الفاعل من رتبته الأصلية إلى الصدارة، إلحاق ضمير بالفعل يدل على المطابقة، ولا يستدعي ذلك في رتبته الأصلية.

ويرى الفاسي الفهري أنّ هذه المؤشرات التي تشمل وجود هذه الرُّتبة في الجُملة التي تتضمن فعلا متعديا، وكذا أمن اللبس في الأسماء التي تظهر دون إعراب بارز في هذه الرُّتبة، وكذا قيود الإضمار وظاهرة التطابق، كلّها مؤشِّرات كافية تدل على أنّ الرُّتبة الأصلية للغة العربية، هي من نمط (فعل فاعل مفعول). ودعما لهذه الاستدلالات أضاف الفهري استدلالا آخر مفاده: أنّ الاسم يأتي رأسا

للمركب الاسمي والحرف رأسا للمركب الحرفي والصفة رأسا للمركب الوصفي وبما أنّ "العربية يرد فيها الاسم في صدر المركب الاسمي، والحرف رأسا في صدر المركب الحرفي، والصفة رأسا في صدر المركب الوصفي ... إلخ. فإذا عمّمنا هذا المبدأ ليشمل الجُملة (على اعتبار أنّ الفعل رأس للجملة) أمْكَن أنْ نقول: إنّ الفعل في صدر الجُملة هو أصل الرُّتبة، كسائر الرؤوس الأخرى التي تُوجَد في صدر مُركّباتها"[9] وهذا ما يعنى أنّ الفعل كذلك يكون رأسا للجملة الفعلية، أخذا بمبدأ الرأس في الصدر.

وأضاف الفاسي الفهري تأكيدا على أصلية هذه الرُّتبة، استدلالا آخر في كتابه (البناء الموازي) مفاده أنّ ثبوت هذه الرُّتبة في المركبات الضميرية، سواء كان الضمير منفصلا أو متصلا، دليل على أصليتها، نحو ما هو في الجُملتين الآتيتين:

- أعطيتنيه.
- أعطيتني إياه[10]

وترد الضمائر بما فيها المتَّصلة في المثال الأول والمنفصلة في المثال الثاني على الترتيب المستدل عليه؛ حيث ورد الفعل ثم الفاعل، ثم المفعول$_1$ ثم المفعول$_2$ ولا إمكانية لها في خرق هذا الترتيب وهو ما يدعم الاستدلال على أصلية الرتبة المُستدَل عليها.

وينتهي الفاسي الفهري من استدلالاته إلى أنّ "هذه الوقائع ووقائع أخرى أوردناها في أماكن أخرى تبيِّنُ أنّ اللغة العربية رتبتها هي (ف فا مف)"[11] وهذه الاستدلالات التي وظَّفها الفاسي الفهري على أصلية هذه الرُّتبة تخص الجُملة الفعلية. أمّا الجُمل الاسمية فقد هدف الفهري إلى الجمع بين بنيتها وبنية الجُمل الفعلية في أصل الرُّتبة المُستَدل عليها من خلال افتراض الرابط (كان)؛ حيث قال "وبالفعل فقد لجأنا إلى افتراض آخر، ينفي عن اللغة العربية أنّ تكون لغة مُعقَّدة أو غير طبيعية. وهذا الافتراض هو ما أسميناه بالافتراض الرابطي. وهو افتراض

يُوحِّد بين الجُمل التي اِعتُبِرت اسمية وتلك التي اِعتُبِرت فعلية. وهذا الافتراض يعني أنّ الجُمل التي لا يظهر فيها فعل في سطح البنية، جمل ذات رابطة (أو رابطية) مثلها في ذلك مثل الجُمل التي تظهر فيها رابطة كما في الجُملة الآتية:

– كان حسين ملكا"[12].

وذهب الفهري من هذه الجُمل إلى اعتبار الفعل الناسخ (كان) فيها رابطا، وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار الجُمل الاسمية التي لا يظهر فيها هذا الفعل، جمل ذات رابطة مُقدَّرة، ورأى أنّه "إذا صحّ هذا الافتراض، يكون المركب الاسمي الموجود في نحو (الهرم مرتفع، والسُّكَّر من القصب) فاعلا. وبالفعل فهناك ما يدل على أنّ هذا المركب فاعل، باعتبار خصائصه الإعرابية (إذ هو مرفوع) والرُّتبية (في الرُّتبة الأولى بعد الفعل) والإحالية (حيث يراقب فاعل الصفة، أو الفضلة بصفة أعم)"[13]. وحسب الفهري فإنّ الاسم المُتصدِّرَ الجُملة الاسمية فاعل باعتبار حركته؛ حيث يأتي مرفوعا على نحو الفاعل، وباعتبار رتبته؛ حيث يلي الفعل الرابط المُقدَّر (كان) على نحو ما يرد الفاعل بالنسبة للفعل، وباعتبار إحاليته؛ حيث يراقب صفة الارتفاع، نحو (الهرم مرتفع) أو الفضلة، نحو (السُّكّر من القصب).

ثانيا– القواعد التحويلية (تغييرات الرُّتبة الأصلية): انطلق الفاسي الفهري في تفسير التغييرات التي يمكن أنْ تطرأ على هذه الرُّتبة (ف فا مف) المُستدَلِّ عليها كأصل لترتيب مكونات الجملة في اللغة العربية، من مفهوم **التبئير والخفق والتفكيك** التي يتم بمقتضاها نقل المُكوِّنات من رُتبَتها الأصلية إلى رُتَب مختلفة مشتقة من هذه الرُّتبة الأصلية. وتحكم هذا النقل أو التغيير في الرُّتبة عدد من القيود "وذلك على اعتبار أنّ المكون التَّحويلي له قدرة توليدية كبيرة؛ فكما يُنتِج جملا نحوية، يُنتِج جملا لاحنة (غير نحوية) فالبحث في القيود يؤدي إلى الاكتفاء بتوليد الجمل النَّحويَّة فقط"[14] وبما أنّ التحويلات لها توليد عدد من البنى اللغوية قد

يأتي البعض منها سليما، كما قد يأتي البعض منها لاحنا، فقد جعل الفهري لكل نوع من التحويل قيودا خاصة، وذلك على النّحو الآتي:

1- التبئير (الموضعة): يُعرِّف الفهري هذا النَّوع من النَّقل بأنه "عملية صورية يتم بمقتضاها نقل مقولة كبرى، كالمركبات الاسمية أو الحرفية أو الوصفية ... إلخ من مكان داخلي؛ أي داخل الجُملة إلى مكان خارجي (خارج الجُملة)"[15] ويعني ذلك أنّ هذا النَّوع من النَّقل أو التحويل، يَتمُّ في البنية السطحية للجملة، عن طريق إخراج مكوِّن من مكوِّناتها من الترتيب الأصلي في البنية العميقة إلى خارج الجُملة ويشمل هذا النَّوع من النَّقل المركبات الاسمية (الأسماء) والمركبات الحرفية (التي يأتي حرف الجر رأسا لها) والمركبات الوصفية (التي يأتي الموصوف رأسا لها) والمركبات الموصولة (التي يأتي اسم الموصول رأسا لها). ويستدل الفهري على هذا النَّوع من النَّقل أو التحويل بالجُمل الآتية: "إياك نعبد، الله أدعو، في الدّار وجدته، غدا سنلتقي، أميتا كان؟"[16]

ويَعدُّ الفهري المقولات التي تحتل الموقع الأول في هذه الجُمل، والتي تشمل المركب الإضافي (إياك) والمركب الاسمي (الله) والمركب الحرفي (في الدار) والظرف (غدا) والاسم (ميتا) مقولات نُقلَت من رتبتها الأصلية داخل الجُملة، إلى خارجها يمينا؛ إذ الأصل الذي تقتضيه رتبة هذه الجُمل، قبل أن تُنقَل إلى مكان البؤرة، هو على النحو الآتي: نعبد إياك، أدعو الله، وجدته في الدار، سنلتقي غدا أكان ميتا؟

ويرى الفهري أنّ لهذا النَّوع من النَّقل قيودا خاصة "منها ما يتعلق بالمكان المَصدَر؛ أي المكان الذي تنطلق منه المقولة المنقولة، ومنها ما يتعلق بالمكان الهدف؛ أي المكان الذي تنتقل إليه هذه المقولة ومنها ما يتعلق بميدان التحويل ومنها ما يتعلق بصورة التحويل، ومنها ما يتعلق بخَرْج التحويل؛ أي البنية الناتجة عن خَرجِ التحويل"[17] وهذه القيود التي تتعلق بكل من المصدر، والهدف، وميدان

التحويل وصورة التحويل وخرج التحويل، أو البنية الناتجة عن التحويل، تسمح بالتبئير في حالة ما إذا كان النَّقل محترما القيود التي تتعلق بكل منها، وتمنع نقل التبئير في حالة ما إذا لم يخضع أحد منها للقيد الذي يتعلق بها.

والقيود التي تتعلق **بالمكان المَصدَر**؛ أي المكان الذي تنتقل منه المقولة الداخلة في الجُملة، إلى الربض الأيمن للجملة (خارج الجُملة) اعتمد فيها الفهري على القيود التي وضعها النُّحاة شرطا على التقديم، جاعلا إياها قيدا على المَصدَر، ومفاد هذا القيد أنْ لا يتصدَّر المَصدَرَ (الجُملة المنقول منها المُكوِّن) أحدُ المقولات التي تمنع أنْ يعمل ما بعدها في ما قبلها، وهذه المقولات هي "أدوات الاستفهام وأدوات الشرط، وأدوات التحضيض، ولام الابتداء، وكم الخبرية والحروف الناسخة والأسماء الموصولة والأسماء الموصوفة بالعامل المشغول، وأدوات العرض"[18] وهذه المقولات التي وضعها النُّحاة شرطا على التقديم، تمنع أنْ يتقدم أحد المعمولات على العامل، فإذا تقدم معمولها، وتوسّط بينه وبين العامل أحد هذه المقولات صار المُتقدِّم في حكم الابتداء، ومُنِع العامل أنْ يعمل في ما قبله، وهي بذلك مانعة التقديم في نظر النُّحاة، ومانعة التبئير في نظر الفهري، كما يدل على ذلك لحن الجُمل الآتية:

"– ؟؟؟ زيدًا هل رأيتَ.

– ؟؟؟ زيدًا إنْ لقيت فأكرمه.

– ؟؟؟ زيدًا إنِّي ضربتُ."[19]

ويكمن لحن هذه الجُمل في كونها تجعل المُركَّبات الاسمية التي على اليمين معمولات للفعل الواقع بعد المقولات التي تمنع أنْ يعمل العامل في ما قبله (حرف الاستفهام (هل) واسم الشرط (إنْ) والحرف الناسخ (إنّ) ومَنْعُ هذه المقولات العامل في أنْ يعمل في ما قبله، يَمنَع أنْ يتقدم المعمول المنصوب باعتباره تابعا لعامله لا منفصلا عنه. ولحن هذه الجُمل يُوضِّح أنّ هذا الشرط الذي وضعه النُّحاة للتقديم

يكون كذلك مانعًا لنقل التبئير، باعتبار أنّ المُكوِّن المُبَأَّر يكون بمثابة نقل أحد المعمولات من الرُّتبة الأصلية إلى خارج الجُملة، ولا يجوز نقله ما لم يزل المانع.

وأمّا القيود التي تتعلَّق **بالمكان الهدف**؛ أي المكان المنقول إليه المُكوِّن المُبَأَّر فيحددها الفهري بقيد واحد، وهو "أنّ العنصر المنقول، يَحطُّ في مكان بؤرة (وهو المكان الذي يحطُّ فيه الموضع أو البؤرة) في الربض الأيمن للجملة"[20] وذلك على نحو ما توضِّحه الجُملتان الآتيتان؛ حيث يقبع المفعول في رتبته الأصلية في الجُملة الأولى، ويُنقَل إلى الربض الأيمن في الجُملة الثانية:

- قرأ خالد دلائلَ الإعجاز
- **دلائلَ الإعجاز** قرأ خالد

وأمّا القيود التي تتعلَّق **بميدان التحويل وصورة التحويل**، أي الجُمل التي يمكن أنْ يقع فيها هذا النَّوع من النَّقل، وطريقة النَّقل "فهي تخضع لمبدأ التتابع السلكي ومبدأ التحتية، واللذان اقترحهما تشومسكي سنة (1973). وبما أنّ التحويلات تنطبق في أسلاك، وتَختَلِف العُجَر السِّلكيَّة، في العربية بين عُجَرِ المركب الاسمي* (م إ) وعُجَر الجُملة (ج) وعُجَر الجُملتين (جَ) جملة رئيسية وجُملة مُدمجَة، وعُجَرِ الجُمل الثلاث (جً) جملة رئيسية وجملتين مدمجتين أحيانا"[21] نحو ما هو في الجُمل الآتية:

- أكرم عليٌ أخا زيدٍ (مركب إسمي)
- قرأ خالدٌ دلائلَ الإعجاز (ج)
- ظنَّ زيدٌ أنّ خالدًا قرأ دلائل الإعجاز (ج رئيسية + جَ جملة مُدمَجَة)
- حسب عمرو أنّ خالدا رأى محمدا يقرأ دلائل الإعجاز (ج رئيسية + جً جملتين مدمجتين)

ويُمكِن أنْ تَمسَّ التَّحويلات جميع هذه العُجَر السِّلكية باعتبارها ميادينَ للتحويل إلاّ أنّ نقل التبيئر لا يُتمُّ في الأسلاك المُدمجَة (الجُملة الثالثة والرابعة) إلاَّ وِفقَ قيود

"التَّتابع السِّلكي التي تُقيِّدُ هذا الانتقال عبر الأسلاك"[22] ومن هذه القيود التي تتعلق بمبدأ التتابع السلكي[23]:

– لا يحدث هذا النَّقل إلا عبر الصّدر (المنقول منه) الذي يُعتبَر بابا للإفلات؛

– لا يحصل هذا النَّقل إلا حينما يعمل في صدر الجُملة فعل من الأفعال التي تُعتبَر جسورا؛

– أنّ الموصول يجب أنْ يكون خبريا لا استفهاميا.

ومفاد **القيد الأول** على التّتابع السّلكي، أنّ الانتقال (التبئير) عبر هذه الأسلاك لا يحصل في وثبة واحدة؛ بل يحصل عبر صدر كل جملة من الجُمل المُدمَجة ويمثل له الفهري باسم الاستفهام، الذي يمكن أنْ ينتقل من صدر كل جملة مدمجة إلى الربض الأيمن للجملة الرئيسية؛ حيث يرى أنّ "الاستفهام مثلا، ينطبق في ميدان جُمْلِي واحد في جملة مدمجة، أو جملة غير مدمجة، كما ينطبق عبر أكثر من جملة، نحو ما هو في الجمل الآتية[24]:

– مَنْ جاء؟

– مَنْ تريد أنْ انتقدَ؟

– مَنْ حَسِبْتَ أنَّ زيدا انتقدَ؟

– مَنْ حَسِبْت أنّ عمرا يعرف أنّ زيدا انتقدَ؟"

وذهب الفهري في تفسيره تَصدُّر اسم الاستفهام لهذه الجُمل، إلى أنّ "افتراض التتابع السِّلكي يقر أنّ (مَنْ) في الجُمل الثلاث الأخيرة، لم ينتقل في وثبة واحدة من المكان المصدر (مكان المفعول) إلى المكان الهدف (مكان الموصول) وإنّما انتقل عبر المصدر (مص) الموجود في كل جملة بصفة سلكية؛ أي بالتدرج من سلك إلى آخر"[25] ويعني ذلك أنّ اسم الاستفهام لمْ يتم تبئيره من موقعه الأصلي، إلا بعد تتابعه عبر المصدر الذي قبع فيه في كل الجُمل المدمجة؛ حتى ثبت أخيرا في

الربض الأيمن للجملة الرئيسية. ويمثل الفهري لعملية انتقال اسم الاستفهام (مَنْ) بالمُشجَّر الآتي[26]:

– من تريد أنْ أنتقدَ

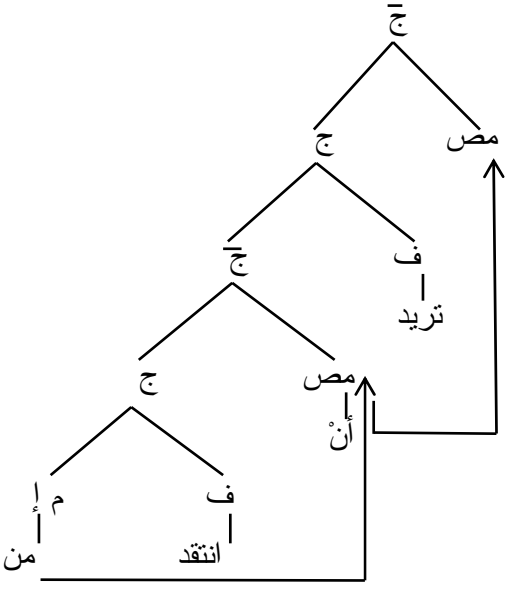

ويُوضِّح المُشجّر أنّ اسم الاستفهام (مَنْ) حسب ما يرى الفهري، كان قد وُلِد مفعولا في جُملة (أنْ انتقدَ مَنْ) أي موقعه الأصلي وهو مصدر النَّقل، ثمّ بعد دمج هذه الجُملة بجملة (تُريدُ) انتقل اسم الاستفهام إلى الجُملة الرئيسية (تريد) أي أصبح مفعولا في جملة (تُريدُ مَنْ أنْ انتقدَ) ثم نُقِل إلى ربضها الأيمن (من تريد أنْ انتقد)؛ أي انتقل إلى موقع البؤرة، تحت قيد النَّقل عبر المصدر، ومبدأ التتابع السلكي.

وقد رُفِض تخريج الفاسي الفهري حول تبئير المُكوِّنات في الجُمل المدمجة عن طريق التتابع السلكي؛ حيث ذهب عطاء محمد موسى إلى أنّه لا يمكن أنْ يكون اسم الاستفهام قد مرّ بالتدرج، حتّى ثبت في الرّبض الأيمن للجملة الرئيسية، بدليل

أنّ كل الجُمل التي يمرّ عليها اسم الاستفهام تُصبِح لاحنة في عملية الانتقال من موقعه الأصلي، باستثناء الجُملة التي يتصدرها، نحو ما توضِّحه التَّرسيمة الآتية[27]:

تريد أنْ انتقد منْ؟ ← تريد منْ أنْ انتقد؟ ← منْ تريد أنْ انتقد؟

ومفاد **القيد الثاني** على التّتابع السلكي أنّ الانتقال عبر هذه الأسلاك، يَمتنِع ما لم يكن هناك فعل مِنَ الأفعال الجسور متصدرا الجُملة (أي يكون هو العامل في المصادر التي ينتقل منها المُكوِّن) على اعتبار أنّ هذه الأفعال الجسور "هي التي يُمكِنُها أنْ تسمح بإفلات العنصر المُبَأَّر من موقعه الأصلي داخل الجُملة المُدمَجة إلى موقع خارجي وهو يمين الجُملة الرئيسية، ومن جملة هذه الأفعال: ظنّ حسب خال، علم، عرف...إلخ*"[28] وذلك لكون هذا النَّوع من النَّقل يمتنع في الجُمل التي لا تتصدرها أفعال جسور، تسمح بإمكانية إفلات العنصر المُرَادِ تبئيره، من الجُمل المدمجة إلى صدر الجُملة الرئيسية نحو ما يُوضِّحه لحن الجُملة الثانية في مقابل الجُملة الأولى:

– رأى زيدٌ أنّ عمرَ رمى الكرة صوب النافذة

–؟؟؟ **الكرةَ** رأى زيدٌ أنّ عمرَ رمى صوب النافذة

ويمتنع حسب هذا القيد أنْ يُنقَل المفعول (الكرة) من موقعه الأصلي في الجُملة المُدمَجة، إلى الربض الأيمن للجملة الرئيسية، لكون الفعل (رأى) ليس من الأفعال الجسور التي تسمح بإمكانية إفلات أحد مكونات الجُملة المُدمَجَة، من موقعه الأصلي داخل الجُملة، إلى صدر الجُملة الرئيسية. ويمثِّل له الفهري بالجُملتين الاستفهاميتين اللاحنتين الآتيتين:

"–؟؟؟ منْ رأيتَ أنّ زيدًا انتقدَ؟

–؟؟؟ منْ أخبرتني أنّ الرَّجل سبَّ"[29]

ويمتنع هنا نقل اسم الاستفهام عبر هذه الأسلاك الجُملية المُدمَجَة؛ لكون الفعل المُتصدِّر الجُملة ليس من الأفعال الجسور التي تسمح بإفلات اسم الاستفهام (مَنْ)

من موقعه داخل الجُملة المُدمَجة (الرَّجل سبَّ مَنْ) إلى الجُملة الرئيسية (أخبرتني مَنْ أنَّ الرَّجل سبَّ) ثم إلى موقع خارجي بالنسبة للجملتين (من أخبرتني...). ولا يمتنع نقل اسم الاستفهام في حالة ما إذا كان الفعل من الأفعال الجسور متصدرا الجُملة، يسمح بإمكانية إفلاته، نحو ما توضحه الجُمل الآتية:

"– منْ حسبتَ أنّ زيدا انتقد"[30]

– حسب زيدٌ أنّ عُمرَ رمى **الكرة** صوب النافذة

– **الكرةَ** حسب زيدٌ أنّ عُمرَ رمى صوب النافذة

ومفاد **القيد الثالث** على التّتابع السّلكي أنَّ الموصول (الجُملة المدمجة) بالجُملة الرئيسية، يجب أنْ يكون خبريا وليس استفهاميا؛ حتى يُمكنَ نقل العنصر المُبَأَّر منه إلى الربض الأيمن للجملة الرئيسية نحو ما تُوضِّحه الجُملتان الآتيتان:

– ظنّ زيدٌ أنّ عُمرَ ضرب زينبَ.

– **زينبَ** ظنّ زيدٌ أنّ عُمرَ ضرب.

ويمتنع حسب هذا القيد أنْ يُنقَل إلى الربض الأيمن للجملة الرئيسية، المُكوِّن الذي يكون في الجُملة الاستفهامية المدمجة، ويمثل له الفهري بالجُملة اللاحنة الثانية مُقارَنة بسلامة الجُملة الأولى:

"– منْ تظنُ أنّ زيدًا انتقد؟

– ؟؟؟ منْ تساءلتَ هلْ انتقدَ زيدُ؟"[31]

وتُعدُّ الجُملة الأولى سليمة؛ لكون اسم الاستفهام (من) المولود داخل الجُملة المُدمجَة، قد انتقل مِنْ جملة خبرية، إلى الربض الأيمن للجملة الرئيسية. أمّا الجُملة الثانية فتُعتَبَر لاحنة؛ لكون اسم الاستفهام قد انتقل مِنْ جُملة استخبارية مُدمَجة، إلى الرّبض الأيمن للجملة الرئيسية الخبرية، وهو ما يُعدُّ خرقا لقيد التتابع السلكي الذي مفاده: أنّه يمتنع أنْ يُنقَل أحد مكونات الجُملة المدمجة إلى الربض الأيمن للجملة

الرئيسية، إذا كانت الجُملة الموصولة (المدمجة) استفهاما؛ وذلك لكون الجُملة الاستفهامية تمنع أنْ يخرج أحد مكوناتها من الجُملة إلى خارجها.

وهذا عن القيود التي تتعلق بميدان التحويل وصورة التحويل، أمّا القيود التي تتعلق **بخَرْج التحويل**؛ أي البنية الناتجة عن هذا النَّوع من النَّقل (التبئير) فهما قيدان:

"- أنّ الرّبط يجب أنْ يتمَّ في إسقاط مؤاخ.

- توارث الإعراب."[32]

ومفاد **القيد الأول** أنّ البنية الناتجة عن هذا النَّوع من النَّقل أو التحويل، يجب أنْ تربط بين المُكوِّن المُبَأَّر والجُملة في إسقاط مؤاخ، نحو ما توضِّحه الجُملة الآتية:

- **زيدا** ضربتُ.

ويمتنع أنْ تكون البنية الناتجة عن هذا النَّوع من النَّقل، جاعلة المُكوِّن المُبَأَّر في إسقاط والجُملة في إسقاط، نحو ما يوضِّحه لحن الجُملتين الآتيتين:

- ؟؟؟ **زيدا** إنّي ضَرَبْتُ.

- ؟؟؟ اللهَ هل دعا محمدُ.

ويكمن لحن هذه الجُمل في كونها تخرق قيد الإسقاط المؤاخي المُتعلِّق بالبنية النّاتجة عن التبئير؛ حيث تجعل المُكوِّن المُبَأَّر والجُملة في إسقاطين مختلفين إسقاط الجُملة الرئيسية، وإسقاط الجُملة المُدمَجَة باعتبار أنّ هذه التراكيب -حسب الفهري- تُعتَبر مُكوَّنة من جملتين مُدمَجتين "وبالفعل نجد في هذا التّركيب أنّ المُركَّب الاسمي (الأثر) لا يُوجَد في إسقاط مؤاخ لـــ (زيد) أو (الله) فهناك إسقاطان الجُملة الرئيسية (ج) والجُملة المُدمَجة (جَ) والأثر يُوجَد تحت (جَ) لا تحت (ج) ونفس الشيء ينطبق على جملة (زيدًا إنّي ضَرَبْتُ)"[33] ومنع جعل المُكوِّن المُبَأَّر في إسقاط والجُملة في إسقاط؛ لأنّ تباعد الإسقاطين يمنع توارث

الإعراب، بين المُكوِّن المُبَأَّر والمصدر المنقول منه المُكوِّن؛ إذ الأصل الذي تُصبِح عليه هذه الجُمل في حالة ما إذا تباعد الإسقاطان هو على النّحو الآتي:

– زيدٌ إنّي ضربتُه.

ومفاد **القيد الثاني** أنّ المُكوِّن المُبَأَّر، يجب أنْ يرث حركة الإعراب عن المصدر المنقول منه المُكوِّن، نحو ما توضِّحه صحة الجُملة الأولى في مقابل لحن الجُمل الثانية:

– الكتابَ قرأتُ

–؟؟؟ الكتابُ قرأتُ

ويكمن لحن الجُملة الثانية مقارنة بالجُملة الأولى، في كونها تخرق قاعدة توارث الإعراب التي تُوجِب أنْ يرث المُكوِّن المُبَأَّر الحركة الإعرابية عن المصدر المنقول منه.

وما يُستنتَج من هذه الخصائص التي تُميِّز نقل التبئير، أنّه نوع من تغيير الرُّتبة الأصلية (ف فا مف) يتم بمقتضاها نقل المُكوِّن المُبَأَّر إلى الربض الأيمن للجملة ويرث الحركة الإعرابية عن المصدر المنقول منه، وتحكم هذا النَّوع من النَّقل قيود تتعلّق بالمصدر، والهدف، وميدان التحويل وصورة التحويل والبنية الناتجة عن التحويل. والقيد الذي يتعلَّق بالمصدر؛ هو أنْ لا تتصدره أحد المقولات التي تمنع أنْ يعمل ما بعدها فيما قبلها. وأمّا القيد المُتعلِّق بالهدف؛ فهو أنْ يقبع المُكوِّن المُبَأَّر في الربض الأيمن للجملة. وأمّا ميدان التحويل فيمكن أنْ يكون في الجُمل (ج) كما يمكن أنْ يتعداه إلى جملتين مُدمَجة (جَ) وإلى ثلاث جمل مُدمَجة (جً) تحت قيود مبدأ التتابع السلكي ومبدأ التحتية؛ أي مروره عبر الأسلاك تحت صدر كل جُملَة مُدمَجة. وأمّا القيود المتعلقة بالبنية الناتجة عن هذا النوع من التحويل، فهي وجود المُكوِّن المُبَأَّر في إسقاط مؤاخ للجملة المنقول منها هذا المُكوِّن، وأَخْذُه الحركة الإعرابية عن المصدر المنقول منه.

2- الخفق: ذهب الفاسي الفهري إلى أنّه بخلاف التغيرات التي تَحدُث قبل الفعل، والتي يجسِّدها نقل التبئير "هناك تغيُّرات تُحدُث بعد الفعل، وتُغيِّر محليا رُتَبَ الفضلات، كما هو ممثل له في الجُملة الآتية:

- ضرب الولدَ زيدٌ"[34].

ويُوضِّح المثال أنّ نقل الخفق يختلف عن نقل التبيئر، في كون الخفق متعلِّقا بإعادة ترتيب الفضلات الواردة بعد الفعل، والتي تشمل الفاعل والمفعول والمخصصات كالمفاعيل الأخرى (المفعول فيه (ظرفي الزمان والمكان) والمفعول له، والمفعول المطلق) والمركبات الحرفية (الجار مع الجرور) وداخل إسقاط (الجُملة) وليس خارجها كما هو في التبئير، ولهذا ذهب الفهري إلى أنّ "مثل هذا التقديم يختلف عن التبئير في عدة خصائص؛ إذ هناك قاعدة من نوع خاص، تضبط هذا النَّوع من الرُّتبة، هي قاعدة خفق ميدانها إسقاط واحد لا تخرج عنه، ولا تنطبق إلا على العجر الأخوات"[35] ويتضح من قول الفهري أنّ الخفق لا يتجاوز النَّقل فيه حدود الفعل؛ حيث يَتِمّ من خلاله إعادة ترتيب المُكوِّنات الواردة بعده لا غير وهو بذلك يخضع لقيدين اثنين، خلافا للقيود التي يخضع لها التبئير، وهذان القيدان هما:

أ- أنْ لا تخرج عن إسقاط واحد في الجُملة.

ب- لا تنطبق إلا على العُجَرِ الأخوات*

ومفاد **القيد الأول** أنّ الخفق بخلاف التبئير، يكون داخل إسقاط الجُملة، ولا يمكن أنْ يَعبُر المُكوِّن المنقول من رتبته الأصلية، حدود الإسقاط الواحد إلى غيره

من إسقاطات الجُمل المُدمجَة، نحو ما يوضحه لحن الجُملة الثانية في مقابل الجُملة الأولى:

"– كم تظنُّ أنّ زيدا تزوج **من النساء**.

– ؟؟؟ كم تظنُّ **مِنَ النساء** أنّ زيدا تزوج"[36]

ويكمن لحن الجُملة الثانية في كونها تنقل المُكوِّن (من النساء) الواقع في الجُملة المُدمجَة (زيد تزوج من النساء) إلى الجُملة الرئيسية (تَظُنُّ) وهذا خرق لقاعدة الخفق التي مفادها أنَّ المُكوِّن المَخفُوق، لا يُمكِن أنْ يتجاوز حدود الإسقاط الواحد باعتبار أنّ هذا النَّوع من التّغيير في الرُّتبة، يقع داخل إسقاط الجُملة وليس خارجه؛ أي بعد الفعل وليس قبله.

ومفاد **القيد الثاني** أنّ هذا النَّوع من النَّقل لا ينطبق إلا على العُجرِ الأخوات؛ أي التي تجتمع في سلك واحد بعد الفِعل (تجمعها عقدة واحدة في المُشجَّر) ويمتنع حسب هذا القيد أنْ يكون نقل الخفق بين عجرتين ليستا أختين؛ لعدم إمكانية تبادل المواقع في ما بينها، نحو ما يوضحه لحن الجملة الأخيرة مِنْ بيْن الجمل الآتية:

"– جاء كثير من الرجال البارحة

– جاء **البارحة** كثير من الرجال

–؟؟؟ جاء كثيرٌ **البارحة** من الرجال"[37]

ويكمن لحن الجُملة الثالثة في كونها تنقل المُكوِّن (البارحة) إلى عجرة أخرى هي عجرة المركب الاسمي (كثير من الرجال) وهي بذلك تتبادل المَوقِع مع عجرة ليست أختا، وهو ما يُعَدُّ خرقا للقيد الذي مفاده أنَّ الخفق لا ينطبق إلا على العجر الأخوات، نحو ما يوضحه المشجر الآتي:

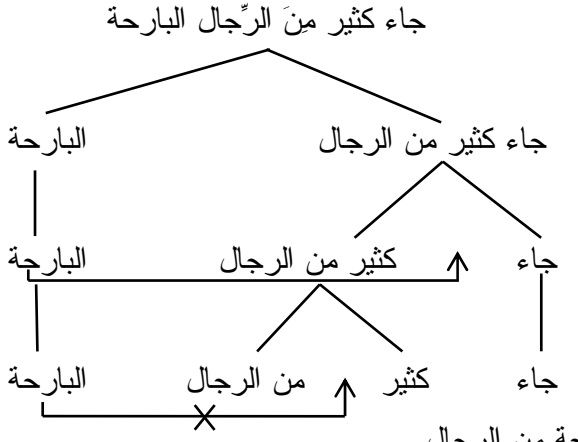

– ؟؟؟ جاء كثير البارحة من الرجال

ويجوز حسب هذا المشجر أنْ يُنقَل المُكوِّن (البارحة) إلى (جاء كثير من الرجال) لتصبح (جاء البارحة كثير من الرجال) لكونهما مجتمعين في عجرة واحدة بعد الفعل (عجر أخوات) ولكنه يمتنع نقله إلى (كثير من الرجال) لأنّه لا ينتمي إلى هذه العجرة السلكية، ولا يشكِّل عجرة أختا بالنسبة إليهما، كونه مركبا اسميا مستقلا عنهما. ويُمكِن تطبيق نقل الخفق تِبَعا لهذا القيد (لا ينطبق إلا على العجر الأخوات) على العجرتين الأختين (كثير من الرجال) لتصبح الجملة على النّحو الآتي:

جاء البارحة **من الرجال كثير**.

وما يميِّز نقل الخفق عن نقل التبئير، هو القيود الخاصة بكل منهما؛ حيث إنّ الخفق يقع في إسقاط واحد، ولا ينطبق إلا على العجر الأخوات، أما التبئير "فهو غير محدود في إسقاط واحد، وهو لا يجمع بين عجرتين أختين؛ بل يجمع بين موقع خارجي وموقع داخلي"[38] أي موقع داخل الجملة وموقع خارجها؛ ولهذا ذَهب الفهري إلى اعتبار الخفق "قاعدة أسلوبية، لا تحويلية"[39] لكونه لا يُؤثِّر في معنى الجملة خلافا لأنواع النَّقل الأخرى التي يمكن أنْ تُؤثِّر في معناها (التبئير والتفكيك).

3- التفكيك: يُعدُّ التّفكيك في القواعد التوليدية التحويلية، قاعدة من القواعد التي يَتمّ بمقتضاها نقل مُكوِّن من مُكوِّنات الجملة من رتبته الأصلية، إلى خارج الجُملة إمّا يمينا أو يسارا، ولهذا ذهب الفاسي الفهري إلى أنّ "التفكيك نوعان باعتبار الجهة: تفكيك إلى اليمين كما في جملة: زيدٌ ضربته. وتفكيك إلى اليسار كما في جُملة: ضربته زيدٌ"[40] ويرى الفهري أنّ المُكوِّن (زيد) الواقع يمين الجُملة الأولى ويسار الجُملة الثانية، مُفكَّك من الجملتين إلى خارجهما.

ويَجمَع التّفكيك والتبئير النَّقل إلى اليمن، إلا أنّهما يختلفان؛ من حيث قواعد النَّقل؛ إذ يُشترَط في العنصر المُفكَّك الرّفع دائما خلافا للعنصر المُبَأَّر، الذي يرث الحركة الإعرابية عن المصدر المَنقُول منه كما يمتنع أنْ يترك أثرا ضميريا "فالتفكيك يكون دائما بالارتفاع، سواء كان المكان المصدر مجرورا أو مرفوعا وهو يُخالِف التبئير في هذا نحو:

- زيدٌ ضربت غلامه.
- زيدٌ مررت به."[41]

وتُوضِّح الجُملتان أنّ العُنصَر المُفكَّك إلى اليمين لا يرث الحركة الإعرابية عن المكان المصدر على نحو ما هو في البؤرة، ويترك أثرا ضميريا (الهاء) وهذا ليس قيدا؛ لأنّ العنصر المُفكَّك قد يترك وقد لا يترك أثرا ضميريا، خلافا للبؤرة التي لا ترث الحركة الإعرابية عن المكان المصدر، ويمتنع أنْ تترك أثرا ضميريا؛ إذ الأصل في الجُملتين أنهما على نحو:

- ضربتُ غلامَ زيدٍ.
- مررتُ بزيدٍ.

ومن القيود التي وضعها الفهري لهذا النَّوع من النَّقل **قيد التعيين**، الذي مفاده أنّ العنصر المُفكَّك يجب أنْ يكون مُحدَّدا؛ من حيث الجنس أو النَّوع أو يكون إشاريا مخالفا في ذلك القدماء حول عدم جواز الابتداء بالنكرة؛ حيث يرى أنّ "بعض

النُّحاة اشترطوا فيه التعريف، ولكن هذا غير صحيح، فالعنصر المفكك يمكن أنْ يكون نكرة، فيكون جنسيا، أو مُعيَّنًا نوعيا، أو إشاريا. والقيد الوحيد هو ألا يكون المفكك غير مُعيَّن، ومعلوم أنّ غير المعين ليس إحاليا البتة، نحو ما هو في الأمثلة الآتية:

- بقرةٌ تكلمتْ.
- رجلٌ جاءني في هذا الصباح.
- أستاذٌ في الجامعة لا يمكن أنْ يرغب في هذه المسؤولية"[42]

وتوضح الأمثلة التي أوردها الفاسي الفهري حول التفكيك إلى اليمين أنّ الابتداء بالنَّكرة جائز بخلاف ما قال به النُّحاة من عدم جوازه إلا بشروط (مسوغات الابتداء بالنكرة)؛ حيث اشترط الفاسي الفهري في النّكرة أنْ تكون مُعيِّنة لجنس حيوان (بقرة، نسر، ناقة) أو إنسان (رجل، أستاذ، جاسوس) أو معينة نوعيا (سيارة زرقاء أقبلت مسرعة) أو إشارية (هذا).

4- الاشتغال: من الظواهر اللغوية في العربية التي عالجها الفاسي الفهري في إطار النظرية التوليدية التحويلية، محاولا تفسيرها ضمن التحويلات أو التغييرات التي تمسُّ الرُّتبة الأصلية، ظاهرة الاشتغال عند النُّحاة، والتي حسبهم أنّ الفعل قد ينشغل عن معموله "إذا تقدم اسم على فعل صالح لنصبه لفظا أو محلا، وشُغِل الفعل عن عمله فيه بعمله في ضميره، فذلك الاسم السابق يُنصَب بفعل لا يظهر موافق للمشغول معنى"[43] ومعنى ذلك أنّ الاسم المنصوب الذي تقدم على عامله تاركا ضميرا، يخرجه النُّحاة على افتراض عامل مُضمَر، يوافق معنى الفعل المشغول بالضمير عن معموله، ويعمل في الاسم النصب، نحو ما توضِّحه الجُملة التي بين قوسين، في مقابل الجملة التي تمّ فيها الانشغال:

- زيدا ضربته (ضربت زيدا ضربته)

ويذهب الفهري بخلاف النُّحاة إلى أنّ الاشتغال هو نوع من التحويل الذي يُشتَق من الرُّتبة الأصلية (ف فا مف) على نحو اشتقاق البنية المفككة أو البنية المُبَأَّرة التي يتمّ فيها نقل المُكوِّنات من موقع داخلي إلى موقع خارجي، وهو في ذلك يُشبِه التبئير، ووجه الشبه بينهما يكمن في "توارث الإعراب وكذا احترام القيود الميدانية والموقع الهدف طبعا هو موقع البؤرة"[44] ويعني ذلك أنّ المُكوِّن المشغول عنه (زيدا) يتشابه مع المكون المُبأَّر في الإعراب؛ حيث يرث الحركة الإعرابية عن المصدر المنقول عنه، على نحو ما هو في التبئير، ويحترم القيود الميدانية على نحو التبئير، أي يمتنع خروجه من داخل إسقاط الجُملة إلى خارجها في حالة ما إذا كان هناك ما يمنع خروجه (المقولات التي تمنع أن يعمل ما بعدها في ما قبلها) نحو ما يدل على ذلك لحن الجُملة الثانية في مقابل الجُملة الأولى:

– زيدًا ضربته.

– ؟؟؟ زيدًا إنِّي ضربته.

ويشترك كذلك كلٌّ من المشغول عنه والتبئير في الهدف؛ حيث يقبع المُكوِّن المُبأَّر في الربض الأيمن للجملة، وعلى نحو ذلك يكون المشغول عنه إلى يمين الجُملة، ويمتنع أنْ يكون على يسارها؛ "لهذا خرَّج النُّحاة الجُملة الآتية على البدلية:

– ضربته زيدا.

وتخريج النُّحاة (زيدا) في الجُملة على البدلية لا على الاشتغال، لصعوبة تقدير فعل بعد الفعل (ضربته)"[45] إذ يتوارد بذلك عاملان لمعمول واحد (ضربت ضربت زيدا) وهو مما لا تجيزه العربية؛ إذ يُمنَع اجتماع عاملين لمعمول واحد.

وتشابه كل من المُكوِّن المُبَأَّر والمشغول عنه في نفس الخصائص، جعل الفهري يعتبِر المُكوِّن المنصوب الواقع قبل الفعل أو المشغول عنه بتعبير النُّحاة مُبأَّرا، إلاّ أنّ الضمير الذي تركه هذا المُكوِّن والذي لا يجيزه نقل التبئير؛ حيث يمتنع أنْ يترك المُكوِّن المبأر أثرا ضميريا، جعله يفسِّر نقل التبئير في هذه الجُمل على أنّه

مُشتَق من جملة بدلية، وليس مباشرة من الرُّتبة الأصلية (ف فا مف) حيث ذهب إلى أنّ" المَوْقِع المَصدَر ليس موقع الضمير، كما يتبادر إلى الذهن لأول مرة، لذا افترض أنّ النَّقل يكون من موقع مُؤاخٍ لموقع المركب الاسمي الذي يعمل فيه الفعل المفسِّر (ويوجد ضمنه العائد) وهذا يعني وجود بنية بدلية في أصل الاشتقاق، يُنقَل رأسها (أي المبدل منه) إلى موقع البؤرة، تاركا الفضلة البدلية وراءه"[46] وهو ما يعني حسب الفهري أنّ المُكوِّن المُبَأَّر إلى اليمين والمشغول عنه بالضمير بتعبير النحاة، لم ينتقل من المصدر الذي يقبع فيه الضمير (زيدا ضربته) كما قد يُتوَهَّم؛ بل انتقل من موقع مؤاخ للمركب الاسمي الذي عمل فيه الفعل المفسر (موقع الضمير) أي من البنية البدلية؛ حيث يكون الضمير والمركب الاسمي الذي سُينقَل في موقعين مؤاخيين لبعضهما البعض، نحو: ضربته زيدًا ثم بعدها يُنقَل رأس هذه البنية البدلية (زيدا) إلى الربض الأيمن للجملة؛ أي موقع البؤرة، تاركا وراءه الفضلة البدلية، لتكون البنية الناتجة عن هذا التبئير، نحو ما توضِّحه الجُملة الآتية:

– زيدًا ضربته.

ويمثل الفهري لهذا النَّوع من الاشتقاق من البنية البدلية، بالجُملة البدلية (ضربت زيدا أخاه) والمشجر الآتي[47]:

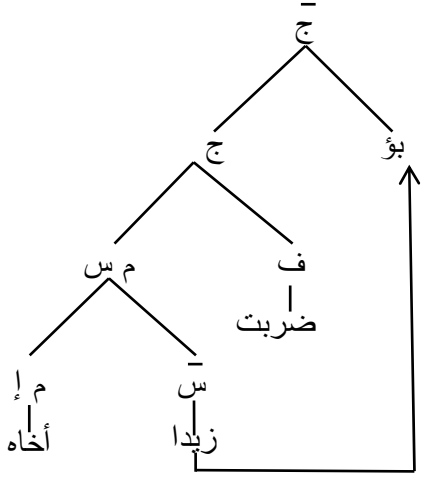

ويوضِّح هذا المشجر أنّ الجُملة البدلية (ضربتُ زيدًا أخاه) بإمكانها أنْ تبأر؛ حيث يُنقل المبدل منه إلى يمين الجُملة بعد أنْ كان في آخرها، نحو ما هو في الجملة الآتية:

– زيدا ضربت أخاه.

وما يمكن استخلاصه مما تقدم أنّ الفاسي الفهري قد انطلق في تفسير توليد البنى اللغوية في العربية، من فكرة الاشتقاق وِفْق ما جاءت به النظرية التوليدية التحويلية؛ أي أنّ كلَّ البنى اللغوية التي تجيزها العربية، مُشتقَّة من بنية واحدة هي (ف فا مف) عن طريق التّحويل الذي تُعبِّر عنه أنواع النقل الثلاثة التبئير والخفق والتفكيك، وتفسيره أخذ مُكوِّنات هذه البنى حركة الإعراب جاء بناء على أصلية هذه الرّتبة، الرّفع للفاعل والنّصب للمفعول إلغاءً لنظرية العامل. والفهري بذلك يخالف النُّحاة حول أخذ مُكوِّنات الجملة حركتها الإعرابية، بموجب عامل لفظي أو معنوي ويؤكِّد ذلك قوله: إنّ "النُّحاة القدامى اعتبروا بُنَى الابتداء والتّقديم والاشتغال بنى مختلفة، ولا شيء في تصوّرهم يُوحِّد بينها اشتقاقيا أو تمثيليا وقد وصلوا إلى مثل هذه النتيجة، اعتمادا على مقاييس عاملية محضة"[48] ويوضح قول الفهري والنموذج الذي قدّمه لقواعد اللغة العربية، أنّه لا يعتبر العامل في البنى المُبَأَّرة أو المفككة أو المخفوقة، أحد العوامل التي يراها النُّحاة (العامل اللفظي أو العامل المعنوي) بل يعتبر أنّ مكونات الجملة المخالفة لأصل الترتيب، ترث حركتها الإعرابية عن الرتبة الأصلية (إمّا حركة الفاعل أو حركة المفعول) مهما كان موقعها، على أساس أنّها مُشتقَّة من رتبة (فعل فاعل مفعول).

خاتمة: يُستنتَج مما تقدَّم في هذا العرض الموجز عن النموذج النظري الذي قدّمه الفاسي الفهري لقواعد اللغة العربية وفق نموذج النظرية التوليدية التحويلية أنّ الفهري قد انطلق **أولا:** من فرضية أنّ اللغة العربية الحالية، ليست هي اللغة التي وصفها سيبويه، وأنّها تحتاج إلى إعادة وصف وفق آليات ومعطيات جديدة

و**ثانيا:** من إثبات بنية ترتيب واحدة للغة العربية هي بنية (ف فا مف) تعكس ترتيب بنيتها العميقة، التي تُشتَق منها جميع البنى اللغوية الأخرى التي تجيزها اللغة العربية، مفسرا هذه البنى المُغيِّرة لهذه الرُّتبة بأنواع النّقل الثلاثة (التبئير والخفق والتفكيك) ومباحث التقديم والتأخير عند النُّحاة، وهو بذلك:

– أثبت بنية ترتيب واحدة للغة العربية تكون بمثابة بنية عميقة، تُشتَق منها جميع البنى اللغوية الأخرى التي تجيزها اللغة العربية، مفسرا هذه البنى المُغيِّرة للرتبة بأنواع النّقل الثلاثة (التبئير والخفق والتفكيك) ومباحث التقديم والتأخير عند النحاة، مجسدا من خلال نموذجه فكرة التحاور بين نظرية النحو العربي والنظريات اللسانية الغربية.

– قام وصفه على إلغاء فرضية العامل التي بُنيَت عليها النظرية النحوية العربية الموروثة، بناء على أنّ حركة الإعراب يُنطلق في تفسريها من مبدأ توارث الإعراب؛ أي أنّ مكونات الجملة ترث حركاتها الإعرابية عن رتبتها الأصلية (ف فا مف) مهما كان موقعها (فا ف مف–مف فعل فا–ف مف فا)

– جعل اللغة العربية المعاصرة موضوعا لدراسته اللسانية، وهو ما أخرجه عن كثير من قواعد اللغة العربية الفصحى في وصف وتفسير الظواهر اللغوية، نحو: جواز الابتداء بالنّكرة.

– قد يطرح الرّأي الذي يرى ضرورة وصف اللغة العربية المعاصرة، عدة إشكالات على مستوى التنظير والتطبيق:

على مستوى التنظير: نجد أنّ اللغة العربية القديمة واللغة العربية المعاصرة على تباين؛ من حيث الخصائص والقواعد، وعلى غرار هذا التباين سيكون هناك لا محالة تباين بين اللغة المعاصرة، واللغة التي ستأتي (لغة المستقبل) وهنا يفرض هذا الرأي الانتقال من وصف قواعد إلى وصف قواعد أخرى؛ بسبب أنّ اللغة لا

تخضع لمعيار ثابت يحكم قوانينها، وهو ما يصعِّب مهمة التقعيد للغة العربية؛ كونها تخضع لتغيّر مُستمِّر.

على مستوى التطبيق: نجد أنّ تعليم اللغة العربية المعاصرة، سرعان ما سيكون مآله نفس مآل لغة عصر سيبويه، وهو الخروج عن قواعدها؛ مما يستلزم إعادة تعليمها وفق القواعد التي آلت إليها، وهو ما يطرح إشكالية: أي لغة نُعلِّم؟ هل لغة سيبويه؟ أم اللغة السّابقة؟ أم اللغة المعاصرة؟. ويكون الأَوْلى من هذا أنْ تكون اللغة الموصوفة، هي التي تحتكم إلى معيار ثابت مستقر، يحكم بناها التركيبية والصرفية وهي اللغة العربية الفصيحة، أمّا المعجم فيبقى قائمة مفتوحة إلى مالا نهاية من الزّمن للقياس على كلام العرب، حسب ما تتطلبه الحياة العصرية من مصطلحات تعبِّر عن مستجداتها.

الهوامش:

1- عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، ط4. الرباط: 2000، دار توبقال للنشر، ج1، ص32.

2- عبد القادر الفاسي الفهري، المعجم العربي نماذج تحليلية جديدة، ط1. الدار البيضاء: 1986 دار توبقال للنشر، ج1، ص184-185.

3- عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، ج1، ص53.

4- المرجع نفسه، ج1، ص80-81.

5- تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، تر: حمزة بن قبلان المزيني، ط1. الدار البيضاء 1990، دار توبقال، ص85.

6- عبد القادر الفاسي الفهري "ملاحظات حول البحث في التركيب العربي" أعمال الندوة الجهوية التي عقدت بالرباط سنة 1987: تقدم اللسانيات في الأقطار العربية، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) ط1. بيروت: 1991 دار الغرب الإسلامي، ص71.

7- عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، ج1، ص105.

8- ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص105.

9- المرجع نفسه، ج1، ص108.

10- ينظر: عبد القادر الفاسي الفهري، البناء الموازي نظرية في بناء الكلمة وبناء الجُملة، ط1. الدار البيضاء: 1990، دار توبقال للنشر، ص56.

11- المرجع نفسه، ص57.

12- عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، ج1، ص134.

13- المرجع نفسه، ج1، ص135.

14- عبد السلام شقروش، النظرية التوليدية التحويلية وأثرها في البحث اللساني العربي، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم، إشراف: رابح بوحوش، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار –عنابة، الجزائر: 2013 ص102-103.

15- عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، ج1، ص114.

16- المرجع نفسه، ج1، ص114-115.

17- المرجع نفسه، ج1، ص115.

18- المرجع نفسه، ج1، ص116.

19- المرجع نفسه، ج1، ص116-117.

20- المرجع نفسه، ج1، ص117.

* تعني المركبات الاسمية المركبات التي يكون الاسم رأسا لها، نحو المركب الموصول والمركب الإضافي، والمركب الذي يتصدره اسم الاستفهام، وهي عجر سلكية؛ لأنّها تجتمع في سلك واحد يكون رأسها اسما.

21- ينظر: عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، ج1 ص117.

22- المرجع نفسه، ج1، ص117.

23- ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص119.

24- المرجع نفسه، ج1، ص118.

25- المرجع نفسه، ج1، ص118.

26- المرجع نفسه، ج1، ص118.

27- عطاء محمد موسى، مناهج الدرس النحوي في العالم العربي في القرن العشرين، ط1. عمان: 2002، دار الإسراء للنشر والتوزيع، ص266.

* الأفعال الجسور هي التي تُعرَف في نحونا العربي بأفعال القلوب؛ أي التي تَقلِب اسمين أصلهما مبتدأ وخبر مفعولين وجملة هذه الأفعال: أفعال اليقين، وأشهرها سبعة: علِمَ، رأى، وجَد، دَرَى ألفَى، جَعَل، تعلَّم، بمعنى: اعلم. وأفعال الرجحان وأشهرها ثمانية: ظنّ، خال، حسِبَ، زعم، عَدَّ حَجَا، جعل، هبْ. (ينظر: عباس حسن، النّحو الوافي، ج2، ص9)

28- عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، ج1، ص119.

29- المرجع نفسه، ج1، ص119.

30- المرجع نفسه، ج1، ص118.

31- المرجع نفسه، ج1، ص119.

32- ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص121.

33- المرجع نفسه، ج1، ص121.

34- المرجع نفسه، ج1، ص123-124.

35- المرجع نفسه، ج1، ص124.

* جاء في لسان العرب "أَصل العُجَر العُرُوق الْمُتَعَقِّدَةُ فِي الْجَسَدِ" (ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج4، مادة عجر ص552) ويدلّ بهذا مصطلح العجرة في اللغة على ما اجتمع في مكان واحد، وقد استعمل الفهري مقولة العُجرَ الأخوات بالنسبة للمركبات التي يمكن أنْ تجتمع في مكان واحد في المُشجَّر مشكلة عجرة، نحو: المركبات الاسمية، والجمل الفعلية والجُملَ المُدمجَة، التي تجتمع فيها مكوناتها مشكلة عجرة واحدة، تَكونُ المُكوِّنات المُنتميَّة إليها عجرا أخوات.

36- عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، ج1، ص124.

37- المرجع نفسه، ج1، ص124.

38- المرجع نفسه، ج1، ص124.

39- المرجع نفسه، ج1، ص127.

40- المرجع نفسه، ج1، ص28.

41- المرجع نفسه، ج1، ص130-131.

42- عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، ج1، ص131.

43- محمد بن عبد الله ابن مالك الطائي الجياني أبو عبد الله جمال الدين، شرح الكافية الشافية تح: عبد المنعم أحمد هريدي، ط1. الرياض: دت، جامعة أم القرى، ج2، ص614.

44- ينظر: عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، ج1 ص144.

45- ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص146.

46- المرجع نفسه، ج1، ص144.

47- المرجع نفسه، ج1، ص145.

48- المرجع نفسه، ج1، ص142.

النظرية الخليلية الحديثة

أ. محمد الأمين قادري

جامعة مولود معمري، تيزي ــ وزو

يساورني كثير من التفاؤل بأن اللّغة التي نزل بها القرآن الكريم، وتشرفت بأن تكون وعاءً لأسراره وبيانه ستنهض وتنافس لغات العالم العلمية، ولن يكون هذا إلا بجهد أبنائها الباحثين؛ وقد جاءت محاولاتٌ كثيرةٌ تَتْرا في هذا المجال، وأبرزها ما كان منفتحاً على الدراسات الغربية الحديثة، بل وصل البعض منها إلى نتائج تزعم أن الدراسات اللغوية العربية في بداياتها لم تقم على أسس معيارية، بل اتسمت **بالمنهج الوصفي** حقبة من الزمن إلى غاية ما بعد القرن الرابع للهجرة، حينما طالب بعض اللغويين بتيسير النحو، فاعتمدوا في ذلك على مبدأ الخطأ والصواب.

ومن أشهر هذه الدراسات ما يعرف **بالمدرسة الخليلية الحديثة** التي يتزعمها الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، والذي عكف على دراسة التراث العربي القديم وما ضبطه الخليل بن أحمد الفراهيدي من قوانين وأصول لتحميَ اللغة من الزيغ واللحن اللذين يهددانها.

المدرسة الخليلية الحديثة: لقد أردت أن أقف قليلاً عن المنهج الذي اتسمت به المدرسة الخليلية في مرحلة تأسيس النحو، ووضع قواعده وأصوله، قبل الخوض في المفاهيم الأساسية التي قامت عليها هذه المدرسة، عسى ان استدرك بعض الأحكام المطلقة التي طالما سمعناها عن لغتنا، وعن عجزها في مواكبة التطورات اللسانية الحديثة، بسبب البُنى التركيبية الجامدة لها، أو الطابع المعياري الذي تتسم به.

وقد اجتهد مؤسس هذه المدرسة الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح مستفيداً من الدراسات اللسانية الحديثة وما وصلت إليه من نتائج، فوظف هذا الامر في سبر

أغوار تراثنا اللغوي، وكشف خصائصها، لندرك أن منهج الخليل ومعه بعض النحاة الأولين قد اتسم بالوصف، وذلك من خلال الركائز التي أُعتمدت في جمع المادة اللغوية وضبطها، سواءً ما تعلق ب:

ــ الاستعمال؛

ــ الاستقراء والتعليل؛

التصنيف.

وتُعَدُّ هذه الأمور من أبرز الأسس التي يقوم عليها المنهج الوصفي، وليس غريباً أن نجد من النتائج والمعارف التي توصلت إليها الدراسات اللسانية الغربية الحديثة ما هو موجود في تراثنا العربي القديم، ونذكر في هذا المجال مقاربة الدكتور صالح بلعيد بين الجرجاني وتشومسكي[1]، وكذلك مقاربة الدكتور صحراوي بين نتائج اللسانيات التداولية وجهود الرضي[2]في هذا المجال.

أعود فأقول أن النحو العربي في بداياته عرف ارهاصات المنهج الوصفي، ولم يجنح إلى المعيارية إلّا بعد القرن الرابع للهجرة بسبب حركة نحوية ظهرت ودعت إلى تيسير النحو العربي بناءً على نقد كتاب "الكتاب" لسيبويه (ت 180 هــ)، ومن أشهر هؤلاء النحاة أبو اسحاق الزجاجي (ت311 هــ)، وأبو الفتح ابن جني (392هــ) وأبو بكر محمد بن بشار الأنباري (ت382 هــ)، فالمتأمل في اتجاه اللغويات العربية المعاصرة في تقويمها للتراث العربي يلحظ أنه اتجاه نقدي قائم على الحديث عمَّا فيه من معيارية وفلسفة[3]، إضافة إلى أنه ذو بنى تركيبية جامدة، وهذه الاحكام لا يمكن التسليم بها إلا في ما تعلق بمرحلة النحو بعد القرن الرابع للهجرة (مرحلة تيسير النحو).

المفاهيم الأساسية في المدرسة الخليلية الحديثة:

1ــ الاستقامة والاستحالة: اخترت أن أبدأ بمفهوم الاستقامة والاستحالة حتى يتبين ما يُعدُّ كلاماً مستقيماً، وما يعدُّ من المحال، فتخضع المفاهيم اللاحقة إلى هذا

المنطق العقلي الرياضي؛ حيث يميز سيبويه في (الكتاب) بين السلامة الراجعة إلى اللفظ، والسلامة الراجعة إلى المعنى ومن ذلك:

ـ **المستقيم الحسن:** نحو: أتيتك أمس.

ـ **المحال:** نحو: أتيتك غداً.

ـ **المستقيم القبيح:** نحو قولك: كي زيداً أخاطب. (وهو أن تضع اللفظ في غير مكانه).

ـ **المحال الكذب:** نحو: سوف أشرب ماء البحر البارحة.

ومن ثم جاء التمييز المطلق بين اللفظ والمعنى، ومعنى ذلك أن اللفظ إذا حُدد أو فُسّر باللجوء إلى اعتبارات تخص المعنى فالتحليل هو تحليل معنوي، أما إذا حصل التحديد والتفسير على اللفظ دون أي اعتبار للمعنى فهو تحليل نحوي، والخلط بينهما – كما يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح – يعتبر خطأ وتقصير "وقد بنى على ذلك النحاة أن اللفظ هو الأول، لأن هو المتبادر إلى الذهن أولا ثم يفهم منه المعنى ويترتب على ذلك أن الانطلاق في التحليل يجب أن يكون من اللفظ في أبسط أحواله[4]".

2.**العامل:** يُعدُّ العامل، أو العامل النحوي الفكرة الجوهرية التي تأسست عليها نظرية النحاة العرب، فكل حركة من الحركات الإعرابية التي تظهر على أواخر الكلم، وكذلك كلُّ تغيير يحدث في المبنى والمعنى، إنما يجيء تبعاً لعامل معين فأساس هذه النظرية أنه إذا كان أحد الأجزاء في التركيب طالباً للآخر من حيث المعنى فإنه من يتشبث به لفظاً "وعلى هذا يتبين أن المقصود من القول بالعامل هو بيان الارتباط، والتعلق بين أجزاء التركيب والأثر الذي ينشأ من هذا التعلق".

وينطلق النحاة في هذا المستوى من أقل ما يمكن أن ينطق به البشر ويكون مفيداً، فيحملون (حمل الشيء على الشيء) أقل ممَّا هو أكثر من لفظة، وينطلقون من الجملة التي تتكون من عنصرين نحو:

زيد منطلق، ثم يشرعون في تحويلها بالزيادة وفي بناء الجملة "لا يمكن بناء الألفاظ إلا بعامل ظاهر أو مقدر يتحكم فيه لفظاً أو معنى".

وقوله **لفظاً** ويقصد بها تغيير أواخر الكلم، أما **معنى** أي تغيير المعاني وأمثلة ذلك:

أ ــ على مستوى الجملة الاسمية: عند قولنا:

ــ **زيدٌ منطلقُ**(الأصل)، فالمعنى هنا هو الإخبار (عن الانطلاق).

ــ **كان زيدٌ منطلقاً** (الفرع)، فالمعنى هنا يدل على المضي (في الانطلاق).

ــ **إنَّ زيداً منطلقٌ** (الفرع)، فالمعنى هنا يدل على التوكيد (في الانطلاق).

وتجدر الإشارة إلى أن العامل في الجملة الاسمية إما أن يكون:

1 ــ مُقدَّر: ونقصد به الابتداء (العلامة العدمية) ويكون في **الأصل /الجملة النواة.**

2 ــ ظاهر: ويتجلى ذلك في النواسخ.

ب ــ الجملة الفعلية: لاحظَ النحاة أن الجملة الفعلية تسير على نفس النمط للجملة الاسمية، مع أخذ الاعتبار أنه قد تتخذ معمولين فأكثر.

ويقول الدكتور صالح بلعيد في كتابه (في أصول النحو): "نال العامل عند النحاة قيمة وأهمية نظراً لما يحدثه من أثر لفظي أو معنوي في السياق الكلامي الذي يرد فيه، ومن ذلك رأى بعض الباحثين بأنّ نظرية العامل نظرية مستقلة في النحو العربي، وكان منطلقها الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي أرسى مبادئها في:

ــ عامل ينتج عن عامل لفظي (عامل معنوي).

ــ معمول ينتج عن الظاهر المحذوف (عامل لفظي).

ومن هذين العاملين يمكن تفريع العوامل المتنوعة، وعلى العموم فإنَّ النظرية النحوية في هذا المجال ترسو بعد ذلك في أسس محكمة؛ حيث تتفرع إلى قضايا الإعراب والبناء، وتوزيع الأبواب باعتبار العوامل: الأفعال/الأسماء/الحروف[5]".

إذاً العامل في النظرية الخليلية الحديثة هو محور التركيب؛ أي المهيمن (باعتبار نواة الكلام)، فهو سبب الحركة الإعرابية، وهو سبب الآثار الصوتية التي تعكس العلاقات الإرادية، فهناك علاقة رياضية تحكمه وعناصره هي:

كل عامل = حالة إعرابية

كل حالة إعرابية = علامة إعرابية

إذاً **العامل = علامة إعرابية = الأثر الصوتي**

علاقة العامل بمعموليه: يرى الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح استحالة تقدم المعمول الأول على عامله مهما كان، فإذا تقدم تغيرت بنية الجملة دون معناها الوضعي، فالعلاقة بين العامل ومعموله الأول **تراتبية**، فلا يمكن مثلاً أن يتقدم الفاعل (معمول أول) على الفعل (عامل)، فإن قلنا: **قام عبد الله.** فلا يجوز تقديم عبد الله وتبقى في محلها الإعرابي فاعلاً[6]

أما المعمول الثاني فيجوز أن يتقدم على جميع العناصر، اللهم في حالة الجمود نحو قولنا:

إنَّ في الدار زيدا. فلا يجوز أن نقول: **في الدار إنَّ زيداً.**

أما المخصصات (وهي جميع المفاعيل ماعدا المفعول به، والحال والتمييز وغير ذلك) فهي تدخل على العامل وتخرج كما هو الشأن في الزوائد التي تسبق أو تلحق باللفظة، فالمخصصات تربطها بالبناء **علاقة وصل.**

"إنَّ نظرية العامل التي يطالب كثير من النحاة المعاصرين بإلغائها هي اقرب نظرية غلى الصواب، ولجأ إلى هذا المفهوم أيضاً تشومسكي، وقد قارن الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح بين نظرية العامل في النحو العربي والنظرية الغربية المسماة بالتبعية النحوية فقال: "إنَّ النظريتين تتفقان في تجاوزهما للتحليل التقطيعي البسيط المؤدي إلى تحديد المكونات باندراجها بعضها في بعض[7]".

3 ــ الانفصال والابتداء: يقول الخليل بلسان تلميذه: "إنه لا يكون اسمٌ مظهر على حرفٍ أبداً، لأن المظهر يسكت عنده، وليس قبله شيء، ولا يلحق به شيء".

فالمنطلق هو كل ما ينفصل ويبتدأ، وهي صفة الانفراد، وقد سمَّاها النحاة الأولون **الاسم المفرد** أو **ما بمنزلته**

وأطلق عليها ابن يعيش مصطلح (**اللفظة**)، وهو ما تبناه النحو الخليلي، فاللفظة في اللسانيات الخليلية عمادها الوقف والابتداء، فهي أقل ما ينطق به مما ينفصل فيسكت عنده، ولا يلحق به شيء.

ومن نماذج الانفصال والابتداء ما يلي:

1.**ماينفصل ويبتدئ:** مثل لفظ (الرئيس) نحو قولنا: (جاء الرئيس) و(الرئيس جاء).

2 ــ ما ينفصل ولا يبتدئ: مثل ظمير(تاء الفاعل) و(نا المضاف إليه) نحو قولنا: خرجتُ، كتابنا.

3 ــ ما يبتدئ ولا ينفصل: مثل حرف الجر نحو قولنا: (في التأني السلامة).

وانطلاقاً من التصور السابق لمفهوم اللفظة يحدد الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح الزيادة والتعاقب الذي يحدد الوحدة.

فالزيادة قبل الأصل تكون ب:

1 ــ (ال) التعريف: (الـــ) كتاب.

2 ــ حروف الجر: (بـــ) كتاب.

أما الزيادة بعد الأصل تكون ب:

ــ العلامة الاعرابية (الحركات والحروف)؛

ــ الإضافة؛

ــ الصفة.

إنَّ الانفصال والابتداء يُمَكِّن الباحثَ من استكشاف الحدود الحقيقية التي تحصل في الكلام. ومن خلال هذا نستنتج أنَّ الحدَّ الذي يتميز به الاسم (كتاب مثلاً) لفظي ليس إلا، أما الجر والتنوين والنداء والإسناد والإضافة فكلها زوائد تتدرج في حد الاسم في اللسان العربي، وأما الفعل فإنه تتصل به زوائد تغير بنائه، وتحوله إلى

قطعة لغوية جديدة قابلة بدورها للانفصال فالابتداء كتاء التأنيث، ونون النسوة وأداة الجزم والنصب وأحرف المضارعة.

4 ــ مفهوم الوضع والعلامة العدمية: الموضع في النحو الخليلي شيء ،وما يحتوي عليه شيء آخر؛ حيث يمكن أن يكون فارغاً فخلو الموضع من الكلمة شبيه بالخلو من العلامة، أو ترك العلامة، وهو ما اصطلح على تسميته بالعلامة العدمية وهو مفهوم موجود في اللسانيات الحديثة.

فالمواضع هي خانات تُحددُ بالزيادة التدريجية؛ إذ تمثل هذه الزيادات التحويلات التفريعية التي يتم من خلالها الانتقال من الأصل إلى مختلف الفروع أو العكس(رد الفروع إلى أصلها) ومن أمثلة ذلك ما يظهر بالتحويل التفريعي في داخل المثال المولد للفظة (رجل، الرجل، بالرجل، رجل الغد، رجل قام ابوه أمس) فكل هذه تعد عبارات متكافئة، ولا يخرجها ذلك عن كونها لفظة، وبهذه العمليات التحويلية الخليلية يتحدد موضع كل عنصر في داخل المثال كما في الرسم التالي[8]:

حرف جر	أداة التعريف	**النواة الاسمية**	علامات الاعراب	التنوين والإضافة	الصفة
2	**1**	**0**	**1**	**2**	**3**

وكما ذكرنا فإن هذه المواضع قد تكون فارغة أي خالية من العنصر، وهذا الخلو من العنصر مع بقاء أو ثبات الموضع هو ترك للعلامة ويطلق عليها الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح **بالعلامة العدمية** وهي التي تختفي في موضع لمقابلتها لعلامة ظاهرة في موضع آخر، كجميع العلامات التي تميز الفروع عن اصولها مثل:

ــ علامة المذكر العدمية يقابلها علامة ظاهرة في المؤنث (عالم ــ عالمة).

ــ علامة الابتداء العدمية تقابلها علامة لفظية ظاهرة.

فالنحاة العرب كما يقول الدكتور الحاج صالح ينطلقون في اللفظ في ظاهره ولكن لا يتناولون الكلام جملة جملة وقطعة بعد قطعة.

5 ــ مفهوم الأصل والفرع: يقول د.الحاج صالح: "وهذا المفهوم ــ مفهوم التفريع على الأصول ــ قلما انتبه إلى خطواته اللغويون المحدثون، وهو مفهوم يوجد في أصول الفقه إلا انه عند النحاة لأعمق بكثير، ويمكن أن نقول: إنه المفهوم الذي يبنى عليه النحو العربي كله، بل علوم العربية، وهو مرتبط بالحدود الإجرائية أي المثل (يسميها بعضهم الآن أنماطا) التي تتفرع عليها الفروع.

فَأَعْــرفُ هذه المثل وأشهرها هي الموازين الصرفية، لكن لم ينتبه الناس إلى وجود مثل هذه المثل في المستويات العليا[9]".

والسؤال هنا، **كيف نحكم على عنصر لغوي أنه هو الأصل، أمّا البقية فهي فروع عليه؟**

إن الأصل هو العنصر الثابت الذي يوجد في جميع حروفه بكيفية إيجابية أو سلبية، فالفروع هو الأصل مع الزيادة، ويمكن أن نضعه على شكل معادلة:

الفرع = الأصل + عنصر غير مستمر (الزائد)

ــ فالمذكر أصل، والمؤنث فرع.

ــ والمفرد أصل، والجمع فرع.

ــ والنكرة أصل، والمعرفة فرع.

6 ــ القياس: يتساءل د. عبد الرحمن الحاج صالح عن مجيء لفظة (قياس) على لسان النحاة العرب:

ــ على أي شيء بالضبط يطلق النحاة العرب هذا اللفظ؟

من خلال ما ورد من لفظة (قياس) في كتاب سيبويه، وما قاله الرماني في شرحه للكتاب[10]، نستنتج أن للقياس علاقة بمفهوم الباب ومفهوم النظائر... والنظير غير التشبيه، بل المتفق في البناء وهذا التوافق هو الذي يسميه النحاة قياسا "وتسمية بعضهم نوعاً من القياس قياس الشبه شيء ممتنع عند النحاة الأولين، لأن

القياس كله قياس نظائر عندهم ولا يبنى أبداً على مفهوم الشبه، لأن الشبه شيء مبهم غير دقيق".

والقياس هو تلك العملية المنطقية الرياضية التي سميناها تفريعاً عن الاصل على مثال سابق، وهذا التفريع لا يجوز إلا إذا اطّرَد الباب، وإذا لم يطّرد فيقاس على الاكثر؛ أي على الصيغة الغالبة في الباب وفي الاستعمال (وفي الاستعمال وحده)، فما أبعد هذا القياس عن القياس الأرسطي الذي هو عبارة عن صياغة الاستدلال الشمولي؛ فقياس الشمول كما يسميه ابن تيمية وهو أن تبرهن على صحة قولك: (سقراط مائت) بإدراجك إياه في فئة الناس، وإدراجك هؤلاء في فئة المائتين، فهذا الاستدلال الاندراجي ينتمي إلى القسمة الأفلاطونية، لا إلى قسمة التركيب العربية.

لهذا يعتبر الكثير من الدارسين أن مفهوم القياس في اللغة غير مفهومه في النحو فقد تأثر بعلم الكلام ثم الفلسفة، وصار الجامع فيه العلة، ومفهوم العلة موجود في النحو العربي الأصيل، "اعلم ان علل النحويين وأعني بذلك حذائقهم المتقنين، لا ألفاههم المستضعفين أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين.[11]..".

أهمية القياس: القياس عملية فطرية، أثبت البحث الحديث في ميدان اللغويات أن اكتساب اللغة يقوم على أساسها، فالقياس عملية إبداعية يمدُّ اللغة صيغا وتراكيب لم تكن موجودة من قبل، ويجعلها تواكب التطور.

7 ــ التمييز الحاسم بين النظرة إلى الكلام كخطاب والنظرة إليه كبنية:

إن سيبويه والخليل وكثير من النحاة القدامى قد انفردوا بنظرية اندثرت بعدهم وصارت بعد غزو المنطق اليوناني خاصة، لا يتفطن إليها إلاّ الأفذاذ من النحاة ومن أهم المبادئ التي بنيت عليها هذه النظرية نذكر تمييزهم الصارم في تحليلهم للغة بين الجانب الوظيفي من جهة (وهو الإعلام والمخاطبة؛ أي تبليغ الأغراض المتبادل بين ناطق وسامع)، وبين الجانب اللفظي الصوري من جهة أخرى (ما يخص اللفظ بذاته وهيكله بغض النظر عما يؤديه من وظيفة في الخطاب).

يقول د/ عبد الرحمن الحاج صالح: إن من مظاهر الأصالة والإبداع في الفكر النحوي الخليلي هو تمييز القدماء بين جانبين اثنين، عند تحليلهم للغة، ليس بينهما أي تناظر، ويتمثل هذان الجانبان في:

1 – الجانب اللفظي الصوري الذي يخص اللفظ في ذاته وهيكله وصيغته، أي المعنى الموضوع له بقطع النظر عما يؤديه من وظيفة في الخطاب غير الدلالة الوضعية (دلالة اللفظ).

ومعلوم أنه لا فائدة إلا إذا كان الكلام تاما، أما الكلم المفردة فلا تتعلق بها الفائدة وإن تعلقت بها الدلالة على معنى مفرد (لفظي). قال الزجاجي: "الاسم يدل على مُسماه... ولا يحصل منه فائدة مفرداً حتى نقرنه باسم مثله، أو فعل أو جملة، وإلا كان ذكرك له لغواً وهذراً غير مفيد، وكذلك الحرف إذا ذكرته دلَّ على المعنى الموضوع له، ثم لم تكتمل الفائدة بذكرك إياه حتى تقرنه بما تكمل به فائدته، فهو والاسم في هذا سواء".

فالكلمة سواء كانت اسما أو فعلا، تشمل وحدات دنيا دالة، هي المادة الأصلية والصورة (أي الوزن والصيغة).

مادة (ف.ت.ح) التي تدل على الحدث(المعنى الوضعي).

فكلمة "**مفتاح**"

مثلا تتكون من

صيغة (مفعال) التي تدل على اسم الآلة.

وكذلك ضرَبَ، وضَارِب، ومَضْرُوب، تتكون من مادة أصلية هي (ض.ر.ب) التي تدل على الحدث (الضرب) في الوضع اللغوي، ومن أوزان أو صيغ هي:

- **فَعَلَ** التي تدل على حدث منقطع.
- **وفَاعِل** التي تدل على اسم الفاعل.
- **مَفْعُول** التي تدل على الذي وقع عليه الفعل (اسم المفعول).

2 – جانب الخطاب: ويتمثل في كيفية استعمال تلك الألفاظ ومدلولاتها في عملية الإفادة، أي الإعلام والمخاطبة وتبليغ الأغراض بين ناطق وسامع في موقف اجتماعي حيّ يُعتبر المتكلم جزءا منها[12].

8 ــ الحذف والإضمار للاختصار أو عدم المخاطب رؤية الحال: يقول سيبويه: قال تعالى: ﴿طاعة وقولٌ معروف﴾ [محمد:21]. فهو مثله أمّا أن يكون أضمر الاسم (المبتدأ) وجعل هذا خبره كأنه قال: أمري طاعةٌ وقولٌ معروف. أو يكون أضمر الخبر فقال: طاعة وقول معروف أمثل[13].

ويقول: وحذفوا كما قال: (حينئذٍ الآن) وإنما يريد حينئذٍ واسمع الآن.

وإنما أُضمر ما كان يقع مظهراً استخفافاً، ولأن المخاطب يعلم ما يعني فجرى بمنزلة المثل، كما نقول:

(لا عليك)، وقد عرف المخاطب ما تعني أنه (لاباس عليك)، ولكنه حُذف لكثرة هذا في كلامهم ولا يكون هذا في غير (لا عليك).

ويقول: "بعض العرب الموثوق به يقال له: كيف أصبحت؟ فيقول: حمدٌ لله وثناءٌ عليه كأنّه يحمله على مظمر في نيته هو المظهر، كأنه يقول: أمري وشأني حمدُ الله وثناءٌ عليه[14].

وخاتمة القول: إنَّ المدرسة الخليلية الحديثة تعدُّ تجربة رائدة في اثبات مفاهيم لسانية تراثية تنافس بها الدراسات الغربية الحديثة، تتسم بالموضوعية والشمولية والاستدلال العقلي القائم على المنطق الرياضي السليم واعتقد أن كل غيور يسعى للنهوض باللغة العربية سيفخر بهذه النظرية الرائدة، ويزداد يقيناً أنَّ اللغة لن تتطور إلا بجهود أبنائها.

الهوامش:

1ــ صالح بلعيد، التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الامام عبد القاهر الجرجاني، ط1. الجزائر:1994، ديوان المطبوعات الجامعية، ص214.

2 ــ مسعود صحراوي، التداولية عند العرب، ط1. بيروت: 2005، دار الطليعة للطباعة والنشر ص19.

3 ــ نابي نسيمة، مناهج البحث اللغوي عند العرب في ضوء النظريات اللسانية، إشراف: أ.د. صالح بلعيد، جامعة تيزي ــ وزو، 2010 (رسالة ماجستير)، ص52.

4 – الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، النظرية الخليلية الحديثة، الجزائر:2007، دار هومة ص31.

5 ــ صالح بلعيد، في أ صول النحو، ط2. الجزائر: 2008، دار هومة للطباعة والنشر، ص 72.

6ــ المبرد، المقتضب، ط1. القاهرة: 1994، تح: عبد الخالق عظيمة، وزارة الأوقاف للنشر ج4/ص128.

7ــ التواتي بن التواتي، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، ط2، الجزائر: 2008، دار الوعي، ص119.

8 ــ ينظر مقالة الدكتور محمد الصالح الصاوي، المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية، جامعة عنابة، موقع الشابكة: منتدى مجالس الفصحى للغة العربية وآدابها بتاريخ:22-1-2041

9 ــ أبو البقاء العكبري، مسائل خلافية في النحو، ط3. القاهرة:2007، مكتبة الآداب للنشر، ج1/ ص79.

10ــ ابو علي العيسى الرماني، شرح كتاب سيبويه، تح: محمد ابراهيم يوسف شيبة، جامعة أم القرى: 1984، ج1/ص141.

11 ــ ابن جني، الخصائص، تج: علي النجار، ط3. القاهرة: 198، دار الكتب المصرية، ج1/ ص48.

12 ــ محمد الصالخ الصاوي، المفاهيم الأساسية للنظرية الخليلية، جامعة عنابة.

13 ــ ابو بشر عمر بن قنبر(سيبويه)، الكتاب، ج1/ص141

14 ــ المرجع نفسه، ص319.

نحو اللّغة العربية من المنظور التداولي لأحمد المتوكّل

أ. نصيرة كتّاب

جامعة مولود معمري، تيزي وزو

كانت الدراسات اللّغوية تنظر إلى جميع اللّغات البشرية مجموعة من البُنى المجردة؛ أي أنساقا مجردة، وبخاصة الدراسات اللّسانية، فلا يمكن وصفها بمعزل عن وظيفتها التواصلية، في حين أنّ الدراسات اللّسانية الحديثة؛ أي التداوليات تنظر إلى اللّغات البشرية بنيات تُحدّد خصائصها في ظروف استعمالها كإطار لوظيفتها الأساسية، المرتبطة بالمقام أي بمختلف الظروف المقامية التي تُنجز فيها الجُمل، ولهذا قام أحمد المتوكّل بتطبيق المنهج التداولي على مكونات اللّغة العربية ومن جملة الخصائص لنحو اللّغة العربية المسندة إليها الوظائف التداولية التي أوردها في شكل علاقات تداولية قائمة بين مكونات الجملة (المبتدأ، والذيل والبؤرة والمحور والمنادى) والعلاقات الدلالية (منفذ ومتقبل ومستقبل) والعلاقات التركيبية (فاعل ومفعول) ومن هنا آثرت أنّ أطرح الإشكالية الآتية: **ما هي أبعاد المحتوى الفكر التداولي لأحمد المتوكل، وكيف ساهم في قراءة نحو اللّغة العربية قراءة تداولية؟** وإنّ هذه الأفكار تمثل لبنة أولى تُمكّن من إعادة قراءة الفكر اللّغوي العربي القديم، قراءة تداولية، واستثماره في وصف اللّغات الطبيعية.

أولا: تقديم أحمد المتوكّل: يعدّ أحمد المتوكّل من العلماء المحدثين الأفذاذ، وكان مختصًا في اللّسانيات والتداولية احتك بالعلوم الغربية الحديثة، وتعمق في دراساتها اللّغوية، أين نضج فكره، وتمكّن من تطبيق العلوم الغربية على نحو اللّغة العربية؛

وأبرز فكره في مؤلّفه (الوظائف التداولية في اللّغة العربية) وفيها قدّم تصورات جديدة للنّحو العربي. ويقول يمكننا عقد الحوار بين الفكر اللّغوي العربي القديم والنّحو الوظيفي، وإنّ "موضوع هذا البحث دراسة خصائص المكونات المسندة إليها الوظائف التداولية المبتدأ والذيل والمحور والبؤرة والمنادى، ولا يمكننا الحديث عن الوظائف التداولية من دون الحديث عن الوظائف الدلالية والوظائف التركيبية؛ حيث" تم بناء وظيفة الجملة بواسطة تطبيق قواعد إسناد الوظائف التي تتخذ دخلا لها البنية الحملية، كما حدّدنا بناءها آنفا وتُسند قواعد إسناد الوظائف التركيبية أولا ثم الوظائف الدلالية ثانيا وأخيرًا الوظائف التداولية"[1] وسنحاول توضيحها في الشكل الآتي:

بنية النحو الوظيفي:

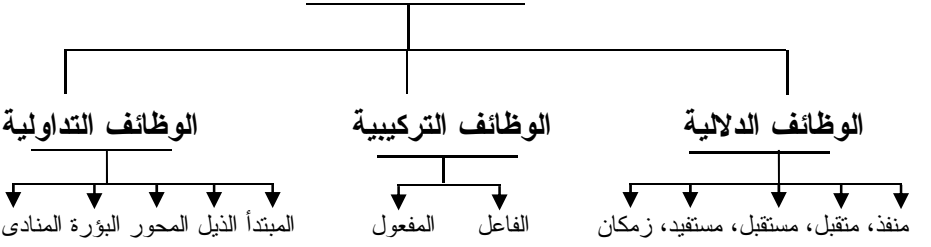

لقد قام أحمد المتوكل بتحديد البنية الدلالية (المعجمية) التي يتأسس عليها الكلام وسمّاها بالمحمولات وكل محمول يستدعى حدود وهي (منفذ ومتقبل ومستفيد وزمان ومكان...) أي كلّ لفظة تحمل دلالة في ذاتها، والوظائف التركيبية التي من خلالها يبنى النص، وينسج فيها على منوالها لتحقيق دلالة، وأسسها على سلميتين لا أكثر وهي (الفاعل والمفعول) وإنّ الدلالة لا تتوقف في الدلالة المعجمية وفي ترابط النص واتساقه بل يجب ربطه بالظروف المحيطة به حتى نتبين أكثر الأثر النحوي

لفحوى الدلالة، وهذا من خلال الوظائف التداولية (المبتدأ والذيل والمحور والبؤرة والمنادى) وسنقوم بشرح مفصل لكلّ هذه المفاهيم فيما سيأتي:

ثانيا: بنية النحو الوظيفي لأحمد المتوكّل: يتضمن تصورات المحتوى الفكري التداولي الذي قدّمه للغة العربية، وفق هذه الوظائف:

1- الوظائف الدلالية: التي حدّدها على النحو الآتي "منفذ، ومتقبل، ومستقبل ومستفيد"[2] فالجملة تتكون من محمول وحدود؛

أ- المحمول: يدل على واقعة، والوقائع أربعة أصناف؛ هي:

أعمال: شرب؛

أوضاع: جلس؛

حالات: مرض؛

أحداث: أوقف.

ب – الحدود: وهي حدود الموضوعات، وهي التي تُسهم في التعريف بالواقعة مثل ما توضحه الأمثلة الآتية:

شرب أحمـــد الماء / جلس زيدٌ؛/ مرض زيدٌ؛/ أوفقت العاصفة السير/

محمول حد1 حد

	وحدود اللّواحق:
شرب (أحمد الماء)	(في المقهى مساءً)
حـــ1 حـــ2	حـــ3 حـــ4
والموضوعات تعرف بالواقعة	أما **اللّواحق** فتحدّد ظروف الواقعة أو تخصّصها؛

شرب (محمول) عمل/أحمد: مُنْفِذ/ الماء: مُتقبل/المقهى: مكان/مساء: زمان.

الأوضاع: جلس أحمد	**الحالات: مرض أحمد**
وضع متوضع	حالة حائل

أوقفت الزوبعة السير	**سرتُ وزيدا مصاحب.**
حدث قوة	متقبل (عمل + منفذ)
جئتُ طلبا للعلم	**سرتُ سيرا حثيثا**
(عمل+ منفذ) علـــة الواقعة	حدث ثاني عمل
أعطى زيدٌ خالدًا الكراس	**اشترى محمدٌ سيارةُ للزيدٍ.**
منفذ مستقبل متقبل	عمل منفذ متقبل مستفيد

والوظائف الدلالية للمحمول هي: حدث، وضع، حالة، عمل؛

والوظائف الدلالية للحدود هي:

أ- **الحدود الموضوعات:** المنفذ، المتقبل، المستقبل، المستفيد؛

ب- **الحدود اللّواحق:** الزمان، المكان، المصاحب، العلة، الحدث.

2- **الوظائف التركيبية:** وتقتصر نظرية النّحو الوظيفي التي قدّمها أحمد المتوكّل على وظيفتين تركيبيتين لا أكثر. هما وظيفتا: "الفاعل (subjectif) والمفعول (Object)"[3] حيث تُسندُ هذان الوظيفتان إلى المكونين اللذين يأخذا الوظائف الدلالية السُلَمِيَتَان الآتيتان:

- سُلميةُ إسناد الوظيفة التركيبية الفاعل[4]:

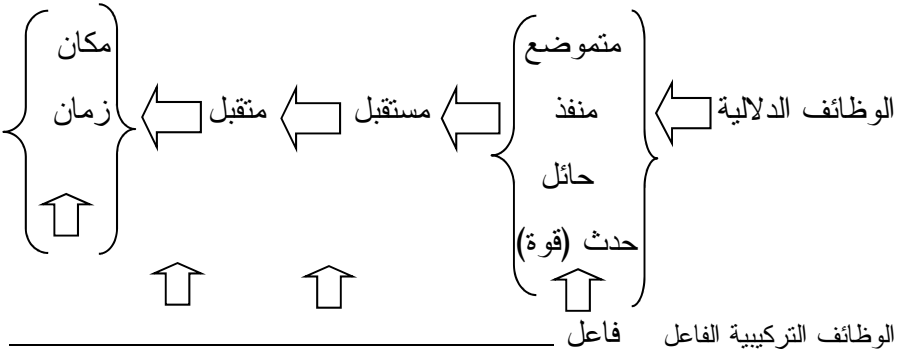

وتوضح سلمية إسناد الوظيفة التركيبية الفاعل، في أنّها تُسندُ إلى الوظائف الدلالية (المتموضع أو المنفذ أو الحائل أو القوة) مثل: أعطى زيدٌ خالدًا الكراس

منفذ مستقبل متقبل

وفي حالة بناء الفعل للمعلوم، وتُسندُ الوظائف الدلالية إلى (المستقبل أو المتقبل أو الزمان أو المكان أو الحدث) في حالة بناء الفعل للمجهول.

– سلمية إسناد الوظيفة التركيبية للمفعول:

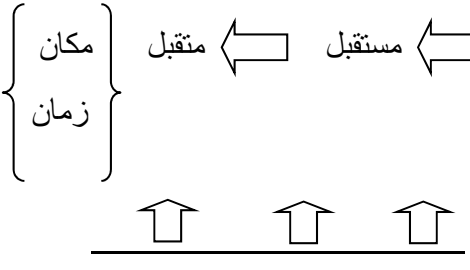

3– الوظيفة التداولية: وتعنىَ في اللّغة العربية بالنَّحو الوظيفي وتقوم برصد مختلف الأدوار التي تقوم بها المكونات بالنسبة لكلا من المتحدِّث والسامع وهي خمس وظائف: وظيفتان داخليتان ووظيفتان خارجيتان وقال في هذا الشأن "مستوى الوظيفة التداولية، أربع وظائف: المبتدأ، والذيل والبؤرة، والمحور ويعتبر الوظيفتين الأوليتين وظيفتين خارجيتين بالنسبة للحمل، وتعدُ الوظيفتين الثانيتين وظيفتين داخليتين، بمعنى أنّ الوظيفتين الأُوليين تسندان إلى مكونين خارجيين عن الحمل في حين أنّ الوظيفتين الثانيتين تسندان إلى مكونين يعتبران جزئين من الحمل ذاته، وأقترح شخصيا أن تضاف إلى الوظيفتين التداوليتين الخارجيتين وظيفة (المنادى) التي نعتبرها واردة بالنسبة للنّحو الوظيفي كافية لا لوصف اللّغة العربية وحسب، بل كذلك لوصف اللّغات الطبيعية بصفة عامة"[5] ونستشف من الكلام ما يلي:

3-1- الوظائف التداولية الداخلية، وهناك:

3-**1-1- الوظيفة التداولية المحور:** وتُسندُ إلى المكون الدال على مدار الحديث داخل الحمل، نحو ما توضحه الجمل الآتية:

جلس زيـــــــدُ أكـــــل زيـــدٌ التفـــاحـــةَ

متموضع { منـــفذ / فاعل / محور } عمل { منفذ / محور } متقبل

المحور: يأخذ وظيفة المحور المنفذ (الفاعل) لكونه يشكّل مدار الحديث داخل الجملة.

3-1-2- الوظيفة التداولية البؤرة: يأخذها المكون الدال على المعلومة الجديدة التي يقدمها المتكلم للسامع.

جلس زيدُ؛ أكـــــل زيـــد التفـــاحة

{ متوضع / البؤرة } منفذ / الفاعل عمل منفذ / محور { متقبل / مفعول / البؤرة }

البؤرة: تسند إلى المكون الحامل للمعلومة الأكثر أهمية والأكثر بروزا في الجملة، ويأخذ وظيفة البؤرة المكون (جلس، التفاحة) لكونهما يشكلان المعلومة الجديدة التي ينقلها المتحدث للسامع، وإن غيابهما يؤثر سلبا على محتوى الجملة.

3-2- الوظائف التداولية الخارجية: وهي؛

3-2-1- وظيفة المبتدأ: يأخذها المكون الدّال على ما يشكل مدار الخطاب خارج الحمل نحو ما توضحه الأمثلة الآتية:

زيــدُ (مسافر أبوه). زيـــــد (أبواه في الحج)

مبتدأ بؤرة• مبتدأ بؤرة

يأخذ المكوّن (زيد) المتصدر للجملتين السابقتين الواقع خارج الحمل، وظيفة المبتدأ؛ لكونه يشكل مجال الخطاب؛ حيث يعتبر الحمل الموالي له (مسافر أبوه أبواه في الحج) وردًا كله بالنسبة إليه؛

3-**2-2- وظيفة الذيل:** يأخذها المكون الدال على المكوّن المُصَحِحَ أو المُعَدِل أو المُوضِح للمعلومة التي ينقلها المتحدّث للسامع نحو ما توضّحه الجمل الثلاثة:

زيدُ سافر أبوه، بل أخوه؛ (ذيل تصحيح)

قرأت الكتاب نصفه؛ (ذيل تعديل)

مرض أخوه، زيد؛ (ذيل توضيح)

وتأخذ المكونات الواقعة في ذيل الحمل السابقة وظيفة الذيل مع اختلاف وظائفها التداولية حسب نوع الذيل، إما تصحيحا (بل والده) وإمّا تعديلا (نصفه) أو (زيد).

3-**2-3- وظيفة المنادى:** يأخذها المكون الدّال على المكون المنادى نحو ما توضحه الجمل الآتية:

يا زيد انتبه إلى الدرس؛ زيد أقبل؛ يا محمد عليٌّ مسافر

بؤرة بؤرة بؤرة

وتأخذ المكونات المتصدرة للجمل السابقة وظيفة المنادى؛ لأنّها تدلُ على المكّون المنادى.

لقد أتاحت لنا هذه الدراسة التي قام بها أحمد المتوكّل بإقامة حوار مثمر مع التراث العربي القديم والدراسات اللّسانية الحديثة، وإنّ هذه الدراسة لا تصدق على اللّغة العربية، بل على كلّ اللغات الطبيعية ومن جملة النتائج التي توصلنا إليها:

- التوكيد على أنّ الوظيفة الدلالة هي محور الكلام، وعليه تلقائيا يتشكل النص اللاحق في وظائف تركيبية على سلميتين في الجملة الفعلية للغة العربية، وأما الوظائف التداولية فهي تركّز بالدرجة الأولى على الجملة الاسمية، ثم تأتي الجملة الفعلية في الدرجة الثانية وكلاهما تسعى إلى تحقيق الأثر الغرضي للحمل أو الجملة؛

- التأصيل لنظرية النحو الوظيفي في اللغة العربية، أي مدّ النحو العربي على النظريات اللسانية الحديثة؛

- التمكن بالخروج من الدراسات الشكلية لنحو العربي، أي من البنية المجرّدة وربطه بالظروف المحيطة بالنص؛

- الانتظار من النحو العربي الإسهام في تطوير دراسات النحو الوظيفي بنماذج حية من تراث عربي غني ومتكامل.

التهميش:

1- ينظر: أحمد المتوكّل، الوظائف التداولية في اللّغة العربية، المغرب: 1985، نشر وتوزيع دار الثقافة، ص 7- 15.

2- المرجع نفسه، ص 9.

3- المرجع نفسه، ص 9.

4- المرجع نفسه، ص 16.

5- المرجع نفسه، ص 17.

• هناك نوعان من مجال التبئير، مجال الحمل الذي يأخذُ فيه المكون الداخل في الحمل وظيفة البؤرة **(جلس** زيدُ)؛ ومجال الخطاب الذي يأخذ فيه المكّون وظيفة البؤرة الحمل برمته (زيد **مسافر أبواه)**.